مواجهة الصحراء

(مغامرة عبر شمال أفريقيا)

كتبها

كنود هولمبو
1902 – 1931

شهيد حرية الرأى و التعبير

ترجمة
حامد محمد مراد

راجعه وقدم له
أحمد محمد سعد

تقديم
فاضل سليمان

مؤسسة جسور للخدمات الثقافية 2006

مقدمة

لم يكن كتاب " مواجهة الصحراء " مجرد قصة مغامرة قرأتها , بل كان تجربة أثرت روحى وعقلى .. فقد لمست فيه روح الحقيقة والشجاعة والرجولة ولم يكن هذا إحساسى وحدى ولكنه إحساس تملك كل من قرأ الكتاب .. فلا يمكن لمن يقرأ الكتاب إلا أن يتملكه شعور بالحب لهذا الرجل و يسيطرعلى كيانه و يزداد مع كل صفحة يقرؤها .

ولد كنود هولمبو فى الثاني و العشرين من شهر أبريل عام 1902 .. كان صحفيا دانمركيا اعتنق الإسلام وهو فى أوائل العشرينات من عمره .. مات شهيدا فى سبيل حرية الرأى والتعبير .. مات لأنه لم يكن يخشى أن يفعل ما يعتقد أنه صواب مهما كلفه الأمر .. مات هولمبو فى سبيل العدل .. مات لأنه كان دائما نصيرا للضعفاء والمظلومين .. كان يرحب بالعمل فى أى مؤسسة ينطوى العمل فيها على روح المغامرة .. لم يكن يحفل بالأخطار المحيطة بهذا العمل , كان جل اهتمامه منصبا على كل ما يبعده عن رتابة الحضارة والمدنية . كان والده رجلا من رجال الصناعة الدنماركيين ولكن هولمبو لم يؤثر الأمان الذى كان من الممكن أن توفره له وظيفة مع والده .. بل آثر العمل فى الصحافة , فقد كانت بمثابة المجال الذى يفجر فيه طاقاته ويجد فيه ما يتفق مع استعداده الفطرى للكتابة . كتب هولمبو مجموعة من القصائد وهو فى سن التاسعة عشر ولكنه أحجم عن نشرها و كتب أول مقالة له كصحفى مسافر عن رحلته الاستكشافية التى قام بها . تلقى أول أجر له عن كتاباته عندما نشرت له دار النشر داجنز عن رحلته الاستكشافية كصحفى عبر مدينة كولونيا إلى أقصى حدود النرويج .

وبعد مضي أربع سنوات وفى عام 1924 سافر إلى المغرب لأول مرة وهناك كتب كتابا بعنوان " ما بين الشيطان والبحر العميق ".

أمضى هولمبو بعض الوقت فى أحد الأديرة الفرنسية , قضاه فى التأمل حيث كان يبحث عن السلام محاولا أن يتكيف مع العالم الذى يعيش فيه , ولكن إحساسه أن المسيحية لم تحقق له ما ينشده هو الذى دفعه إلى الإسلام الذى وجد فيه الراحة والاطمئنان والسلام , وقد ظهر ذلك جليا فى كتابته عن الدين الإسلامى والفلسفة الإسلامية فى كتابه , ويمكن القول أن هولمبو وجد فى الإسلام ما كان ينشده فى المسيحية .. وقد ذكر ذلك فى الفصل السابع من كتابه , عندما كتب
" أعتقد أن الإسلام هو المسيحية الحقة ."

سجل هولمبو بالكلمة والصورة وحشية وظلم القوات الإيطالية الفاشية بقيادة موسولينى والتى احتلت ليبيا .. فقد تعامل مع كلا الجانبين سواء مع القوات الإيطالية أو مع الثوار بقيادة عمر المختار .

تعاطف هولمبو مع المظلومين , فعندما وصف الضابط الإيطالى المسلمين بأنهم متمردين دافع عنهم قائلا :" هؤلاء الناس ليسوا متمردين وإنما يدافعون عن وطنهم".

لقد تعاون هولمبو مع الثوار وحمل بعض رسائلهم إلى قائدهم إدريس السنوسي .
" مواجهة الصحراء " كتاب فريد من نوعه تمس أحداثه قلب كل قارئ .. فقد تحدر الدمع من عيني عدة مرات وأنا أقرأ هذا الكتاب .
فيمكن للقارئ أن يشعر بفطرة هذا الصحفى الدنماركى النقية عندما وصف الثوار قائلا: " كانت ملابسهم رثة, غير أن نظرات السلام والتصميم على النصر علت وجوههم وهم نائمون.. لقد أدركت الآن لماذا كان هؤلاء الرجال على استعداد للموت دون أن يهتز لهم جفن , ففى اليوم الذى قضيته معهم لاحظت مدى تمسكهم بدينهم واعتصامهم بحبل الله .. ولم يخطر ببالهم ولو للحظة أن يضيقوا بما قسمه الله لهم مهما كان مصيرهم .. فقد كانوا يحمدون الله وهم تحت المشانق على نعمة الحياة التى وهبها إياهم ويتحملون أى معاناة .. كان هؤلاء الرجال النائمون أمامى فقراء وأميين.. فلم يعرفوا القراءة .. بل كانوا يكتبون أسماءهم بصعوبة.. ولكنهم كانوا بالنسبة لى أنبل من رأيت من البشر ."
كان هولمبو من الكتاب القليلين الذين قرأت لهم وكنت أتمنى أن أقابلهم .. فقد كان يجسد الأمل الذى نحتاج إليه فى عالمنا اليوم .
كتب قائلا :" توجهت السفينة نحو الشمال .. نحو الرفاهية والراحة التى وفرتها المدنية الحديثة .. وبينما كنت أنظر إلى الساحل الأفريقى وقد بدأ يغيب عن الأنظار , اعتصر قلبى ألما على هؤلاء الفقراء الذين عرفتهم فى نضالهم اليائس ... سوف يسود العدل يوما ما ... عدل لا يشوبه جشع للسلطة ... عدل يدفع الجميع إلى فهم كل ما هو جميل فى هذا العالم . "
تأثر هولمبو بحديث النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع عندما قال : " أيها الناس إن ربكم واحد , وإن أباكم واحد , كلكم لآدم وآدم من تراب , إن أكرمكم عند الله أتقاكم , وليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى ."
وقد تأثر هولمبو أيضا بحديث النبى صلى الله عليه وسلم **"سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله."** (رواه الحاكم و الطبراني في الأوسط)
لقد فهم هولمبو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقصد بحديثه هنا أن حرية الرأى والتعبير ليس لها حدود .. هذه الحرية يتمتع بها الصحفيون نحو الاتجاه الصحيح وهو الدفاع عن البشر ضد الطغاة وليس العكس .. وطالما أنها تهدف إلى الدفاع عن المظلومين فهى فى الاتجاه الصحيح .
فالصحفيون مثلهم كمثل هولمبو يجب ألاّ يرضخوا للطغاة وألاّ يتراجعوا عما يكتبون إرضاءا لهم مهما اشتدت عليهم وطأة التهديدات أو الضغوط .. فالموت لا يأتى إلا مرة واحدة .. و أكرم للمرء أن يموت فى سبيل مبادئ الحق والعدل من أن يعيش يرسف في قيود الذل. ولنقرأ سويا ما كتبه هولمبو عن ستة من رفقائه فى السجن وقد حكم عليهم بالإعدام .. " لم يظهر على وجه أحد منهم أنهم سجناء على حافة الموت .. لقد تملكنى إعجاب شديد بهم .. هؤلاء الرجال الذين كانوا يقطنون الجبال ويرفضون الاستسلام .. لقد كانوا يفضلون الموت على حياة الاستعباد . "

كان هولمبو يتمنى أن يحقق رسالته كصحفى وأن يوصل الحقيقة للأوروبيين فكتب يقول : " ما يشاع فى أوروبا من أن العرب المتعطشين للدماء يهاجمون الإيطاليين المسالمين فى برقة ليس من الحقيقة فى شئ .. إننى الوحيد الذى يعرف من هم البرابرة ... الإيطاليون أم العرب . "
هذا هو كنود هولمبو .. شهيد حرية الرأى والتعبير ... طيّب الله ثراه ورحمه وأدخله فسيح جناته .

فاضل سليمان
2006

رسالة كنود
مقدمة
بقلم: أحمد محمد سعد

حين انتهيت من قراءة ترجمة كتاب " مواجهة الصحراء " للصحفى الدانمركى المسلم كنود هولمبو, وددت لو ان القصة لم تنتهى وتأكدت عندى حقيقة طالما آمنت بها , وهى ان الناس تقوم اقدارهم حسب ما تنتهى عليه حياتهم . فمن الناس من يموت صريع الهوى ومنهم من يموت سعيا خلف متاع أو مادة بل ان الناس يقتتلون طمعا فى صفقة أو تجارة, غير ان عددا قليلا جدا يموتون وهم يخطون بدمائهم وعرقهم ومعاناتهم ملاحم العزة والبطولة . هؤلاء الذين يكتب لهم الخلود. من هؤلاء النفر القليل, صاحبنا الدانمركى كنود هولمبو الذى خرج ينشد الحقيقة فمات من أجلها. لقد كان بوسع "كنود" أن ينعم بعيشة راغدة وحياة هانئة فى بلده أو ينتقل بين بلدان أوروبا متمتعا بما فيها من خضرة وجمال, لكن نفس الابى تأبى عليه الا أن يسود .

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتال

لقد خرج الرجل يبحث عن الحقيقة والسعادة التى لا يعرفها سكان المدينة الحديثة الخادعة, خرج يبحث عنها فى ثياب العرب الممزقة , وحياة البدو البسيطة , وطعامهم الذى لايعدو التمر والماء ولحم الماعز وألبان النوق .خرج الرجل ليعانى فوجد السعادة فى معاناته اذ أن معاناة جسده تكفلت بالسعادة لروحه النبيلة .خرج يتلمس شعبا سلبت منه ارضه وكرامته وطلب منه أن يستسلم لآسريه, فلما أبى نعت بأبشع الالفاظ ووصف بالبربرية, والوحشية ورفض التحضر.

خرج كنود من بلده ولاقى العنت فى صحراء أفريقية كى يرصد عن قرب ما يجرى بين الذئب والضحية , بين المستعمر الظالم وصاحب البلد الشريف ورسم لنا بكلماته لوحات أصدق تعبيرا من ألف فيلم وثائقى. كلمات الرجل تنبض بالروح وتهز القارىء هزا وتمس أوتار قلبه.

حينما انتهيت من كتاب كنود تذكرت كلمة رفيقه علي درب الكفاح الأستاذ سيد قطب: " كلماتنا عرائس من شمع , فاذا متنا من أجلها دبت فيها الروح" وتذكرت آلاف المطنطنين بكلمات هى أكبر من أحجامهم , لا يعرفون معناها ولا يدركون قيمتها . تذكرت ساعتها قيمة الكلمة وكيف أنها صانعة تاريخ وشاهد عيان يبقى مهما تغيرت الاحوال أو تبدلت الايام.

تأكد عندى أن على كاتب مسئولية ليست باليسيرة, اذ أنها مسئولية أمام الخالق العظيم وأمام الناس .

لقد عاش كنود حياة – فى أعين الناس – قصيرة جدا. لكن حياته الحقيقية مازالت باقية فى كلماته الصادقة التى أراد ان يحق بها الحق ويرفع الظلم عن المظلومين . لقد مات قاتلوه ولم يبق لهم فى التاريخ الا صفحات سود تشهد عليهم بالخزى والعار.

آراؤهم فى رؤى التاريخ مظلمة   واستتبعوا فى اللحود السود تبكيتا

أما هو , فمات بل علا ذكره وبقيت كلماته تشهد لنبله وتهبه حياة بعد حياة وتخلد اسمه بين الابطال .

تجربة كنود تبعث برسائل **ثلاثة واضحة**, رسالة تحذير الى العالم كله, كيف يفقد الانسان آدميته حين يتهيأ له أن كمال قوته يكون بالسيطرة على ارادة الآخرين ومصادرة حرياتهم واستلاب مقدراتهم . ورسالة الى المظلومين والمستعمرين فى كل مكان ألا يراعوا بل عليهم بالصبر والكفاح ففجر سياتى ونصر قريب .

ورسالة ثالثة الى كل صاحب كلمة أو قلم , انه يصنع بيده تاريخه فاما أن يحسب مع الطغاة والمستبدين فيصيبه من لعنة التاريخ ماقد يصيبهم أو يحسب مع أصل الحق وينال من الخير ماينالهم . هذه الرسالة الثالثة هى رسالة تثبيت لكل من أوذى فى بدنه من الكتاب والصحفيين الذين يريدون الخير لهذا العالم. رسالة لمن كممت أفواههم وكسرت أقلامهم واريقت محابرهم:

اصنعوا من صمتكم ملحمة تكون ابلغ من الكلمات , ومن دمائكم مدادا يسطر البطولة وخطوا طريقكم الى آفاق المجد بالعرق والكد وان متم ففى الموت للشرفاء سبيل الخلود .

اذا غامرت فى شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فى أمر حقير   كطعم الموت فى أمر عظيم

رحمة الله على كنود هولمبو وسلامه على كل الشرفاء الخالدين

أحمد سعد

الفصل الأول

مراكش .. نقطة البداية

كان ذلك فى عام 1930 عندما كنت جالسا فى بهو فندق الكونتيننتال في سبتة .. كان يجلس أمامى على كرسى من الخيرزان وهويقرأ جريدة التايمز .. شعره رمادى .. أخذ يهز قدميه بطريقة تدل على أنه كان منشغلا عن قراءة الجريدة التى بين يديه . تثاءب ملء شدقيه , ولم يهتم كعادة الإنجليز بوضع يده على فيه .. طوى الجريدة ووضعها على المنضدة وأخذ يحملق بعينيه الحمراوين فى الفضاء.
وقعت عيناه عليّ لأول مرة فبادرنى قائلا : " إن اليوم شديد الحرارة ."
أود أن أضيف هنا تفسيرا لهذه الخصلة التى لاتمت للإنجليز بصلة فقد تجاذبنا أطراف الحديث سويا عن نفس الموضوع فى اليوم السابق .. لم يكن هناك سوانا فى بهو الفندق .
سألته : " هل أنجزت عملك اليوم ؟ "
هز كتفيه وألقى ببقايا سيجارته على الأرض ورد قائلا :" نعم .. ولكننى لم أفهم ماذا تقصد بإنجاز العمل ؟ فإن كنت تقصد معرفة ما إذا كنت شاهدت شيئا اليوم .. أقول لك إننى تجولت بالسيارة مع المحافظ طوال الصباح , وقد زرنا الرصيف البحرى الجديد و مشاتل التجارب ومصانع الكيماويات ومبنى الحكومة الجديد .. كانت جولة جميلة . وماذا فعلت أنت اليوم ؟"
قلت له :" لم يختلف اليوم عن الأمس .. قضيت الصباح كله وأنا أحاول الحصول على تصريح بالسفر بالسيارة من أسبانيا إلى برشلونة .. لم يختلف الأمر , عليّ الإنتظار والتحلى بالصبر . "

تنهد قليلا ثم قال : " أعرف ذلك.... لاأجد ما أكتب عنه هنا سوي الاحتلال الأسبانى الرائع للمغرب .. لم أطالع سوى بعض الأرقام و الإحصائيات وبعض المبانى . لايوجد شئ مختلف عن أوروبا .. صحيح أننى شاهدت بعض العرب القذرين يجرون فى الشوارع , لكن هذا غير كاف .. من المفروض أن أكتب عن سلسلة من الصور الشرقية."
ثم سألنى :" ولكن لماذا تصر على السفر بالسيارة إلى برشلونة ؟"
قلت له :" هذه الفكرة ظلت تراودنى منذ فترة طويلة .. إننى أنوى السفر من برشلونة بالبحر إلى مصر أو سوريا .. ومن هناك أستطيع السفر برا إلى الجزيرة العربية ."
التزم الصمت لبرهة .. أخرج علبة سجائره وقدم لى واحدة ثم وضع واحدة فى فمه وأشعلها وأطلق سحابة كبيرة من الدخان .
ضرب بيده على المنضدة كمن خطرت له فكرة وقال :" لماذا لاتسافر بالسيارة إلى مصر مباشرة عبر إفريقيا ؟ "
قلت له : " هذا مستحيل !! "
سألنى :" ولماذا تعتبر ذلك أمرا مستحيلا ؟ "

قلت له : " لايمكنك أن تخترق الصحراء الليبية .. هناك حرب دائرة فى طرابلس وبرقة ."
قال : " ولماذا لاتحاول ؟ أنت تتحدث العربية واعتنقت الإسلام .. اذهب إلى هناك وألف كتابا عن شمال إفريقيا كما تراه العيون العربية. "
ترددت قليلا ثم قلت له : " لقد تناقشنا في هذا الأمر أمس.. لقد اعتنقت الإسلام بكل إخلاص ..

وإنني أشعر أن السفر إلى الجزيرة العربية والمدينة ومكة يجب أن يكون من أولوياتي ."

هز رأسه ببطء.. ثم قال : " إن شمال أفريقيا منطقة مثيرة للاهتمام .. وإنني لا أقصد كيف

تنتشر المدنية فيها ..أو ما حققته .. ولكنني أريدك أن تدرس الإسلام في شمال أفريقيا

وتكتب عنه. "

قلت له دون تردد : " إن حال الإسلام يتردّى هنا ".
رد قائلا : " هذا صحيح تماما .. ولكن قد تمضي شهور قبل أن تحصل على تصريح بالسفر

من أسبانيا .. إن بريمودي ريفيرا يتوقع اندلاع الثورة في أي وقت .. عليك أن تبدأ رحلتك

علىالفور .. عليك بارتداء الملابس العربية وتجنب الأوروبيين " .

قلت له : " إن الأمر سيكون في غاية الصعوبة .. قد يقبضون عليّ.. لن يسمحوا لي بالمرور".

قال : " ولكنك سوف ترى أفريقيا في صورتها الحقيقية .. إنني أتمنى لو كنت أستطيع

التحدث بالعربية ".

نهض واقفا ... طوى الجريدة وبدأ يصعد السلم ببطء قائلا : " إلى اللقاء .. أريدك أن تفكر مليا

فيما إقترحته عليك " . انحنى له الحمال بأدب عند صعوده.

كانت الساعة الثانية خرجت لأمشى في الشارع .. كانت الشمس تبعث الدفء .. حتى في شهر

يناير . خارج الفندق جلس أربعة من ماسحي الأحذية .. لم يكن هناك من العرب سوى هؤلاء

الأربعة.. بينما كان الشارع يمتلئ برجال الأعمال من جميع الأمم ومن كافة الألوان والأجناس
انتشر بائعو الجرائد من الأطفال .. كانوا حفاة الأقدام و يصيحون بأعلي أصواتهم: "أقرأ جريدة *السول دي مدريد."*

توجهت نحو الجراج.. وفي الطريق شاهدت شبابا من الضباط الأسبان وهم يقفون خارج

المقاهي وأحذيتهم تلمع وعلى أكتافهم رتبهم العسكرية ذات اللون الذهبي , كان السقاة يقدمون المشروبات هنا وهناك ..و صوت النقود يصر... بينما كانت فرقة الموسيقى النحاسية تعزف .." أوروبا .. أوروبا " .

عندما وصلت إلى الجراج , دفعت الأجرة ثم ركبت السيارة وتوجهت إلى الفندق .. جلست أفكر

لم يكن هناك فائدة من الانتظار , وقلت لنفسى أنه من الأفضل أن أعمل بنصيحة الرجل

الإنجليزى .. وأتمنى أن أنجح فى ذلك . فلربما كنت أتبع الصوت الذى ظل يهمس لى لأيام خلت.

وجدت لوحة فى الطريق مكتوب عليها (إلى تطوان 2500 ميل)

استيقظت قبل شروق الشمس, بدأ الضباب الذى كان يلف تطوان طوال الليل ينقشع مع أضواء الفجر .. ومن كل مئذنة ارتفع صوت الأذان يدعو إلى صلاة الصبح .
كانت حجرتى فى الفندق الذى أقمت فيه مثل أى حجرة فى الفنادق الحديثة فى جنوب إفريقيا . . إلى أقصى الشمال .. كانت حجرة فخمة .. مزودة بالماء الساخن والبارد .. ستائر ثقيلة على النوافذ , بينما أرضية الحجرة تغطيها سجاجيد وثيرة .

وعندما انتهى المؤذنون من دعوة المصلين للصلاة , بدأت أسمع وقع الأقدام .. وصوت العجلات .. ثم اخترق سمعى صوت غناء حزين , كان الصوت ينبعث من أحد المنازل العربية.
كانت أغنية حزينة .. بدأت رقيقة ومنخفضة ثم ارتفع الصوت تدريجيا ثم انخفض ثانية .. كان الغناء نحيبا لموت أحد كما بدا لى , ربما كان أباً يبكى لوفاة ولده أو شاب يبكى أباه كان هذا الغناء الحزين مستمرا من غروب شمس اليوم السابق حتى الصباح .
كان هذا آخر يوم بالنسبة لى كأوروبى .. آخر يوم لى فى فندق فخم حديث .. وكان فى نفس الوقت هوأول يوم لى مع أناس كنت أتحرق شوقا للتعرف إليهم والعيش بينهم .
ارتديت البرنس المغربى (العباءة العربية) .. وبعد لحظات كان من الصعب التعرف عليّ.
لم يمثل لون بشرتى ولا لون عيناى الزرقاوين أهمية .. فقد كان معظم المغاربة فى الشمال طوال القامة ويغلب عليهم اللون الأشقر . لقد تجنبوا الاختلاط بالعرب الذين غزوا السهول فى الجنوب .. انحدر هؤلاء المغاربة من قبيلة الجرمان التى اجتاحت أسبانيا والمغرب قبل غزو العرب لهما .. كانوا سلالة قريبة من الإسكندنافيين .
كان الحمال منشغلا , وكنت فى عجلة من أمرى , فذهبت إلى المسئول وطلبت منه فاتورة الحساب الخاصة بى .. نظر إليّ الموظف باستغراب .. لم يتعرف عليّ فى البداية , وعندما عرفنى سألنى بدهشة : " ولكن لماذا ترتدى اللباس العربى ياسيدى ؟ "
قلت له :" لأننى سأسافر عبر البلاد ."
رد قائلا :" من المؤكد أنك سوف تقابل الكثير من المصاعب ."
فى هذه اللحظة وصل ضابطان أسبانيان كنت قد تحدثت إليهما فى اليوم السابق .. وقد كان حديثهما معى رقيقا أما الآن فقد اختلف الأمر .. لم يتعرفا عليّ وأزاحانى جانبا فقد بدا أنني أحتل المكان الذي يريدانه .. كان من الواضح أننى أقل من أن أقف بجانبهما , فأنا الآن مغربى يمكن معاملتى بأى طريقة .
كان الأوروبيون يعتبرون اللباس الأوروبى من بنطلونات وبدل دليلا على الثقافة .. وفهمت فجأة قصة عبد الكريم القائد الذى تلقى صفعة قوية على أذنه من ضابط أسبانى . هرب
عبد الكريم إلى الجبال وقد هزته الإهانة التى لحقت به .. وأعلن تمرده على الأسبان .. هذا التمرد كاد يدفع الجيش الأسبانى إلى البحر .. ولولا قيام فرنسا بإرسال أحد قادتها العسكريين لمساعدة الجيش الأسبانى لتم ذلك .
ذهبت إلى الجراج لإحضار سيارتى الشيفروليه .. كانت موديل 1928 ذات أربعة سلندرات .. كانت تبدو كالسيارة العادية .. ولكنها كانت مفتوحة من أعلى ومزودة بخزان وقود كبير يسمح لى بالسير 375 ميلا دون حاجة للتزود بالوقود .

وعندما عدت إلى الفندق أخبرنى الحمال بأن أحد العرب حضر لمقابلتى .. كنت على وشك الصعود إلى غرفتى لإعداد حقائبى , عندما صاح الحمال قائلا :" هاهو ياسيدى ".
توجه الرجل نحوى وسألنى :" سيدى هل أنت مسافر بالسيارة إلى الجزائر وتونس ؟"
قلت له :" نعم .. هذا صحيح .. ولكن كيف عرفت ذلك ؟"
قال :" سمعت ذلك في المدينة .. هل من الممكن أن أسافر معك ؟"
سألته :" ولماذا تريد أن تأتى معى ؟"
قال :" ليس لدى مال,ولكننى أستطيع أن أساعدك فى الطريق إننى أريد أن أسافر إلى تونس ."
سألته :" ما اسمك ؟"
قال :" عبد السلام ."
سألته :" وكم عمرك ؟"
قال :" أبلغ من العمر 19 عاما .. ولكننى لست متأكدا من ذلك ."
سألته :" أليس لك أقارب هنا ؟"
قال :" لا .. والدى كان يحارب مع عبد الكريم , ولكنه قتل بالرصاص , وتزوجت والدتى بعد وفاته .. إنها تعيش فى شفشاون الآن ."
كان الذكاء يبدو على عبد السلام .. لذا قررت أن آخذه معى .. فلن يكون الأمر سهلا إذا سافرت وحيدا فى الجزء الأول من الرحلة فى الجبال والصحارى إلى تونس .
سألته :" هل لديك جواز سفر ؟ "
أومأ عبد السلام برأسه وأعطانى جواز سفره .. كان صالحا للسفر فى المحميات والمستعمرات الفرنسية .. مما يعني أن بإمكاني إصطحابه حتى طرابلس .
بدأنا الرحلة فس تمام التاسعة .. وقررنا أن نعبر الحدود بين المحميتين الأسبانية والفرنسية عند فاس ونتقدم إلى الحدود الجزائرية فى وجده .. فإن رحلتى تبدأ فعليا من هناك .
كانت الخطة أن أتجه جنوبا عبر جبال أطلس حتى أصل إلى واحة فجيج فى الصحراء الشمالية
اقتصرت أمتعتنا على الأشياء الضرورية فقط .. فلم يكن لدينا خيمة وكنت أنوى شراء واحدة فيما بعد .. ومعدات الطبخ الأساسية فقط .. لم تكن هناك حاجة لاستخدام المعدات الخاصة
بالمعسكرات فى الجزء الأول من الرحلة , فقد كان الجزء الخصب من مراكش والممتد بين جبال الأطلس فى الجنوب وجبال الريف فى الشمال تملؤه المدن الكبيرة والصغيرة على السواء
اجتزنا الحدود فى الساعة الثانية .. وهنا توجهنا جهة الشرق نحو فاس , عاصمة مراكش القديمة .. كان الطريق يمر خلال الجبال .. كنا نمر خلال الثلوج الكثيفة .
وصلنا حوالى الساعة الخامسة إلى فاس .. وأوقفنا السيارة فى الميدان حيث السوق على مسافة قريبة من المدينة .

عرفت أن هناك فى المساء احتفالا دينيا يسمى " العيساوى" يتم الإحتفال به فى فاس .. ولم أكن أعرف معنى الكلمة .. لم يكن مسموحا لأى أوروبى أن يدخل إلى المنزل الذى يقام فيه
الإحتفال .. ولكن الأمر كان سهلا بالنسبة لى .
كان المنزل يقع فى أحد شوارع فاس الجانبية الضيقة .. وكان الاحتفال فى أرض فضاء .. كان هناك نار مشتعلة فى أحد الأركان .. تلقى بضوئها على كل الموجودين فتظهر لهم على الجدران أشكال رائعة .
لم يكن الحفل قد بدأ عندما وصلت .. عدد من الرجال يضعون الدفوف بالقرب من النار .. تجمع كثير من المتفرجين حول الفناء .. تشكلت دائرة من عشرة إلى اثنى عشرة رجلا تراوحت أعمارهم بين الخامسة عشرة و الثمانين .. أمسك كل واحد بدف وبدأوا فى الغناء :

أعن يا رب عقلي الضعيف
يري الجلال في الكون الفسيح
واجعل إلهي عبدك الضعيف
يعيش طاعة مع التسبيح

و افتح إلهي سمعي الضئيل
حتي أسمع صوتك العظيم
أدم علي نعمة التسبيح
ونعمة الخضوع و التسليم
فلا اشتهاء لي بكبر أبدا
وذاك عندي أعظم التكريم

بين دق الدفوف والغناء كانوا يتمايلون ويدورون فى حركة آلية غريبة كما لو كانوا لايفهمون الكلمات .. كاوا يتمايلون مع دق الدفوف .
بعد أن انتهوا من الغناء تقدم للأمام أحد الرجال وكانت لحيته بيضاء .. جلس الجميع , بدأ العجوز فى ترديد كلمة لاإله إلا الله والجميع يرددون وراءه .. كانت النغمة بطيئة أول مرة .. وبعد أن رددوها مائة مرة تغيرت النغمة وازدادت سرعة .. وقف الجميع .. وبدأت الأصوات ترتفع مرددة لا إله إلا الله .. وأصاب الجميع نشوة وسرور .. ارتفعت الرؤوس إلى أعلى وأسفل بسرعة كبيرة .. واهتزت الأجسام بشدة .. وفجأة وقف العجوز وولد صغير فى وسط الدائرة .. تكررت كلمة لاإله إلا الله .. قرابة الألف مرة .. ثم بدأ الغناء من البداية مرة أخرى .. أخذ الراقصان يهتزان بشدة .. وأخيرا سقط العجوز على الأرض مغشيا عليه .. فحملوه بعيدا
كان هناك رجل مسن بين المتفرجين .. راقبته فوجدته يهز رأسه وقد غلبه الحزن .. توجهت إليه وسألته عن المقصود بهذه الرقصة . رد قائلا :" لا أفهم هؤلاء الناس على الإطلاق .. ليس منهم من يفهم ويراعى قواعد الإسلام .. وعلى أية حال ليس لما يفعلونه أية علاقة بالإسلام ."
سألته بسرعة :" ولكن لماذا يرددون كلمة لا إله إلا الله ألف مرة ؟"

رد بهدوء :" لقد أساءوا فهم أحد المعلمين العظماء .. " بن عيسى " من مكناس .. فقد كان يقول أن من يداوم على ترديد إسم الله فإن صورة الله تنطبع فى قلبه .. والآن هم يتخيلون أنهم يدخلون الجنة مع ترديد لا إله إلا الله ألف مرة .. أعتقد أن ذلك جنون .. الله وحده يعلم
ما سيحدث فى شمال أفريقيا, لقد أصبح الإسلام الخالص مجرد تعويذة أو رقية يرددها الناس ."
قلت له :" إننى أعتقد أن الأفضل أن يذكر المسلم الله فى قلبه ."
ذهبنا إلى المسجد فى الصباح قبل السفر .. كان للمسجد الكبير فى فاس مدخل صغير غير واضح ولكنه كان يسع تيارات المصلين وهى تدلف إلى المسجد لأداء صلاة الصبح . لم يكن مسموحا للأوروبيين بدخول المساجد فى فاس .. فلم يكن المغاربة يحبون أن يشاهدهم السياح وهم يؤدون الصلاة .. ومع ذلك لم يمنعنى أحد من دخول المسجد . وعند المدخل كان هناك فناء صغير به أحواض مزودة بالماء الجارى .. كان على كل من يريد أن يؤدى الصلاة أن يغتسل قبل الدخول إلى ساحة المسجد .. يغسل الذراعين والرقبة والأرجل بعناية فائقة .. نظافة الجسم تماما ضرورية قبل أداء الصلاة .
كانت كلمة لا إله إلا الله .. هى آخر ما يقوله المؤذن من فوق المئذنة يرددها المصلون جميعا .. ثم يتقدم الإمام من بين المصلين ويقرأ آيات من المصحف الشريف .. لم يكن هناك خطبة عقب الصلاة .. اختلف المصلون فى إستيعابهم للقرآن الكريم .. فكل يعمل بما يفهمه .. لم يكن هناك موسيقى فعلى الرغم من أن الموسيقى كأنواع الفنون الأخرى تعتبر من الوسائل التى تصل بها إلى الله .. إلا أنها قد تؤدى إلى تشتت المسلم وتشتت مفهوم الله الذى يحاول الإسلام دائما أن يرسخه فى عقيدة المسلم .
بدأ الإمام فى تلاوة بعض آيات من القرآن , ثم تقدم إلى الأمام ورفع يديه إلى جوار أذنيه
قائلا :" الله أكبر "
مع هذه الكلمة يبدأ تركيز المصلين فى كل ما يقرؤه الإمام حتى يحصلوا على ثواب الصلاة .. ثم يبدأ الإمام فى قراءة الفاتحة وهى أول سورة من سور القرآن .. " بسم الله الرحمن الرحيم , الحمد لله رب العالمين , الرحمن الرحيم , ملك يوم الدين , إياك نعبد وإياك نستعين , إهدنا الصراط المستقيم , صراط الذين أنعمت عليهم , غير المغضوب عليهم , ولا الضالين آمين "
وبعد أن ينتهى الإمام من قراءة الفاتحة , يقرأ سورة أخرى من القرآن الكريم .. ثم تأتى اللحظة الجليلة حين يضع المصلون جباههم على الأرض ساجدين لله المعبود الواحد .. يدرك فيها المسلم أن الحمد لله فى لحظة السجود وفى كل وقت . وبعد أن ينتهى المصلون من الصلاة , يصافح كل مسلم من يجلس عن يمينه وعن يساره من المصلين قائلا :" السلام عليكم أجمعين ." وبعد ساعة من انقضاء الصلاة بدأنا رحلتنا من فاس إلى وجده .. كان الطريق جيدا .. فوصلنا إلى هناك الساعة الثانية ..

وهناك توجهنا مباشرة نحو الجنوب .. حيث كانت بداية رحلتنا عبر الصحراء .. وصلنا إلى واحة صغيرة قريبة من سفوح جبال أطلس .
حصلنا من هناك على ما يكفينا من الوقود ثم توجهنا إلى فجيج .. وهى واحة على بعد 125 ميلا فى الصحراء .. كان القمر بازغا عندما بدأنا الرحلة .. وبعد دقائق بدأت بشائر الفجر تلوح من خلف قمم الجبال .. كان الجو باردا للغاية .. وكان هناك صقيع يغطى حبيبات الرمال.
كانت المنطقة التى نسير فيها مقفرة ومنعزلة .. مررنا بأحد الرعاة وهو يؤدى صلاته ميمما شطر مكة .. كان منشغلا بصلاته فلم يلتفت إلى السيارة ونحن نمر بجانبه . كان البرد قارسا .. والصقيع الذي يغطى رمال الصحراء لايذوب إلا مع وجود الشمس فى كبد السماء .
كانت الأمطار نادرة على الرغم من أننا كنا فى فصل الشتاء .. كانت السماء صافية دائما .
سرنا بالسيارة أميالا كثيرة لم نر خلالها أيا من البشر , لم نكن نسمع سوى صوت المحرك .. أصبح الطريق سيئا وإزداد سوءا بين الجبال .. كان علينا أن نجتاز الحفر العميقة ونتخطى الصخور الكبيرة .. كانت الوديان يملؤها الماء من الثلوج الذائبة , وفى أحيان كثيرة كنت أظن أننا لن نستطيع اجتياز بعض المناطق التى يندفع فيها الماء بشدة . اكتشفت أن تلك الوديان لم تكن عميقة .. كنا نخلع أحذيتنا ونخوض فى الماء حتى نعرف عمقها قبل أن نجتازها بالسيارة .. كنا نجتاز الوديان بأسرع ما يمكن وكانت المياه تغطى جزء من المحرك , مما كان يؤثر على كفاءته لبضع دقائق .. نواصل بعدها سيرنا المعتاد.
بعد بضعة أميال وصلنا إلى مناطق الثلوج الكثيفة .. كانت الثلوج شبه ذائبة من جراء سقوط أشعة الشمس عليها . لم يكن لدينا أى معدات تساعدنا فى السير على الجليد .. وكثيرا ما كانت السيارة تنزلق إلى الخلف .. لحسن الحظ سارت الأمور دون مشاكل تذكر .. وبعد حوالى
أربع ساعات تركنا الكبيلى .. ووصلنا إلى المنطقة التى تتفرع من جبال أطلس .
وصلنا إلى الطريق الوعر الذى امتد عبر المنحدر .. كان يوصل إلى بحور من الرمال التى
لا نهاية لها .. بدأنا نستعين بالبوصلة حتى نحدد اتجاهنا .. فقد انتهى الطريق .. وعندما نظرنا فى الخريطة وجدنا أن واحة الفجيج على بعد عدة أميال تجاه الجنوب .. كان من السهل الوصول إليها . سرنا فى منطقة حجارة صلبة أحدثت عدة ثقوب فى الإطارات مما إضطرنا إلى التوقف لساعات لإصلاحها .
كانت التضاريس تتغير بإستمرار .. كنا نضطر إلى السير فى مسار متعرج حتى نتجنب الصخور .. وأحيانا أخرى نسير ببطء شديد .
كانت الشمس على وشك المغيب عندما صادفتنا قافلة .. كانت الجمال تسير فيها بخطوات بطيئة تميزها العظمة , توقفنا قليلا وتجاذبنا أطراف الحديث مع البدو الذين حضروا من فجيج متوجهين إلى السوق فى الكبيلى .

كان قائد القافلة . . طويل القامة .. قوى البنية .. أكسبته الشمس سمرة .. كانت له عينان صافيتان هادئتان يتميز بهما سكان الصحراء , كانت له زوجتان تركبان فى هودج على ظهر الجمل , بينما كان هناك عددا من الأطفال يمرحون بين الجمال المحملة بكل أنواع البضائع التى كان ينقلها إلى السوق .
دعوت بعض الأطفال لآخذهم فى جولة بالسيارة .. وبعد إلحاح شديد وافقوا على الركوب معى فى السيارة .. وضع أكبرهم سنا يده على قفل الباب حتى لا أتمكن من إغلاقه .. قدت السيارة فى دائرة صغيرة وبعد حوالى 50 ياردة لم يكن فى سيارتى أى راكب .. فقد تملكهم الرعب وقفزوا الواحد منهم تلو الآخر .
ركب القائد جمله , ضربه برفق بعصاه على رأسه .. وبدأت القافلة فى التحرك .
جرى الأطفال وراءهم وهم يتصايحون .. وسرعان ما اختفى الجميع عن أنظارنا .
غربت الشمس .. وبدا الظلام يخيم على الطريق .. كنت أخشى أن نكون فقدنا طريقنا .. أضأنا كشافات السيارة لتلقى بضوئها على الطريق وعلى الرمال الصفراء بطول الطريق .. كنا نرى
بعض الضباع تظهر وتختفى فى الظلام ثانية .. كنا نرى عيونها الفوسفورية وهى تلمع فى الظلام . شاهدنا مجموعة من الأضواء على بعد .. جهة اليسار .. لم تكن هذه الأضواء تأتى
من الفجيج .. فما زال أمامنا 60 ميلا حتى نصل إليها .. اتجهت بالسيارة نحو الأضواء .. وسرعان ما تبينا أربعة حرائق مشتعلة وهى تتوهج .. اقتربنا أكثر , سمعنا ضوضاء تصم الآذان .. هجمت علينا مجموعة من الكلاب محاولة القفز إلى السيارة .. طردناها بعيدا .
رأينا صفا من الخيام خلف النيران .. وسرعان ما ظهرت بعض الأشباح فى الظلام .. أتى بعض الرجال نحونا وهم يحملون بنادقهم , توقفت بالسيارة وسرعان ما اشتبكنا بالأيدى مع الكلاب , وبعد فترة ابتعدت عنا ووقفت على بعد وهى تشكل دائرة حولناتنبح وتزمجر .
وصل شيخ المعسكر يصطحبه رجلان .. واقتربوا من السيارة , وعندما رأوا ملابسنا العربية مد الشيخ يده مصافحا ومرحبا .. قال :" السلام عليكم ."
قلت له :" وعليكم السلام ."
عندماسمع الآخرون هذا الحوار بيننا وبين الشيخ , أبعدوا الكلاب وإعتبرونا ضيوفا .. ومعنى ذلك أنه لا أحد يجرؤ على إيذائنا ونحن معهم فى داخل المعسكر .
سألنا الشيخ عن المكان الذى أتينا منه , وما هى وجهتنا , فشرحت له أننا أتينا من فاس ومتوجهين نحو الفجيج .. ولكننا لم نكن متأكدين من الطريق .
قال الشيخ :" أقسم بالله أنكم فى الطريق الصحيح .. ولكنك لا تتكلم نفس لغتنا .. فمن أين أتيت وإلى أين أنت ذاهب ؟ "
شرحت له أننى أتيت من الدنمارك وأننى فى طريقى إلى الجزيرة العربية إلى الحجاز .
ابتسم وقال :" الحمد لله .. أنك ذاهب إلى مكة أرض الله الطيبة .. إنك محظوظ .. فأنت ذاهب إلى أرض الله المقدسة إلى الأرض التى كان فيها رسول الله صلى الله

عليه وسلم , ولكننى لم أسمع عن بلدك .. أين تقع .. وهل الناس هناك مسلمون صالحون ؟"
أخبرته أن بلدى تقع فى أقصى الشمال .. حيث النهار لايستمر إلا لساعتين فقط .
هز الشيخ رأسه وهولا يصدق ما يسمع .
قلت له :" ربما أكون المسلم الوحيد فى بلدى ."
قال :" وهل إضطهدوك هناك بسبب ذلك ؟"
قلت له :" لا .. فى بلدى كل شخص حر فى الديانة التى يعتنقها .. ليس هناك اضطهاد
بسبب الديانة ."
قال :" ولماذا إذا اعتنقت الإسلام ؟"
قلت له :" شعرت أن السعادة تكمن فى اتباع تعاليم النبى محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليم النبى عيسى عليه السلام ."
قال الشيخ :" الحمد لله الذى نشر نور الإسلام فى أقصى الشمال .. أرجو منك الآن أن تنزل من السيارة فأنت ضيفى الآن ."
قبلت دعوته .. دخلنا إلى أكبر خيمة حيث كانت تتوسطها سجادة كبيرة .. والكثير من جلود الأغنام .
جلسنا .. كان الجميع مسرورين لدخولنا إلى معسكرهم .. التف الأطفال حول السيارة وهم يتطلعون باستغراب شديد . أمرهم الشيخ بالابتعاد , فلم يبق واحد منهم .. كانت طاعتهم لشيخهم طاعة تامة .. أخذوا ينظرون إلينا من خلال فتحات الخيمة .
جلسنا بجوار الشيخ .. تعرفنا على ابنه ,وكان شابا عمره حوالى سبعة عشر عاما .
جلسنا فى دائرة .. لم نتجاذب أطراف الحديث لفترة .. وعندما وجدت أن هذا الصمت يثير الحرج أخرجت علبة سجائرى وعرضت على الموجودين التدخين , فرفضوا جميعا .. لم يكونوا من المدخنين .. فنظرت إلى الشيخ وقد انتابنى الخوف .. وقلت له :" أفهم من ذلك أن التدخين ممنوع ؟ "
رد قائلا :" لا . . ولكننا نعرف أنه من الأفضل عدم التدخين .. لماذا ندمر الصحة التى
وهبها الله لنا ؟"
اعترضت قائلا :" ولكن لا يجب على المرء أن يحرم على نفسه كل متع الحياة ."
رد الشيخ بهدوء وثقة :" إننى لا أعتبر التدخين من متع الحياة .. بل إن التدخين يحرمنى من متع الحياة .. ولكن ماذا كنت تعنى أن النهار فى بلدكم يستمر لمدة ساعتين فقط ؟ "
كان من الواضح أنه لم ينس ما قلته .
ابتسم أحد البدو قائلا :" من السهل جدا صيام رمضان فى بلد كبلدك .. فالقرآن يأمرنا بالصيام من الشروق حتى الغروب ."
قلت لهم أن هناك بلد مجاورة لبلدى لا تغرب فيها الشمس لمدة شهر كامل .. وإذا اتجهنا شمالا
أكثر يستمر الليل لمدة ستة أشهر متصلة والنهار ستة أشهر أخرى متصلة .

بدا المستمعون يشعرون بالملل وعدم الارتياح .. كان من الواضح أن آداب الضيافة منعتهم من أن يتهموني بالكذب .
بادرتهم سائلا :" وكيف تصومون رمضان فى بلد مظلم فى الشتاء ولاتشرق فيه الشمس ؟"
أثار سؤالى مناقشة بين الحاضرين .. فمنهم من قال أنه لا يجب على المسلم أن يصوم فى مثل هذه الأماكن .. بالإضافة إلى أن البرد القارس يكون ضارا للصحة دون طعام .
استطردت قائلا :" كما تعرفون فإن السنة الشمسية لا تتفق مع السنة القمرية .. ماذا إذا وقع رمضان فى السنة التى تظل فيها الشمس مشرقة لمدة ستة أشهر ؟"
رد أحد البدو من الشباب قائلا :" إن الإنسان فى هذه الحالة يموت من الجوع ."
تدخل الشيخ فى الحديث قائلا :" أعتقد أن ما يقوله الضيف صحيح تماما .. والدليل على ذلك أننا نلاحظ هنا أن النهار فى الصيف أطول منه فى الشتاء .. إن ذلك يدلنا على عظمة القرآن الكريم الذى ينص على أنه لا يجب على المسلم الصوم إذا كان ذلك يوقع أى ضرر به أو بجسمه .. إن الحكمة من صوم رمضان هو أن يكون المسلم دائما فى صحة وعافية . إذا ما توجهنا شمالا .. فإن النهار يصبح قصيرا .. لذا فإنك تصوم لفترة أقل من الذين يصومون فى المناطق الحارة .. أما إذا كان النهار أطول من الليل فإن ساعات الصوم تزيد .. إذا الأفضل أن تختار يوما يستمر الليل فيه 12 ساعة و النهار 12 ساعة كما فى مكة ."
أصبحت المناقشة عامة بين الحاضرين ولكن معظمهم وافق على ما قاله الشيخ
حضر ابن الشيخ وكان يدعى عبد الله وهويحمل الشاى فى أكواب صغيرة .. كان الشاى مركزا للغاية .. وعندما انتهينا من احتساء الشاى , أخبرنا الشيخ أنه أمر بإعداد خيمة لنا .
ذهبنا إلى خيمتنا بعد أن أدينا الصلاة فى خيمة الشيخ . كان بها سجادة من القش وفى الركن كانت هناك وسادتين مصنوعتين من جلد الأغنام .. أحضرنا العباءات من السيارة وغرقنا فى سبات عميق .
استيقظنا فى صباح اليوم التالى على أصوات وضوضاء غريبة .. وعندما استطلعنا الأمر وجدنا هناك أمام خيمة الشيخ حملا مقيدا من الأرجل وقد ربطوا على فمه حبلا حتى لايعقر
أحدا .. كانوا يعالجونه من الفطريات .. أخذوا يحكون جلده بقطعة من الحديد حتى ظهرت الدماء من الجلد .. وضعوا الدواء على جسمه , كان الحمل يصدر صوتا عاليا ويحاول أن يعقر و يركل الرجال من حوله . دخل أحد السود - يبدو أنه كان عبدا – وهو يحمل القهوة والخبز .
ذهبنا إلى خيمة الشيخ بعد أن اغتسلنا .. كان الشيخ مشغولا فى إدارة شئون المعسكر , وعندما رآنا وقف لاستقبالنا ثم دعانا للجلوس .. طلبت منه الإذن بالرحيل لمواصلة رحلتنا ولكنه رفض وأصر على دعوتنا لتناول طعام الغداء . أدركت أن مناقشته لن تثنيه عن عزمه .. لذا كان علينا الانتظار حتى بعد الظهر حين حضر إلينا هذا العبد الأسود ودعانا لتناول طعام الغداء .

ذهبنا إلى خيمة الشيخ .. وإمعانا فى إكرامنا لم يحضر المأدبة سوى الشيخ , حتى ابنه لم يشاركنا الوليمة . تناولنا طعامنا , وشربنا حليب الإبل .. وبعد أن فرغنا , طلب منى الشيخ أن أصلى بهم إماما .. شعرت بالقلق لأن لغتى العربية لم تكن صحيحة تماما .. ومع ذلك كان عليّ
قبول الإمامة فى الصلاة .. كان البدو يعتبرون ذلك تكريما للضيف .. وكانت تلك أول مرة أصلى فيها إماما .
وفى حوالى الساعة الرابعة شكرنا مضيفينا وبدأنا رحلتنا نحو الفجيج .
كانت الرحلة صعبة والطريق وعر .. كانت الصخور تحدث ثقوبا فى الإطارات .. وكنا نضطر للتوقف لإصلاحها . أرخي الليل سدوله .. وكنا على وشك قضاء الليل فى السيارة عندما شاهدنا لوحة فى الطريق .. وبعد حوالى نصف الساعة وصلنا إلى المدينة .. كان الجميع نائمون .
كانت الشوارع مهجورة .. المنازل مبنية بالطين الأحمر .. سرنا خلالها لمدة دقائق لم نر أثناءها أيا من البشر . قابلنا رجلا وسألناه عن مكان للمبيت , فأخبرنا بعدم وجود فنادق فى الفجيج .. وكان أقرب فندق يقع فى بنى عنيف فى الجزائر على بعد ثلاثة أميال .
عبرنا الحدود بين مراكش والجزائر .. كان الظلام حالكا .
توقفنا لمدة أسبوعين فى بنى عنيف , أصلحنا أثناءها السيارة استعدادا للرحلة الطويلة فى الصحراء والتى تمتد إلى توجورت , ونظرا لإنفاقنا نقودا كثيرة فى إصلاح السيارة إضطررنا لتأجيل شراء الخيمة .
أخذنا أهبتنا ذات صباح لمواصلة رحلتنا .. أعددنا الضروريات فقط .. اشترينا بعض التمور والدجاج مثلما يفعل البدو .. أخذنا علبة بها أربع ونصف جالونات من الماء للشرب .. كانت مؤخرة السيارة مملوءة عن آخرها بالإطارات الاحتياطى والوقود وزيت لمحرك السيارة .. ثم وضعنا برميلا للوقود به حوالى 25 جالونا . هكذا كنا أعددنا عدتنا للسير ما يقرب من الستمائة ميل فى الصحراء دون حاجة للتزود بالوقود .
كان الطريق واضحا فى البداية .. ولكنه اختفى بعد أميال قليلة .. استخدمنا البوصلة حتى نحدد طريقنا نحو الشمال فى اتجاه الواحة التى تبعد 120 ميلا .
اختلفت معالم الطريق وازدادت صعوبة .. فقدت المعالم ملامحها الصحراوية .. تناثرت الصخور هنا وهناك .. بعضها يغطيها الأشجار بأشواكها الطويلة . وجدنا فى السهل كمية كبيرة من الماء .. كان علينا اجتياز الكثير من الجداول التى امتلأت بالمياه من الثلوج الذائبة .. كان الماء يرتفع لعدة أقدام فقط .. كان من السهل اجتيازها بالسيارة , وفى حوالى الساعة الثالثة وصلنا إلى منطقة رمال ناعمة فهى أخطر ما يقابلنا فى الطريق .. كانت كتل الرمال تظهر حولنا هنا وهناك .. وأمامنا موجات من الرمال تذروها الرياح تهب علينا .
سرنا بالسيارة ببطء وسط الرمال الناعمة .. كانت الإطارات تختفى فيها .. توقفنا عدة مرات واضطر عبد السلام للنزول وإخراج السيارة ودفعها خارج الرمال .. وفى

إحدى المرات لم نستطع السير بالسيارة إلا بعد أن وضعنا أسفل العجلات بعض فروع الأشجار والحشائش الجافة حتى يمكن إخراج السيارة من الرمال .
فى حوالى الساعة الرابعة بدأت الرياح تهب .. لم نشعر بها فى البداية ولكن سرعان ما بدأت حبيبات الرمل الدقيقة تملأ السماء مثلما تفعل الثلوج .. وفجأة تلونت السماء باللون الأحمر من جهة الغرب .. حيث كانت تهب الرياح .. كانت الشمس بدأت تميل نحو الغروب .. تجمعت الرمال لتسد قرص الشمس .. كانت تبدو كالجبل الضخم يخفى وراءه ضوء الشمس الأحمر .
اختفى اللون الأحمر وخيم الظلام .. ارتفعت الرمال نحو السماء كالجدار .. وفى خلال ثوانى بدأت العاصفة تهب .. حفيف الرياح المحملة بحبيبات الرمال يصم الآذان .. كان علينا مواصلة المسير .. اختبأنا فى السيارة تحت بعض السجاجيد .. ومع ذلك كانت الرمال تخترق أى شئ .. ولكننا نجحنا فى حماية آذاننا وأفواهنا منها .
وكما بدأت العاصفة الرملية فجأة .. توقفت فجأة .. إبتعد عنا جبل الرمال .. كنا نراه على بعد وقد كان يعكس ضوء الشمس .. كان منظر الغروب خلابا . كسا الأفق باللون البنفسجى .. تلون كل شئ بلون الشمس الأحمر وهى تغرب .. وفى الحال اختفت الشمس وأصبح الجو باردا .. واختفى كل شئ فى الضباب الأبيض وبالرغم من إضاءة الكشافات لم نستطع أن نتبين طريقنا فآثرنا التوقف لقضاء الليل .
استيقظنا من النوم وقد تجمدنا من البرودة .. ظهرت الشمس من بين سحب الضباب ككرة حمراء كبيرة .. فبدأنا المسير نحو الشمال .. تدثرنا بالسجاجيد والمعاطف وقد تجمدت أطرافنا وتلونت باللون الأزرق .
وفى اليوم التالى وفى حوالى الساعة العاشرة شاهدنا سحابة من الدخان تظهر فى الأفق .. وعندما اقتربنا شاهدنا مجموعة من الأشخاص يجلسون حول النار .. كانوا يجلسون بجانب أحد الصخور العالية .. بدا وكأنهم من سكان الكهوف .
أوقفت السيارة وتوجهت نحو سكان الكهوف الذين لم يلحظوا اقترابنا منهم .. وعندما شاهدنا قائدهم أشار لنا بالجلوس .. كان متقدما فى العمر ولحيته يعلوها الشيب .
نظرت إلى هؤلاء الغرباء .. كان من الواضح أنهم ليسوا من العرب .. ولم يتحدثوا باللغة العربية .. عندما شاهدتهم وسمعتهم تذكرت البربر الذين كانوا يعيشون فى الجزء الجنوبى من جبال الأطلس .. كانوا أقوياء البنية .. بشرتهم سمراء ولكنهم لم يكونوا من السود .. فلم تكن شفاههم غليظة .. كانت ملامحهم تختلف عن ملامح السود .
جلس قائدهم وقد انحنى ظهره أمام النار .. ملتزما الصمت .. لم يتحدث لفترة طويلة .. كان يكتفى بإلقاء بعض فروع الأشجار فى النار بين فترة وأخرى .. لم يبد على هؤلاء الناس أنهم تأثروا أو اندهشوا لمجيئنا .. لم تكن النساء جميلات المظهر .. ملابسهن رثة وقديمة .. جلسن وهن يخفين وجوههن .
أمسك العجوز بغلاية الشاى وقد أكلها الصدأ .. كان الماء يتساقط من ثقب فيها .. وضعها العجوز على النار ثم نظر إلينا وبدأ الحديث باللغة العربية .
قال :" السلام عليكم وأدعو الله أن يحميكم .. من أين أتيتم أيها الغرباء وإلى أين أنتم ذاهبون ؟"

قلت له :" لقد اتينا من الفجيج ومتوجهين إلى توجورت ."
هز العجوز رأسه .. كان يتحدث إلينا وهو ينظر إلى غلاية الشاى حتى لاتنقلب فى النار .
رد قائلا :" أنا لا أعرف لاهذه ولا تلك ."
قلت له :" نعم .. إن توجورت تبعد عن هنا حوالى 600 ميل . "
تطلع إليّ العجوز قائلا :" أنا لم أبتعد عن هنا أكثر من مسيرة يوم .. إننى أعيش هنا طوال حياتى .. أنا لاأعرف الكثير عن العالم حولنا ."
خيم الصمت لفترة .. بدا الماء يغلى داخل الغلاية .. تحدث العجوز مع إحدى النسوة بلغة غير مفهومة .. خرجت المرأة وعادت بعد فترة قصيرة وهى تحمل كوبا مثل الذى يباع فى أسواق الجزائر بالآلاف كل يوم .. نظر العجوز إلى الكوب بفخر .
كانت الملابس التى يرتديها العجوز والآخرون فى هذا المجتمع مصنوعة محليا .. صنعتها نساؤهم .. مثل كل الأوانى الموجودة .. ولكن لم يستطع أحد فى هذا المجتمع الصغير أن يصنع مثل هذا الكوب الألمانى الصنع . أخذ العجوز الكوب وبدأ فى صنع الشاى .
قال :" هل تشربون الشاى ؟"
قبلنا دعوته لشرب الشاى .. أعطانا الكوب وهى مملوءة بالشاى المحلى المركز .
كان هناك بعض الدجاج يجرى هنا وهناك .. فهمست فى أذن عبد السلام قائلا :" إن لدينا من المؤن القليل . " وقررت أن أستأذن العجوز ليبيع لنا بعض الدجاجات .
فرد بكرم :" تستطيع أن تأخذ واحدة .. ولكن لن أقبل أى نقود بأية حال من الأحوال ."
وبعد مناقشات طويلة أقنعته أن يأتى إلى السيارة ويختار ما يريد من الأشياء التى أحضرتها معى , وبالفعل اختار صديرى مطرز كنت قد اشتريته من مراكش .
لم تسنح لنا الفرصة فى أن نرى مكان معيشة هؤلاء الناس الغرباء .. فقد كانوا يعيشون بين الصخور والكهوف التى نحتوها منذ آلاف السنين .. كانت الكهوف وسيلة عملية لمعيشتهم .. كانت رطبة فى الصيف ودافئة فى الشتاء .
كان هناك بئر للماء بالقرب من الكهوف .. كان عمقه حوالى 30 قدما .
أخبرنى العجوز أن هناك الكثير من الماء .. فقد كانت الأمطار تهطل على الجبال طوال العام .. كانت هذه البئر هى الحياة بالنسبة لهم .. وقد استخدموا نظاما للرى .. يمر الماء من البئر فى قنوات ضيقة فى الأرض الخصبة .
وضعوا عجلة ضخمة فوق البئر .. وربطوا بها بعض الأوانى بالحبال – أوانى يشبه الواحد منها الدلو – وعندما تدور العجلة ترفع الماء من البئر وتصبه فى قناة صغيرة .. كان هناك جملا يلف بحيث تدور العجلة .. وقد وضعوا على عينيه غمامة حتى لايصاب بالدوار .. فقد كان يلف طوال النهار .
واصلنا رحلتنا أنا وعبد السلام .. كان الطريق وعرا وصعبا .. توقفنا عند الظهر لطهى الدجاجة .. ولكنها لم تكن لذيذة الطعم .
وفى حوالى الساعة الخامسة وصلنا إلى مفترق الطرق .. كانت هناك آثار للجمال فى كل مكان .. كان من الصعب علينا تحديد الطريق الذى نسلكه .. كان هناك طريق

يتجه نحو اليسار ولم يكن مطروقا .. ولكن امتد أمامنا مباشرة طريق أفضل .. قررنا أن نسير فيه .. على الرغم من أن أيا من الطريقين لم يكن مرسوما على الخريطة التى معنا .
غربت الشمس وبدأ الطريق يزداد صعوبة .. انتشرت الحفر بشكل كبير .. كنا نتجنبها بصعوبة بالغة .. كنا نوقف السيارة ونقوم بعملية مناورة كبيرة حتى نتجنب هذه الحفر .. كنا نسير ببطء شديد . بدأ البرد يدب فى أوصالنا على الرغم من البطاطين التى تدثرنا بها .. كان من الواضح
أننا نسير على ارتفاعات عالية .. لم نكن نتبين الطريق بسهولة .. بدأت الثلوج تتساقط فى
الساعة الثامنة .. بدأت الرياح الشديدة الباردة تهب .. انخفض مستوى الرؤية إلى ياردات قليلة .. أغلقنا غطاء السيارة من أعلى ولكنه لم يمنع الجليد من التساقط علينا .. فقد أصابه التلف من جراء العاصفة الرملية التىهبت علينا .
ازداد تساقط الثلوج .. وفى حوالى العاشرة ازدادت كثافة الثلوج على الطريق الذى ازداد ضيقا .. كان الطريق يمر بجانب منحدر صخرى شاهق .. وفجأة انحرف الطريق بشدة .. وقعت أضواء السيارة على جرف هاو .. توقفنا على الفور بالسيارة .. ونزلنا لنتبين المنطقة التى وصلنا إليها .. كان هناك جدار ضخم من الصخور .
واصلنا السير ببطء شديد واضطررنا للتوقف مرة أخرى على بعد مائة ياردة .. كان هناك جسر فوق الهاوية .. ولكنه لم يكن جسرا عاديا .. كان معلقا بالجبال وأرضيته ألواح غير ثابتة
شعرنا بالقلق الشديد .. ظلت الثلوج تتساقط بغزارة .. سمعنا أصوات ابن آوى وهى تعوى فى الليل .. وأصوات الطيور الجارحة تصم آذاننا . لم يجرؤ أى منا على الجلوس فى السيارة ونحن نعبر الجسر .. كنا نقف بحذر على جانبى السيارة .. وبمعجزة إلهية نجحنا فى عبور الجسر .
وجدنا الطريق من الناحية الأخرى مرتفعا ومتعرجا .
ظلت الثلوج تتساقط حولنا .. وفجأة .. شاهدنا أضواء .. كان هناك صفا من المنازل .. لقد وصلنا إلى شارع فى مدينة .
استعملت آلة التنبيه عدة مرات .. ودبت الحياة فى هذا الشارع المهجور .. خرج السكان وهم يرتدون عباءاتهم المصنوعة من الصوف .. تجمعوا حول السيارة .. دار حديث بينهم
باللغة العربية عما نكون ومن أين أتينا .. ولكن لم يوجه لنا أى واحد منهم كلمة واحدة .. كانت لغتهم العربية تغلب عليها لهجة البربر.
كان من الواضح أنها كانت أول مرة فى حياتهم يشاهدون فيها سيارة .. كانوا ينظرون إليها وقد علت وجوههم الدهشة .. اقترب أحدهم من السيارة وأخذ يتلمسها .. قلت له :" هل نستطيع أن نقضى الليلة هنا ؟" وبمجرد أن انتهيت من سؤالى صاح الجميع :" أنت فرنسى ."
ويبدو أنهم ظنوا ذلك من لهجتى . بدأوا يميلوا إلى العدوانية .. وانطلقت صيحات تشكك فى سبب قدومى , وتطالب بطردى من المدينة .

لحسن الحظ كان شيخ المدينة رجلا على ثقافة .. فقد أدى فريضة الحج فى مكة .. وعاش لفترة فى مصر .. وقد أمضى جزءا من شبابه فى فرنسا . شرحت له من أين أتينا, وقلت له أننا فى طريقنا إلى مصر , وأننا من المسلمين . وعندما سمع هذا و شاهد الأوراق المكتوبة بالعربية
أظهر لنا الكثير من الود والحب ودعانا إلى منزله .
كان منزل الشيخ هو أكبر المنازل فى المدينة .. كان مبنيا من الحجارة الطبيعية .. كان منزلا فسيحا . أشعلوا النار داخل الحجرة التى كنا سنقضى فيها الليل .. ولم تمض لحظات حتى امتلأت الحجرة عن آخرها بسكان المدينة .
كان الشيخ متقدما فى العمر .. يعلو لحيته الشيب .. تبدو على ملامحه الطيبة .. جلس على السجادة المصنوعة من القش .. وجلس ابنه- كان يبلغ الثالثة عشرة من العمر- يعد الشاى .. تجاذبنا أطراف الحديث .. وسرعان ما اشترك الجميع فى المحادثة .
سألنى الشيخ :" هل زرت الجزائر ؟" أومأت برأسى .
قال لى آخر :" والله إن الشيخ عبد العزيز رجل يحب السفر .. إنه الوحيد فى هذه المدينة الذى سافر إلى فرنسا .. يستثنى من ذلك أحد التجار من غرداية ."
قلت له على الفور :" إننى متوجه إلى غرداية.. ولكن متى سيعود هذا التاجر إلى هنا ؟"
قال لى محدثى :" إنه هنا " ودفع برجل قصير ممتلئ الجسم قائلا :" ها هو ." ثم وجه الكلام إلى التاجر قائلا :" حسين !! إن هذا الغريب يسألك عن موعد سفرك إلى غرداية ."
قال حسين :" إننى أفكر فى السفر غدا" تطلع إليه كل الحاضرين وهو يتحدث فى خجل واضح.
قلت له :"إن هذا يناسبنى تماما .. وأحب أن أوصلك معى إلى هناك .. سوف أمر على غرداية وأنا فى طريقى إلى توجورت." شكرنى التاجر على ذلك واتفقنا على السفر مبكرا فى الصباح.
احتسينا الشاى .. وقدمت للحاضرين السجائر . كان الجميع تقريبا يحبون التدخين .
قلت لهم :" كثيرا من البدو الذين قابلتهم فى الصحراء لا يدخنون ."
أومأ الشيخ موافقا على ما قلت وقال :" معظم البدو لا يدخنون .. إنهم لايفعلون أى شئ يضر بصحتهم .. ولكننا هنا اعتدنا على التدخين .. كلما إتجهت شرقا جهة المرج .. فلن تجد من يدخن من سكان المدن .. إنهم سنوسيون ."
سألته :" ومن هم السنوسيون ؟"
قال الشيخ :" إنهم طائفة أسسها سيدى أحمد السنوسى , وهم يتسمون بالورع والتقوى والتشدد وفى نفس الوقت , هدفهم فى الحياة أن يصبح الواحد منهم أنبل ما يجب أن يكون عليه البشر ..
ولكى يتحقق ذلك فإنهم يعتبرون الزهد هو الموصل إلى ذلك ."
سألت الشيخ :" وهل هناك الكثير منهم ؟"
قال :" نعم .. هناك الكثير منهم فى طرابلس وبرقة .. سوف تجد الكثيرين منهم فى طريقك إلى مصر .. إنهم يقاتلون الإيطاليين بلا هوادة ."

سألته :" وما هو رأيك فى الفرنسيين ؟"
رد الشيخ :" حتى إذا لم يسمح لنا الفرنسيون بحكم أنفسنا فإنهم مع ذلك أفضل من الإيطاليين .. إنهم يحاولون فهمنا ويعاملوننا معاملة كريمة كبشر .. ولكنهم غرباء يحكموننا .. إن هذا هو الحال فى شمال أفريقيا كلها .. إنهم يظنون أننا لانستطيع أن نحكم أنفسنا .. وفى الحقيقة أننا لم نعانى من الفقر والذل مثلما نعانى الآن .. وبرغم ذلك فإن الأمر عندنا هنا لابأس به .. فلم يتغلغل النفوذ الأجنبى إلينا بعد ."
أشعل الشيخ سيجارته ونظر إليّ متسائلا :" ولكن لماذا اعتنقت الإسلام ؟"
قلت للشيخ مبتسما :" كانت هناك أسباب عديدة لاعتناقى الإسلام .. أولها أننى أحسست كيف أن الإسلام يعلمك أن تحيا طبقا لتعاليمه , أما الأديان الأخرى فإنها تطلب منك إيمانا بعقائد ومبادئ متحجرة .. أما ثانى هذه الأسباب فإننى أعتقد اعتقادا راسخا أن الإسلام هو الديانة الوحيدة التى تصلح لعصرنا الحديث .. إن الإسلام دين واضح يحث على التسامح مع الجميع إذا كانوا يؤمنون بالله .. الإسلام أيضا يشدك إليه حتى تشعر أنه يدفعك إلى الأمام دائما ."
ابتسم الشيخ عبد العزيز قائلا :" لقد قلت لك من قبل .. لقد شاهدت أماكن كثيرة فى العالم ..
منها بلادك التى أتيت منها .. انبهرت للوهلة الأولى .. فقد تخيلت عظمة ما صنعتم من إنجازات مادية .. واكتشفت أنكم فى أوروبا تولون المادة أقصى اهتمامكم .. ولكننى أدرك الآن أن الحقائق الخالدة ثابتة لاتهتز ولاتتبدل . . إحدى هذه الحقائق هى الإسلام .. الطريق إلى الله ."
قلت للشيخ :" وهل معنى ذلك أنك لاتعترف بالمدنيّة الحديثة ؟"
قال الشيخ :" بالطبع لا .. ولكننى رأيت بعينى كيف أن كل فرد فى أوروبا يظن أن الملبس والسيارة والخمر والحضارة هى كل ما يهم .. ولكن ما فائدة كل ذلك ؟ هل أدخلت هذه الأشياء السعادة على قلب أى إنسان ؟ .. هل كانت سببا فى إسعاد أحد ؟"
قلت له دون تردد :" بل العكس تماما ."
رد الشيخ قائلا :" ولهذا السبب فإننا نخشى أن تصل هذه الأشياء إلينا .. نحن فى غنى عنها .. لانرغبها .. كل ما نصبو إليه هو أن نحافظ على ديننا وأن نشعر دائما بالرضا .. أعلم جيدا أنه من الصعب أن نوفر احتياجاتنا الضرورية بمعداتنا البسيطة .. ولكننا لانريد آلاتكم .. إن احتياجاتنا قليلة .. أبناؤنا يعيشون فى سعادة وهناء وهم يؤمنون بالله القوى المتين ."
تنهد الشيخ وأضاف قائلا :" ربما أكون أنا الوحيد الذى يفهم هذه الأشياء فى المدينة .. أما الآخرون فمنبهرون ."
قارب الليل على الانتصاف .. حاولت أن أعطى الولد الذى قدم لنا الشاى - كان يدعى علي- نقودا ولكنه رفض ذلك بشدة , قدمت له سجائر فرفض قائلا :" إننى أتعلم القرآن الكريم .. وغير مسموح لى بالتدخين . "
فجأة لمح علي المصحف الشريف وقد وضعته على الأرض مع مجموعة من الكتب .. فالتقطه وقبّله وفتحه وبدأ يرتل بعض السور فى صوت جميل .. عندما انتهى من

ترتيله كانت الديوك بدأت تصيح لقرب الصبح .. غلبنى النعاس فى وسط هذا الجو المسالم الآمن .
وفى الصباح أحضر علي الشاى وبعض الكعك كهدية من الشيخ . كنت متعبا للغاية وظللت نائما حتى الساعة الثامنة إلى أن حضر عبد السلام ومعه التاجر .
سررت جدا بسفر التاجر معنا .. كان علينا العودة لعدة أميال حتى نصل إلى الطريق الصحيح .
بدأت الرحلة فى الساعة العاشرة .. كان الجميع فى وداعنا .. أعطانا الشيخ حملا هدية .. وأعطانا الكثير من الناس سجائر وكعك .. لم يسمحوا لنا بأن ندفع نقودا نظير ذلك .. كان كل
ما أعطوه لنا هدايا .. كانوا يعتبرون محاولتنا إعطاءهم نقودا إهانة لهم .. كان كرمهم بلا حدود.
وعند الظهر بدأ الطريق فى الانحدار قليلا والاتساع .. وكانت الصحراء ممتدة أمامنا .. توقفنا عدة مرات بسبب الثلوج الذائبة على الطريق .. واجهنا صعوبة بالغة فى تحريك السيارة عدة مرات .. وصلنا إلى الصحراء فى الساعة الثانية .. وفى الساعة السابعة وصلنا إلى جارادايا .. وعند الشروق ودعنا التاجر وواصلنا رحلتنا .
وعلى بعد حوالى 25 ميلا من جارادايا وفى منطقة صحراوية وفجأة .. أصاب محرك السيارة بعض العطل .. ظننت أنه بسبب نقص زيت المحرك .. ولكننى اكتشفت أن السبب هو مبرد السيارة (الرادياتير) فلم يكن فيه قطرة ماء . يبدو وكأن البرد الشديد قد أحدث فيه ثقبا أدى إلى تسرب الماء دون أن نشعر .

أعدنا ملأه بالماء وواصلنا المسير لمسافة 12 ميلا حين وصلنا إلى واحة صغيرة لم يكن بها أكثر من أربعة منازل .. لم يدخر السكان وسعا فى مساعدتنا على إصلاح مبرد السيارة .. نجحنا إلى حد ما فى إيقاف تسرب الماء ولكننا لم نمنعه تماما .

الفصل الثانى
سكان الكهوف والمشعوذ

واصلنا الرحلة فى صباح اليوم التالى , بعد أن زودنا مبرد السيارة بالماء وأخذنا معنا أربعة جالونات إضافية لمواجهة أى طارئ , فقد كان الماء مازال يتسرب من مبرد السيارة .. وكان علينا الانتظار حتى نصل إلى توجورت لإصلاحه .

وفى حوالى الساعة العاشرة .. هبت رياح شديدة مكونة سحابة كبيرة من الغبار غطت كل شئ و حجبت الرؤية حتي كان من الصعب أن نرى أيدينا .. اضطررنا للتوقف واختبأنا تحت الأغطية .. وبقينا على هذه الحال عدة ساعات بعد أن هدأت العاصفة واصلنا المسير .

لم نكد نتحرك حتى لمح عبد السلام شيئا أمامنا .. اقتربنا منه لنتبين أنه رجل يشق طريقه بمفرده بين الرمال .. كان رجلا مسنا لحيته طويلة بيضاء كالثلج .. لم يبالى حتى بالالتفات إلينا عندما كنا نسير بجواره .. وعندما تحدثنا إليه توقف وبادرنا بالتحية .

كان رجلا غريب الأطوار .. علت التجاعيد وجهه .. ملابسه رثة .. بشرته لونها بنى داكن .. كان يبدو كالمتسول .. يهيم على وجهه فى الصحراء .. يحمل كيسا خلف ظهره ولكنه لم يطلب منا أى شئ .

بادرنا قائلا :" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " كان صوته مرتجفا .

بادلته التحية ثم سألته إذا كان مسافرا إلى توجورت , كنا على استعداد لاصطحابه معنا فى السيارة , ولكنه لم يبد استعدادا لذلك فسألته ثانية :" ولماذا لاتركب السيارة معنا ؟"

قال العجوز :" وهل يهم أن أصل إلى هناك مبكرا أو متأخرا ؟"

قلت له :" ولكنك دون شك لديك ماتفعله فى توجورت , وقد تحب أن تصل إلى هناك مبكرا ."

قال :" إننى هنا بمفردى .. لايوجد بشر .. إننى أحيا مع الله .. هنا أستطيع أن أسمع دقات قلبى .. أما هذه الآلة فتبدو لى غريبة للغاية . "

وضع يده على الكيس الذى خلف ظهره , وقال :" إننى أحمل هنا ثمرا يكفى لإطعامى .. ولدى بعض زجاجات الماء أشرب منها .. هذا كل ما أحتاجه .. لن يداهمنى المرض حتى ينحنى ظهرى مع السن . "

قلت له :" إن أى إنسان معرض للمرض ."

قال لى :" اسمع أيها الغريب .. ربما لاتعرف قصة الطبيب الإيرانى الذى كان يعمل فى الجزيرة العربية .. سوف أحكيها لك ."

وبدأ العجوز يحكى قصة ذلك الطبيب فقال :" بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية .. بدأت الثقافة الإسلامية تنتشر فى العالم كله .. وكان ممن اعتنقوا الديانة الإسلامية هذا الطبيب الذى أحكى لكما قصته , قرر الطبيب أن يستقر فى مكة ويعالج المرضى هناك .. كان طبيبا مشهورا ولم يفهم أحد لماذا يريد هذا الطبيب أن يترك بلده ويستقر فى الجزيرة العربية ."

واستطرد العجوز قائلا :" انتقل الطبيب وعمل فى مكة والمدينة ولكن لم يذهب إليه أحد ولم يستشيره أحد .. لم يتعامل أحد معه كطبيب , دارت فى رأسه الظنون والأفكار .. وذات يوم ذهب إلى رئيس المدينة وسأله :" السلام عليك أيها القائد , عندما كنت فى بلدى كنت أعالج العظماء . . ولكننى أتعجب لماذا لايأتى إليّ أحد هنا .. فهل فقدوا ثقتهم فى قدرتى كطبيب ؟"

ابتسم القائد قائلا :" اسمع أيها الحكيم .. أقرئك السلام أولا , ثم أود أن أخبرك أننا نثق فى قدرتك كطبيب ولكننا فى هذا البلد السعيد لانحتاج إلى أطباء ."
رد الطبيب بإستغراب :" وكيف لايحتاج أحد إلى طبيب هنا ؟ إن كل إنسان معرض للمرض ."
استمر القائد قائلا :" إننا هنا فى الجزيرة العربية نأكل ما تحتاجه أجسامنا فقط .. إننا هنا نعتبر الجسد عبدا للروح .. فكر فيما أقوله لك .. هذا هو العلاج ."
وبالفعل .. تخلى الطبيب عن مهنته واستقر فى الجزيرة العربية ."
انتهى العجوز من قصته ثم ابتسم قائلا :" هذا يفسر لك حالتى الصحية .. إننى أدعو الله أن يديم عليّ نعمة الصحة , إننى أعيش على التمر والماء فقط .. ولم أمرض فى حياتى ."
إعترضت عليه قائلا :" ولكننى لم أر فى حياتى مرضا بقدر ما أرى هنا فى الشرق ".
هز الفيلسوف العجوز رأسه وقال :" القليل هنا فى شمال إفريقيا يتبعون تعاليم الإسلام .. لكنهم لن يحتاجوا إلى أطباء إذا إتبعوا تعاليم الدين .. لقد أصابنى الكبر الآن .. وقد أسقط من الإعياء.. ولكن ما يحدث لى هنا سيحدث لى فى المدينة .. إننى أشعر أن الله أقرب لى هنا ." سألته :" وهل أنت سعيد هنا ؟"
انفرجت أساريره وقال :" إننى أشعر بالرضا دائما .. إننى أتعلم شيئا كل يوم .. إننى أحمد الله فى كافة أحوالى .. عندما أشعر بالجوع أحمد الله أن وهبنى الصبر على تحمل الجوع .. وعندما أكون غنيا ولدى فائض عن حاجتى أحمد الله أن وهبنى نعمة الكرم .. إننى أشعر أن الله معى فى كل أحوالى ."

عندئذ قفز عبد السلام من السيارة وأخذ يقبل يد العجوز, ونظر إليّ قائلا :" إن هذا الرجل ولى من أولياء الله الصالحين ."
سألت العجوز عن اسمه فقال :" سيدى محمد .. ولكن لا أحد يعرفنى بهذا الاسم تقريبا .. فعندما أصل إلى توجورت لن يتعرف عليّ أحد ."
سألته باستغراب :" ولكن ماهى وجهتك الآن ؟"
رد بثقة :" إننى متوجه إلى مكة ... إننى أتمنى أن أموت هناك ."
سألته :" وهل ستذهب إلى هناك سيرا على الأقدام ؟"
رد قائلا :" لا .. سأذهب إلى تونس فقط سيرا على الأقدام .. ومن هناك سأذهب إلى مكة فى سفن الحجاج ."

استطرد الفيلسوف العجوز قائلا :" من الأفضل أن تكون شحاذا من أن تكون ملكا ,
هل تعرف لماذا ؟ .. من السهل أن تجد مكانا لعشرة شحاذين على سرير واحد ولكن
من المستحيل أن يتواجد ملكين اثنين فى بلد واحد ."
قال ذلك وهو يواصل مسيره .. لم نشغل محرك السيارة بعد توقفه , وعندئذ قال عبد
السلام والحماس يغلب عليه :" إن هذا الرجل مبروك .. الآن وقد قابلناه فإن الحظ
سوف يحالفنا دائما .
استطعنا تشغيل المحرك .. وبدأنا رحلتنا وسط الرمال . وفى الساعة الرابعة بدا وكأن
عطلا كبيرا أصاب مبرد السيارة ثانية .. لقد ازداد الثقب فى مبرد السيارة اتساعا ..
وقد تسرب منه الماء تماما .. لم يعد لدينا ماء نستخدمه .. لم تكن هناك جدوى من
إصلاحه .. ولكن بعد أن

مالت الشمس للغروب ازدادت برودة الجو , واعتقدنا أنه يمكننا الإستغناء عن مبرد
السيارة والاستمرار فى السير لفترة كبيرة ثم نتوقف عندما ترتفع حرارة المحرك ..
كانت عملية بطيئة وصعبة .. كنا نسير بالسيارة لمدة خمس دقائق , ثم نتوقف لمدة
ساعة كاملة حتى يبرد المحرك .. وعندما يبرد نواصل السير وهكذا .. كنا نتحرك
بسرعة السلحفاة .. أدركنا أننا لن نصل إلى توجورت إلا بعد مرور أيام .
وفى اليوم التالى .. توقفنا طوال النهار تجنبا لأشعة الشمس الحارقة .. كنا نتقى
الحرارة تحت الأغطية , وكنا نقاوم العطش بقدر ما نستطيع . بدأ الموقف يزداد سوءا
.. كانت الصحراء تمتد على مرمى البصر .. رمال صفراء وحمراء .. تؤذى العيون
وتملأ الأنوف والآذان بمجرد أن تهب الرياح .
كان الأمل ضئيلا .. لم نتوقع أن نقابل قافلة فى هذه الأماكن .. فقد تمر الأسابيع دون
أن تقابل قافلة واحدة .. وحتى لو مر أسبوع واحد . . فلن يتبقى منا سوى هياكلنا .
توقفنا طوال النهار .. وبدأنا فى التحرك البطئ بعد غروب الشمس وعند منتصف
الليل .. لم نكن قطعنا سوى كيلومترات قليلة .
تدثرنا بالأغطية ورحنا فى سبات عميق .. بدأت الرياح تهب وبدأ صوت الرمال
وكأنه أرواح الصحراء وهى تهمس وتتمتم .. وفجأة انتفض عبد السلام من تحت
غطائه .. أصابه الرعب الشديد مثلما يصاب به سكان المدن عندما يترددوا على مثل
هذه الأماكن الصحراوية النائية
المقفرة .

أصاب عبد السلام الهلع وازداد وجهه شحوبا وأخذ يصيح :" لن أتقدم أكثر من ذلك ,
هناك أرواح شريرة تحوم حولنا وتطاردنا ."
سألته محاولا تهدئته :" وما الذى يجعلك تعتقد ذلك ؟"
رد عبد السلام :" ألا تسمع هذه الأرواح وهى تهمس ؟"
اختبأ عبد السلام تحت الأغطية وأخذ يرتل سور وأدعية من القرآن الكريم قائلا:"
بسم الله الرحمن الرحيم .. قل أعوذ برب الناس , ملك الناس , إله الناس من شر
الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ."

كل المسلمين يقرءون هذه السورة لحماية أنفسهم من الأرواح الشريرة .
ازدادت شدة الرياح .. وظننت أننى سمعت نباحا للكلاب , فسألت عبد السلام :" هل تسمع نباحا للكلاب ؟ " أنصت عبد السلام .. ولكن كانت الأصوات قد تلاشت ولم نسمع شيئا لمدة نصف
الساعة .. وعندما ترددت نفس الأصوات مرة ثانية ظننت أنها مجموعة من الكلاب تنبح .. نزلنا من السيارة وتوجهنا نحو مصدر الصوت .
بدأ الصوت يخف تدريجيا حتى تلاشى تماما . كان عبد السلام يرتعد خوفا .. نظر إليّ بعينين زائغيتين قائلا : " هذا أمر غير طبيعى .. إنها نفس الأرواح الشريرة التى تطاردنا ." قال ذلك وهو يردد نفس السورة .. سورة الناس .
خشينا أن نبتعد عن السيارة أكثر من ذلك فعدنا إليها وجلسنا لنأخذ قسطا من النوم .. ولم نكد
نغمض أعيننا حتى عادت أصوات الكلاب مرة أخرى .. قفزت من السيارة وجذبت عبد السلام

من ذراعه قائلا :"لابد وأن هناك أناس يعيشون حولنا , هنا سوف نواصل البحث حتى نجدهم."
مشينا لمسافة نصف ميل تجاه مصدر الصوت .. وهناك وجدنا آثارا لأقدام الجمال .. جثا
عبد السلام على ركبتيه ووجد روث الجمال .. ويبدو أنه كان حديثا .
قال عبد السلام :" لقد مر أناس من هنا بالأمس ."
تتبعنا آثار الأقدام .. وسرعان ما سمعنا أصوات الكلاب وهى تنبح دون توقف .. ظهرت الكلاب أمامنا وبدأت تهاجمنا .. كانت من النوع الذى يستخدمه البدو لحماية أنفسهم .. أخذنا نقذف الكلاب بالحجارة لندفعها بعيدا عن طريقنا .. ازداد نباح الكلاب .. وازدادت شراسة كلما اقتربنا منها .. وأخيرا شاهدنا أماكن يعيش فيها البشر .
كان هناك وعلى إرتفاع 15 قدما وجه من الطباشير .. وكانت هناك مجموعة من الفتحات تكفى الواحدة منها لمرور شخص فيها .. كانت الفتحات مثل أعشاش العصافير .. وعلى جانب
الجرف .. ارتفعت درجات السلم مؤدية إلى مدخل كبير .
بدأت أتساءل عن سكان هذه الأماكن .. هل هم أصدقاء أم أعداء ؟ هل سيقتلوننا ويستولون على كل متعلقاتنا أم هل سيعاملوننا معاملة حسنة ويعطوننا ما نحتاجه من طعام وشراب ؟؟
لقد كنا نعانى من الجوع والعطش .. لم نشرب ماء منذ 36 ساعة .. كانت ألسنتنا جافة .. لم نستطع تناول التمر منذ أن جف وأصبح من المستحيل ابتلاعه دون ماء .
ازدادت الكلاب ضراوة وشراسة بعد أن ازداد اقترابنا , أخذت تكشر عن أنيابها كالضباع وبدأت فى مهاجمتنا دون هوادة .
لم نفكر فى الصعود إلى المدخل الرئيسي .. وبالطبع لم نجرؤ على الذهاب إلى البئر للحصول على الماء .. فقد كان علينا الاستئذان أولا .. ولحسن الحظ شاهدنا رجلا

يرتدى عمامة وعباءة وهو يجثو على ركبتيه ويصوب بندقيته الطويلة نحونا .. وسألنا عن سبب مجيئنا . قلت له أننا فى طريقنا إلى توجورت .. وأن سيارتنا قد تعطلت .. ولكنه استمر يتحدث إلينا بلهجة تنم على التهديد قائلا :" لماذا لاتطلب النجدة من الأوروبيين أمثالك ؟"
شعرت أنه لم يحصل على أى عون أو مساعدة من الأوروبيين ولكننى قلت له بهدوء إننا ننتمى جميعا إلى أمة واحدة .. وأننى كمسلم أطلب حمايته لى .
عندما سمع ذلك أنزل بندقيته المصوبة نحونا ونظر إلى عبد السلام سائلا :" هل يقول الحقيقة ؟ هل هو مسلم حقا ؟ "
أكد له عبد السلام حقيقة ما قلته , وأضاف قائلا له أننى أحفظ بعض سور القرآن الكريم
وباللغة العربية , وهو إنجاز ليس شائعا بين الجزائريين . صاح الرجل الواقف أعلى الدرج :" هذا شئ عظيم , غدا ترتل القرآن علينا .. تفضل بالدخول باسم الله ."
وأشار إلينا بيده حتى نتبعه .. اعتلى الدرج وبدأ فى الصعود ودخل إلى حجرة صغيرة فى الصخر .. أشعل مصباح زيتى صغير فشاهدنا منظرا غريبا .. شاهدنا تابوتا مغطى بالسجاد يظهر من تحته جسم إنسان . بدأ عبد السلام فى ترتيل سورة يس .. ولكن لم يكن لدينا وقت لنتبين من كان فى التابوت .. دخلنا إلى حجرة أخرى حيث كانت هناك مدفأة مصنوعة من
الجير تعلوها مدخنة مصنوعة من الصخور وتتجه فتحتها إلى الخارج .. شاهدنا أربعة أطفال

نائمين على الأرض .. لم يشعروا بدخولنا ولا بالضوء الذى أشعلناه .
لم يشعر عبد السلام بالراحة .. وإننى أعترف أيضا أن الأمر كان غير مريح .. كان عبد السلام دائما يردد :" ليتنى بقيت فى تطوان ."
طلب منا الرجل الجلوس ودلف إلى حجرة داخلية وسرعان ما عاد وهو يحمل إناء به ماء عذب وكمية من التمور . أكلنا وشربنا حتى الشبع .. وشعرنا أننا استرجعنا شجاعتنا , ثم طلب منا الرجل النوم فى نفس المكان .
أيقظنى أحد الأشخاص وهو يهزنى قائلا :" سيدى .. علينا المسير الآن .. وعليك أن تأتى لتقرأ سورة يس .. الحمد لله أنك وصلت إلى هنا ." فقمت من نومى بصعوبة , فقد كان الوقت مبكرا .. كنا ساعة قبل الفجر . استيقظ الأطفال .. وأخذوا يحملقون فينا .. أخذوا ينظرون إلى عيوننا .. فلم يروا فى حياتهم أحدا من ذوى العيون الزرقاء .
استيقظ عبد السلام وخرجنا وهبطنا الدرج , وفى أسفل الدرج وجدنا مضيفنا مع رجل آخر .. كانا يحملان التابوت الذى شاهدناه بالأمس .
بادرنا بالتحية , ثم بدأنا المسير , كان الرجلان يحملان التابوت على أكتافهما فى المقدمة .. ثم عبد السلام .. ثم ثلاثة أطفال وأنا .. وفى أثناء السير كنا نردد جميعا :
" لا إله إلا الله محمد رسول الله "

وبعد حوالى نصف الساعة وصلنا إلى مسجد صغير .. مقام فوق قبر أحد الأولياء .
كانت القبور منتشرة فى المكان هنا وهناك فى الرمال الصفراء .. يعلوها بنادق قديمة ومحاريث ..
وكثير من الأدوات التى كان يستعملها الموتى فى حياتهم .
وضعوا التابوت على الأرض خارج المسجد .. ودخلنا إلى حجرة صغيرة تغطى أرضيتها الحشائش الجافة . كان من الواضح أن الرجل الذى تحدثت إليه بالأمس هو القائد . توجه تلقاء مكة ثم صلى ركعتين جهرا .. ثم أنهى صلاته بالتسليمتين قائلا :" السلام عليكم ورحمة الله "
توجه نحوى قائلا :" أيها الشيخ لقد أخبرنى رفيقك أنك تحفظ بعض السور من القرآن الكريم .. فاقرأ علينا سورة يس " لحسن الحظ أننى كنت أحفظ سورة يس .. خرجنا إلى الخارج وقد بدأ ضوء الصبح يتسلل بين فلول الليل .. بدأ ضوء القمر يخفت تدريجيا .. غطى الجميع وجوههم عندما بدأت أقرأ سورة يس " يس والقرآن الحكيم ... "
توجه القائد والدموع تنساب من عينيه إلى التابوت ومزق الغطاء .. كان الميت رجلا مسنا
ذا لحية بيضاء .. ملفوفا فى الكفن .
أخذ الرجل برأس الميت برفق , بينما أمسك أحد الرجال بالقدمين ورفعاه من التابوت ووضعا الجثة فى القبر . لم يكن القبر سوى حفرة فى الرمال تمتد لعدة ياردات .
بدأ القائد يهيل الرمال على القبر .. وهويقول : " إنا لله وإنا إليه راجعون ." ثم وضع حجرا عند الرأس وحجرا عند القدمين .. كان الرأس موجها تلقاء مكة .. ورقد الميت رقدته الأخيرة إلى يوم القيامة . أشرقت الشمس .. وبدأت الحشرات تدور فى هواء الصباح النقى .. عدنا فى صمت إلى الكهوف . وخارج الكهوف وقفت النساء وقد وضعوا وعائين من الحديد على النار .. كان البخار يتصاعد منهما .. كانت النساء تقوم بغلى حليب الشياه وحليب الإبل .
كان هناك فى أحد الأركان حوالى 50 من الأغنام .. وثلاثة جمال جاثية وهى تمضغ أوراق الصبار دون أن تحفل بأشواكها . كان الأطفال مشغولون برعى الأغنام وإحضار الماء من البئر ثم يقومون بإفراغه فى حوض مصنوع من الصخر .
جلسنا حول النار نتجاذب أطراف الحديث , سألت القائد :"ولماذا لاتشربون الشاى أو القهوة ؟"
رد قائلا :" كنت قد أحضرت بعض الشاى والبن من توجورت ولكنه نفذ .. ولم أذهب إلى هناك منذ سنتين .. إن الأولاد هنا لم يروا مدينة فى حياتهم ."
قلت له :" لدى بعض الشاى فى السيارة أود أن أعطيك بعضا منه , فلنذهب إلى السيارة لنحضره ." هز القائد رأسه موافقا وقال :" لقد قدمت لنا خدمة عظيمة بقراءتك سورة يس .. لولا وجودك وقراءتك للقرآن لكنا إنتظرنا مرور أحد ممن يعرفون بعض القرآن حتى ندفن فقيدنا , أنت الآن ضيف علينا ونحن نحب أن نكرم ضيوفنا بقدر ما نستطيع .. ولكننا لن نسمح
لك بأن تعطينا أى شئ فى مقابل ذلك ."

قلت له :" ولكن الشاى شئ بسيط ."
قال :" ولكنه ليس بسيطا بالنسبة لنا .. لو أردناه فعلا فباستطاعتنا شراءه من توجورت .. عليك أن تفكر فى كل هذه المعانى ."
رجوته أن يقبل منى بعضا من الشاى , وبعد إلحاح شديد قبل ذلك, وقد أحسست أنه فى حاجة شديدة إليه ولكنه كان يرفض لأن ذلك يخل بقواعد وأصول الضيافة .
أعدت النساء طعام الإفطار وأحضرنه .. كانت النساء لايرتدين الحجاب كنساء البدو .. ولكنهن
حضرن وصافحننا أنا وعبد السلام .. وأخذن يتحدثن معنا عن أجدادنا .
كانت وجبة الإفطار بسيطة .. لم يكن هناك خبزا .. شربنا بعض اللبن الساخن مع بعض التمور الجافة .. ثم أكلنا بعض الكمثرى . وبعد ان انتهينا من تناول الطعام سألنى القائد :" ما سبب تعطل سيارتك ؟" قلت له أن الماء قد نفذ وأن هناك ثقبا فى مبرد السيارة .. وأننا نستطيع أن نصل بالكاد إلى حيث الكهوف إذا ملأناه بالماء .
وفى الحال أمر القائد الأولاد بحمل بعض الماء .. لم يسمح لنا بحمله .. وذهبنا إلى حيث السيارة .. فوجدنا ذلك العجوز الذى قابلناه وقد جلس على السيارة .. نظر إليّ وقال مبتسما :" السلام عليكم .. ألم أقل لك أننى أمشى بنفس سرعتكم .. ؟ ها قد وصلت إلى هنا معكم ."
وعندما شاهده سكان الكهوف وضعوا أوانى الماء على الأرض وأسرعوا إليه يقبلون يديه وهم يقولون :" أيها الرجل المبروك .. الحمد لله الذى أرسلك إلينا إلى هنا .. نستحلفك بالله أن تباركنا
بزيارتك حيث نعيش ."
هز العجوز رأسه وقال :" لا أستطيع ذلك .. يجب أن أذهب بمفردى .. إننى فى طريقى إلى الحج ومن الأفضل أن أسافر بمفردى ."
نظر إليه الرجلان وقالا :" نرجوك أن تدعو لنا وأنت فى مكة ."
تنهد العجوز وقال :" أخشى أن لا أصل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ."
أعطينا العجوز بعض التمور وملأنا زجاجاته بالماء .. استراح لمدة ربع ساعة ثم واصل سيره وحيدا فى الصحراء . أقمنا مع سكان الكهوف بضعة أيام نفكر فى كيفية إصلاح السيارة ..
والحمد لله .. فقد إقترح أحد الشبان أن نستخدم بعض الجير الذى يستخدمونه فى البناء .. وبالفعل كانت فكرة ممتازة , فقد سددنا الثقوب ولم يعد هناك تسرب للماء من مبرد السيارة .
ودعنا مضيفونا الذين رفضوا قبول أى شئ منا على سبيل الهدية .. وواصلنا الرحلة .
وبعد حوالى ثلاث ساعات وصلنا إلى توجورت .. آخر مدن الجزائر .. كانت مكان غريب يلتقى فيه العرب والأتراك والفرنسيين .
كانت الشمس تميل نحو الغروب مرسلة أشعتها الحمراء تصبغ بها سقوف المنازل .. وفى السوق نظر أحد كبار السن إلى السماء ثم ابتسم قائلا:" أعتقد أن السماء ستمطر غدا ."

سألته عن آخر مرة أمطرت فيها السماء , فقال إن ذلك كان منذ خمس سنوات .. كان هناك أطفال لم يروا المطر فى حياتهم بعد .
توجهنا بالسيارة نحو الفندق لقضاء يومين قبل أن نواصل رحلتنا .. كانت الحجرة بمحازاة
الشارع ..بها شباك واحد .. كنا متعبين .. تناولنا طعامنا ثم ذهبنا لنأخذ قسطا من الراحة .. ولكن بدا أن ذلك لن يستمر طويلا .. فما أن بدأنا نستريح حتى تردد إلى أسماعنا أصوات الطبول , وآلات النفخ التى ظلت تعلو شيئا فشيئا .. أضيئت المصابيح وظهر بعض الرجال وهم يحملون الكشافات .. وفى هذه اللحظة ظهر موكب غريب من آخر الشارع .
كان هناك أحد السود فى المقدمة .. يرتدى قبعة من الفراء .. معلق بها أربع من ذيول ابن آوى .. وحول رقبته إلتف ثعبان وتدلى حبل به أنواع كثيرة من العظام .. أجزاء من أجنحة الطيور .. أجسام معدنية وذيول حيوانات .. كان يرقص على قدميه , مرة يقف على واحدة ثم يقف على
الأخرى .. وهوينفخ بفمه .. كان يقرع طبلة ضخمة يحملها .. وخلفه أتى ستة من الرجال يدقون الدفوف .. أما فى المؤخرة فقد أتى مجموعة من الرجال يعزفون على الناى .. وحشد كبير من الناس . توقف الموكب فى منتصف الشارع وصعد الرجل الأسود إلى أحد المنازل , وأخرج قطعة من العظم وطرق بها الباب ثلاث مرات .. فخرجت أنا وعبد السلام إلى الشارع لنشاهد مايحدث .. وعلى الرغم من أننا كنا نرتدى الزى المغربى إلا أنه لم يحاول أحد إيذاءنا .
طرق الرجل الأسود الباب مرة ثانية ولكنه لم يلق إجابة , وفى المرة الثالثة سمعنا صوتا من داخل المنزل يقول :" من بالباب ؟"
رد الرجل الأسود قائلا :" إن سيدى عبد القادر هنا .. إنه سيدى عبد القادر من الجبال .. إنه سيعالج ابنك المريض ."
رد الصوت من داخل البيت مرة أخرى :" من بالباب ؟"
رد الرجل الأسود قائلا :" يا سيدى .. إنه الدرويش المبروك عبد القادر , الذى يعيش فى الكهوف وفى ظلال النخيل ."
وللمرة الثالثة رد الصوت من الداخل :" من بالباب ؟"
رد الرجل الأسود :" يا سيدى إذا كنت تريد علاجا لابنك , فعليك أن تفتح الباب .. إن عبد القادر بالباب .. عبد القادر الذى يعرف مسار النسور .. ويتمتع بذكاء كلاب الصيد ..
عبد القادر الذى يحمل بين جنباته قوة الأسد ."
انفتح الباب بهدوء وخرج من ورائه رجل عجوز .. ذهب إلى الرجل الأسود وقبل يده قائلا :" مرحبا يا سيدى ."
قال عبد القادر :" تعرف طبعا أننى أستطيع أن أعالج ابنك ."
رد العجوز قائلا :" الله وحده يعلم إذا ما كان ابنى سيشفى أم لا , ولكن هل تعتقد أنك تستطيع قراءة ما هو مكتوب فى الكتاب الذهبى ؟"

هز عبد القادر رأسه وعليها ذيول ابن آوى .. وأعطى إشارة إلى اثنين من أتباعه فدخلا إلى البيت وخرجا وهما يحملان تابوتا , وضعاه فى منتصف الشارع . جلس على التابوت صبى فى السادسة عشرة من عمره .. كانت عيناه حمراوين ومتورمتين .. كان يحرك جفنيه بصعوبة بالغة . أمسك عبد القادر كشافا ووضعه أمام الصبى وسأله :" هل ترى الضوء ؟"
أجاب الصبى بالنفى .. كان صوته ضعيفا .. انخرط الأب فى بكاء شديد , وذهب إلى التابوت وقبل الصبى فى وجنتيه , قائلا :" يا على .. إذا كان عبد القادر لا يستطيع أن يرد لك بصرك ..
فسوف ألازمك طوال حياتى .. ماذا فعلت حتى أستحق هذا العقاب فى ابنى الوحيد .. تبارك الله العظيم ." بدأ صبر عبد القادر ينفذ , فأمسك بكتف الأب قائلا :" لقد لجأت إلى عبد القادر .. وعبد القادر سوف يساعدك , ولكننا نشعر بالجوع والعطش الآن ."
تنهد الرجل العجوز , ثم أخرج حقيبة من الجلد يضعها حول رقبته , وأخرج منها بعض العملات الفضية ووضعها فى يد عبد القادر . جلس عبد القادر .. بدأ الرجال فى عزف الموسيقى .. وجلس الساحر .. يرسم على الأرض بقطعة من العظم وهو يهز رأسه يمينا ويسارا وإلى الأمام وإلى الخلف .. بينما بدأت أصوات الموسيقى تعلو شيئا فشيئا .. وفجأة
أعطى إشارة فتوقفت الموسيقى , وقال عبد القادر :" لا أرى شيئا .. إننا مازلنا نشعر بالجوع والعطش ." تنهد العجوز وأخرج الحقيبة الجلدية ووضع نصف مافيها فى يد عبد القادر المفتوحة وقال :" كن رحيما .. فأنا رجل فقير .. فقير جدا ."
بدأت الموسيقى مرة أخرى .. لفترة أطول .. ولكن قناع عبد القادر لم يتحرك .. هز رأسه ورقصت الذيول التى يربطها فى قبعته .. كانت تبدو كئيبة .
قال عبد القادر :" يا سيدى .. خذ نقودك فإننى لا أرى شيئا ."
قال ذلك وهو ينظر إلى الحقيبة الجلدية . أفرغ العجوز كل ما لديه من نقود فى يد عبد القادر , ثم وضع الحقيبة كلها فى يده .
بدأت الموسيقى مرة أخرى وبدأ قرع الطبول .. وبدأ عبد القادر يهز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف .. وازدادت سرعته حتى زبد فمه .. وظهرت عيناه وكأنما قد فقد وعيه .. وفجأة التزم
الجميع الصمت , وقال عبد القادر :" دجاجة ." أعطوه دجاجتين .. أمسك واحدة وقطع لسانها وبلل إصبعه بدمها , ثم وضع إصبعه على إحدى عيني الصبى ولطخها بالدم , وفعل نفس الشئ بالدجاجة الأخرى ولطخ بدمائها العين الأخرى . تركوا الدجاجتين حيث انطلقتا دون أن يصدر عنهما صوت .. أمسكهما أحد الحاضرين وذبحهما .
انتهى الاحتفال .. اختفت الكشافات والطبول .. اختفى عبد القادر .. اختفى الجميع .. وحمل الصبى إلى داخل المنزل .
سألت عبد السلام :" هل تصدق هذه الأشياء ؟"
لم يعرف عبد السلام كيف يجيب على سؤالى ولكنه قال :" ولم لا ؟ إن عبد القادر رجل مبروك .. إنه يعيش فى الجبال ."

قلت له :" ولكنه أخذ الكثير من المال من هذا الرجل الفقير .. وهل رأيت كيف حاول علاج عيني الصبى بطريقة بربرية ؟ هل تعتقد أن عبد القادر مثل سيدى أحمد إدريس من فاس
أو مثل سيدى محمد الذى قابلناه فى الصحراء ؟"
لم يجب عبد السلام على سؤالى ولكنه اكتفى بالقول :" لن أواصل الرحلة أكثر من ذلك .. إننى أتمنى العودة إلى تطوان ." وبدأ يحكى عن تطوان الرائعة حيث كان يعيش كشحاذ فى ملابس مهلهلة .. إلى أن غلبه النعاس .
كانت صاحبة الفندق الذى نقيم فيه امرأة يهودية .. تضع على وجهها طبقة كثيفة من الزيت , بينما تدلى على وجهها أربع خصلات من الشعر .. كانت سيدة أعمال ذكية .. بالإضافة إلى
الفندق كانت تمتلك حانة فى الطابق الأرضى .. تحقق فيها مبيعات كثيرة من الخمور والنبيذ
فى توجورت .
كان منظرها جميلا وهى تضع منديلا أحمرا وتقف فى الحانة .. وتصب الخمور بيد وتسمح أنفها باليد الأخرى .. كانت تتحدث جميع اللغات التى يتحدثها الناس فى توجورت .. كانت بارعة فى التعامل مع الزبائن , وتعرف كيف تتعامل مع كل فرد على حدة .
كان الفراش مليئا بالقمل .. وبعد فترة طويلة خلدنا إلى النوم .. وفى الصباح استيقظت فى الثامنة .. كان هناك من يطرق الباب .. قلت بالفرنسية :" من الطارق ؟"
ردت صاحبة الفندق من خلف الباب معتذرة لإيقاظى وسألتنى إذا ما كنت أتحدث الإنجليزية .
هرعت إلى الباب فى ملابس النوم وسألتها :" ما الخطب ؟"
ردت قائلة :" هناك رجل مريض ."
قلت لها :" ولكننى لست طبيبا ."
قالت :" أعلم ذلك ولكن الرجل المريض لا يتحدث إلا اللغة الإنجليزية , ولا نستطيع فهم ما يقول .. فهل يمكن أن تقوم بعملية الترجمة ؟"
بالطبع لم أستطع أن أرفض هذا الطلب .. صعدنا الدرج وتوجهنا إلى الحجرة التى يرقد فيها المريض .. كانت حجرة بسيطة لا يوجد فيها سوى سرير كبير ومنضدة بثلاثة أرجل .. كانت الجدران بيضاء لايوجد عليها سوى جحور القمل التى يأوى إليها بعد أن يمتص دماء النزلاء .
رأيت شابا يرقد فى السرير, وعندما رآنى بادرنى قائلا :" إننى سعيد أن وجدت أخيرا شخص
يتحدث الإنجليزية .. أنا لا أحب الناس هنا ."
قلت له :" تقول السيدة إنك مريض .. ماذا بك ؟"
رد قائلا :" نعم .. إن معدتى تؤلمنى كثيرا .. لم أشعر بالراحة منذ أن وصلت إلى إفريقيا ."
سألته :" ومن أين أتيت ؟"

قدم نفسه لى قائلا :" اسمى روسكو د . تاربوكس .. أنا من نيويورك .. كنت فى الجزائر عندما خطرت لى فكرة الذهاب إلى توجورت .. لدى تذكرة إلى تونس ومن هناك سأتوجه إلى مصر .. هذا إذا سارت الأمور على ما يرام . وابتسم قائلا :" إننى مصاب بألم فى المعدة ."
أمعنت النظر فى وجه الشاب .. كان عمره لا يتجاوز العشرين .. كان يبدو عليه الذكاء .
سألته :" وماذا عن معدتك ؟"
قال :" إن الأمر مؤلم للغاية .. إننى أشعر وكأنه لم يتبق من معدتى جزء سليم ."
قالت صاحبة الفندق وقد نفذ صبرها :" وماذا يريد الآن ؟"
سألت تاربوكس إذا كان يريد تناول شيئا من الطعام , فأجابنى بأنه لم يستطع تناول أى شئ مما قدموه إليه .. ولكنه كان يتمنى أن يأكل سندوتش خنزير بالمستردة .
ترجمت ما قاله تاربوكس إلى صاحبة الفندق , وسرعان ما أحضرت شريحة من الخبز الأبيض وقطعة من لحم الخنزير وقدمته إلى تاربوكس . أمسك تاربوكس بالخبز وبدأ يضع المستردة عندها أمسكت يده قائلا :" هل جننت ؟ إن هذا قد يكون لك بمثابة السم لمعدتك المريضة ."
تنهد تاربوكس ونظر إليّ قائلا :" إن هذا كل ما أريد .. لاأستطيع أن أتناول أى طعام آخر ."
قلت له :" بالفعل .. لن تأكل أى طعام فى الوقت الحالى ."
نظرت إلى صاحبة الفندق , وطلبت منها إحضار القليل من زيت الخروع .. أعطيت تاربوكس أربع ملاعق منه وقلت له :" تستطيع أن تأكل الشيكولاتة فقط بعد ذلك .. سوف تتحسن ."
لم يبدو على تاربوكس الارتياح لما قلت ولكنه وافق على مضض .
قلت له :" لقد أصابنى ما أصابك عندما كنت فى الدار البيضاء .. وتناولت القليل من زيت الخروع وبعض الشيكولاتة ."
نام تاربوكس .. زرته مرة أخرى فى المساء بعد أن تناول بعض الشيكولاتة .. وسعدت لأنه تحسن كثيرا على ذلك .
سألنى :" لماذا ترتدى الملابس العربية ؟"
قلت له :" إننى فى طريقى إلى مصر .. بدأت من مراكش .. ولدى الرغبة فى أن أتعرف على جميع القبائل فى طريقى ."
سألنى :" وهل تسافر بمفردك ؟"
قلت له :" لا .. إن معى أحد العرب ويدعى عبد السلام .. ولكننى لاأعرف إن كان سيواصل معى أم سيظل فى توجورت ."
قال بكل حماس:" إننى ذاهب إلى مصر .. هل تقبل اصطحابى معك فى السيارة ؟ يمكننى أن أرى أفريقيا كلها إذا اصطحبتنى معك ."
قلت له معترضا :" ولكنها رحلة تحفها المخاطر .. فقد نتعرض للقتل ."
رد قائلا :" لا يهم .. إذا اجتزت الرحلة بنجاح فسوف نكون سويا ."
قلت له :" ولكنك لا تتحدث العربية .. وترتدى ملابس أوروبية ."

لم أكن متحمسا لاصطحابه معى .. ولكنه بادرنى قائلا :" سوف أرتدى الملابس العربية .. أما إننى لا أتحدث العربية فهذا أفضل لى فلن أتكلم مع أحد .. وبالتالى لن أخطئ .. أستحلفك أن تأخذنى معك .. على مسئوليتى الخاصة ."
استسلمت لإلحاحه , وبعد تردد قبلت اصطحابه .. وقررنا أن نبدأ رحلتنا بعد يومين , نكون قد انتهينا أثناءها من إصلاح مبرد السيارة .
وصدقت توقعاتى بالنسبة لعبد السلام .. فقد قرر البقاء .. وانتابته سعادة بالغة عندما أعطاه تاربوكس تذكرة السفر إلى تونس وبعض الفرنكات , ومن هناك يستطيع العودة إلى مراكش .. وسافر عبد السلام فى المساء .
كانت عملية إصلاح مبرد السيارة عملية صعبة للغاية .. فقد أزلنا كل الجير الموجود ووضعنا بدلا منه الأسمنت لسد الثقوب .. كحل مؤقت إلى أن نصل إلى طرابلس ونشترى مبرد سيارة جديد من هناك . وعندما اكتملت الاستعدادات , غادرت أنا وتاربوكس توجورت متوجهين نحو توزور على الجانب الآخر من الحدود التونسية .
أمطرت السماء كما توقع العجوز العربى .. ظل المطر ينهمر طوال الليل .. تحولت توجورت وما حولها إلى مستنقعات .
كانت التربة حول توجورت طفلية حمراء .. وفى حال الجفاف يصبح هذا الطفل كالغبار تذروه الرياح .. ولكنه وبعد المطر تحول إلى طبقة سميكة من الطين .. كانت السيارة تنزلق يمينا ويسارا .. وعند الظهر انزلقت السيارة إلى حفرة مياه .. حاولنا إخراجها منها دون جدوى .
وفجأة رأينا أحد العرب وهو يقود جملين متوجها نحو توجورت , ناديته طالبا منه المساعدة .. ولكنه لم يلتفت لندائى .. واكتفى بالقول :" كان يجب عليك البقاء فى توجورت إذا كانت سيارتك لاتستطيع السير فى هذه الأماكن ."
قلت له :" سوف أعطيك نقودا إذا ساعدتنا على الخروج من الحفرة ."
قال الأعرابى :" لن أقدم لك شيئا أيها الفرنسى الكافر .. لقد غزوتم بلادنا ."
قلت له :" ولكننى لست فرنسيا .. إننى مسلم مثلك تماما ."
عندما سمع الأعرابى ذلك .. توقف بالجملين وسألنى :" هل تقول الصدق ؟ إذا إقرأ الفاتحة .. وسوف أعرف إذا ما كنت تكذب أم لا ."
وعندما سمع قراءتى لسورة الفاتحة .. شعر بالراحة وتوجه مباشرة إلى السيارة وربطنا الجملين وبدأنا فى إخراج السيارة .. لم يستغرق الأمر سوى دقيقتين .
قدمنا للأعرابى شكرنا على مساعدته لنا .. لم يكن من عادة العرب أن يقبلوا شكرا على صنيع يقدمونه . وتوجه الأعرابى نحو توجورت .
واصلنا سيرنا .. بدأ الطريق فى التحسن خاصة بعد أن توقف هطول الأمطار , زدنا من سرعتنا قليلا, وفى العاشرة شاهدنا مجموعة من المنازل .. كانت قرية صغيرة مساكنها بيضاء.
توقفنا واستفسرنا عن مكان الفندق .. فأخبرونا أن القرية ليس بها فنادق , وعلينا أن ننام فى مكتب البريد .
ذهبت انا وتاربوكس إلى مكتب البريد , وطرقنا الباب ولكننا لم نسمع إجابة , وعلى الرغم من شعورنا بالجوع .. إلا أنه لم يكن أمامنا بديل غير النوم فى السيارة .

أيقظنى بعد فترة رجل يحمل مصباحا فى يده , سألنا الرجل :" من أنتم ؟"
أخبرته أننا ننتظر مدير البريد , فقال :" أنا مدير البريد .. ماذا تريدان ؟"
قلت له :" لقد علمنا أنه يمكننا قضاء الليل فى مكتب البريد."
نظر إلينا لبرهة ثم قال :" حسنا .. تستطيعان قضاء الليل هنا على أن تقبلا ما لدينا ."
دخلنا إلى حجرة بها حصيرة من القش .. ومنضدة .. وكنبة خشبية .
سألنا الرجل :" هل تشعران بالجوع ؟"
أجبته بالإيجاب ,فاستدعى ولدين جاءا وآثار النوم تبدو عليهما , ثم قال :" هذان أبناء أخى .. إنهما يذهبان إلى المدرسة هنا .. إننى أدير المدرسة ومكتب البريد ."
نظر إلينا الولدان بغباء واضح .. فقد كنا السبب فى إزعاجهما من نومهما . أمرهم الرجل بالصعود إلىسطح المنزل وإحضار حمامتين .. ذبحهما وتناولنا الطعام ثم بدات الموسيقى تنساب من جهاز الحاكى .. كان النغم نشازا .. ولكن مضيفنا كان منسجما مع الموسيقى .
وعند منتصف الليل سمح لنا بالنوم .. التحفنا السجاجيد التى أحضرناها من السيارة .. وافترشنا الحصيرة وغرقنا فى سبات عميق .
وفى السابعة أيقظنا مدير البريد قائلا :" عليكم بالاستيقاظ الآن .. ستبدأ المدرسة بعد نصف ساعة .. وعربة البريد على وشك الوصول ."
تعجبت لما قاله وسألته مندهشا :" وهل تصل سيارات إلى هنا ؟"
قال :" نعم .. تأتى سيارة كل أسبوع من الجزائر .. أما اليوم فتصل سيارة من بسكرا ."
ثم قدم لنا الولدان القهوة والخبز . بدأت المصاعب تواجهنا .. لم نستطع تشغيل السيارة .
كانت المدرسة تضم ما بين 20 – 30 تلميذا تجمعوا فى مكان واحد , كان مدير المدرسة يدق
جرسا صغيرا يتجمع حوله الأولاد .. ثم تبدأ الدروس .. كان الأولاد يمسكون بألواح مكتوب عليها آيات من القرآن الكريم .. ثم بدأوا يقرءون بصوت عال .. كان الكبار منهم يقرءون سورا من القرآن تختلف عما يقرؤها الصغار .. كانت الأصوات عالية .. تكاد تسمع صوتك بصعوبة بالغة .. ولكن للغرابة كان مدير المدرسة يصحح لكل من يخطئ .. قائلا أيها المخطئ .. قل كذا, ويمد المخطئ يده ليتلقى ثلاث ضربات بالعصى جزاء ما ارتكب من خطأ .
وأثناء الدرس سمعنا صوت سيارة عن بعد .. قرع مدير المدرسة الجرس وقال للأولاد
:"لقد حان ." .. فانطلق الأولاد يلعبون .. وتحولت المدرسة إلى مكتب بريد .
اقتربت السيارة .. كانت ذات ست عجلات , مصممة خصيصا للصحراء , سائقها فرنسى .
لم تتوقف طويلا فى القرية الصغيرة .. كان السائق يسلم ويتسلم البريد .. أما مدير البريد فكان يقوم بختم الخطابات وقد امتلأ زهوا بما يفعل .. لقد كان يدرك أهمية عمله كموظف فى الجمهورية الفرنسية .

توجهت إلى السائق وطلبت منه أن يجر سيارتى بسيارته حول الميدان لمرة واحدة .. هذه كانت الطريقة الوحيدة لتشغيل السيارة . وافق السائق وتم تشغيل السيارة .. وبعد عدة ساعات وصلنا إلى توزور .. وهى مدينة أوروبية فى جنوب تونس .. وقضينا الليلة هناك .
كان علينا بعد ذلك أن نواجه أصعب جزء فى الصحراء الممتدة أمامنا .. فحول توزور كان هناك سلسلة من الجبال من الصعب على السيارات اجتيازها . فى الشتاء لا يمكن دخول المدينة إلا من جهة الشمال وجهة الغرب .. فقد كانت الصحراء تحدها من جهة الجنوب والبحيرة
المالحة من جهة الشرق . هناك الكثير من البحيرات المالحة فى جنوب تونس .. عادة ما تكون جافة فى فصل الصيف .. أما فى فصل الشتاء فإن الماء يرتفع فيها لعدة أقدام . كان أكبر هذه البحيرات .. بحيرة شط الجريد كما كان يسميها العرب .. كانت أضيق منطقة فيها يبلغ اتساعها 20 ميلا .
قدنا السيارة بسرعة لأميال قليلة .. فوق الأملاح الجافة .. وفجأة وصلنا إلى مياه متجمعة .. تزداد عمقا كلما سرنا فيها حتى غطت الإطارات . وعلى الرغم من أننى قدت السيارة ببطء فى هذه المنطقة إلا أن رذاذ الماء كان يتطاير على المحرك حتى وصل إلى موزع الكهرباء فتوقفت السيارة فى الحال . استغرق الأمر ثلاثين دقيقة حتى تعمل السيارة مرة أخرى .. كان الموقف محيرا .. لم يكن فى مقدورنا ترك السيارة والخوض فى الأملاح حتى نصل إلى الشاطئ . كانت الأملاح تؤذى أقدامنا.. كنا نشعر بالملوحة الشديدة على وجوهنا وأيدينا .. كانت الشمس ترسل أشعتها الحارقة فيزداد إحساسنا بالملح .
مضت أربع ساعات سرنا أثناءها ببطء شديد .. لم يكن المحرك يعمل بكل طاقته .. وصلنا إلى الجانب الآخر من البحيرة .. واصلنا السير بين المنحدرات الصخرية المليئة بنبات الصبار .. وعند الغروب وصلنا إلى قرية صغيرة بها بئر ماء .
بدانا على الفور فى إزالة الأملاح من على السيارة .. واقترب منا أحد الشبان سائلا :" هل مررتم بالسيارة على منطقة شط الجريد ؟ إنكم محظوظون أن تنجحوا فى اجتياز هذه المنطقة فى هذا الوقت من السنة .. لقد انقلبت سيارة منذ شهرين فى هذه المنطقة وغاصت فى الوحل ."
سألته :" وهل قاع البحيرة صلبا ؟"
رد قائلا:" لا .. المنطقة الصلبة عبارة عن شريط ضيق فى منتصف البحيرة .. أما على الجوانب فالقيادة خطيرة فى الشتاء ."
نظرت إلى تاربوكس .. وأدركت أن حسن الطالع وليست المهارة هوالذى أوصلنا إلى هذا المكان . جلسنا حول البئر مع سكان القرية وشربنا الشاى .. امتد بنا الحديث إلى ما بعد منتصف الليل .. كنا نحكى القصة تلو الأخرى .. كان التونسيون أنقى من قابلت من العرب حتى ذلك الوقت .. كانوا يتحدثون معنا عن تونس عندما كانت دولة مستقلة قبل وصول الفرنسيين .. تحدثوا أيضا عن الحرب التى اندلعت فى طرابلس عام 1912 والتى مازالت مستمرة .. تحدثوا أيضا عن اليوم الذى تتوحد فيه كل

الشعوب الإسلامية والتى تتقاتل فيما بينها اليوم , حتى تستطيع طرد المتطفلين الأجانب الذين غزوا بلادهم .
نظر إليّ أحد الشباب قائلا :" ما رأيك فى مصطفى كمال باشا ؟ ألا تعتقد أنه يستطيع أن ينقذ
الإسلام ؟ لقد طرد اليونانيين من آسيا وهزم الإنجليز ."
رد عليه أحد الرجال وكان متقدما فى العمر قائلا :" إنك لاتعرف ما تقول .. ألا تعلم أن مصطفى كمال ليس مسلما صالحا .. إنه يشرب الخمر .. وقد بدأ يمنع ارتداء الطربوش ."
قلت لهم :" إن ما يقوله هذا الرجل صحيح .. لقد أفسد الأتراك الإسلام .. إن سبب ما نحن فيه الآن هو الأتراك .. إن الأتراك يفسدون أى شئ يضعون أيديهم فيه ."
نظر الشاب إلى العجوز قائلا :" مصطفى ! يجب علينا أن نتحد سويا ونبقى يدا واحدة إذا أردنا تحقيق انتصارات ."
رد مصطفى قائلا :" سوف يأتى النصر .. ولكنه لن يأتى من الجزيرة العربية ."
قلت لهما :" إن ما يأتى من الجزيرة العربية دائما فى صالح الإسلام والمسلمين .. ربما كان
ابن مسعود هو العظيم الذى تتحقق على يديه الانتصارات .. إننى أثق فيه أكثر من ثقتى فى كمال باشا ."
أومأ مصطفى برأسه موافقا على ما أقول .. وتنهد قائلا :" يجب أن ينصب ابن مسعود خليفة للمسلمين .. ربما يحدث ذلك فى المستقبل ."
وهكذا استمرت الأحاديث حتى ساعة متأخرة من الليل . وقبل رحيلنا سألنى مصطفى :" لقد قارب شهر رمضان على الانتهاء .. فأين تنوى قضاء العيد ؟"
قلت له:" إن شاء الله فى طرابلس ."
سألنى مصطفى :"وهل سوف تستطيع المرور من هناك ؟ إن الإيطاليين صعب التعامل معهم."
قلت له مستبشرا :" أتمنى أن تسير الأمور على خير ما يرام إن شاء الله ."
لم يفهم تاربوكس أى شئ من المحادثات التى دارت , ولكن الغريب أن هذا الأمريكى كان يشعر بالألفة والراحة وهو يجلس بين هؤلاء الناس مرتديا الملابس العربية , بالرغم من أنه لم يسمع عنهم من قبل , فلم يدرس فى الجامعة أى شئ عنهم .
فى صباح اليوم التالى وقبل شروق الشمس بدأت رحلتنا .. بدأ الطريق فى التحسن واختفت تضاريس الصحراء . كانت أشجار النخيل ترتفع على جانبى الطريق .. هبت الرياح من البحر .. وفاح عبق الأزهار من الوادى حيث تقع جابس .
بعد فترة قصيرة وصلنا إلى قابس وهى مدينة فرنسية بها حى عربى صغير .. كانت شوارعها مستقيمة كالطرق الأوروبية .. بها الكثير من دور السينما .. تعلوها ملصقات الأفلام الأمريكية .. كانت هناك الكثيرات من بائعات الهوى يجلسن فى البارات , ويدخن السجائر . كانت هناك الكثير من المصانع والبنوك .. وفى الميناء كانت هناك الكثير من السفن الشراعية والسفن البخارية والقوارب ذات المحركات .

كان البحر الأبيض المتوسط يلمع فى زرقته تحت أشعة الشمس . انتهى الجزء الأول من رحلتنا . كان تاربوكس غريب الأطوار .
لقد أسهبت فى وصف الرحلة .. لم يكن هناك وقت لأصفه شخصيا .. كان طويل القامة نحيل الجسم .. يغلب عليه الحماس لكل شئ جديد .. وبسبب جهله المطبق فإنه لم يكن يهتز أبدا .. فمهما حدث كان دائما يحتفظ بهدوئه المعهود ,كان لا يعرف شيئا سوى أمريكا , دائم التحدث
عنها .. التحق بالجامعة .. ولكنك تشعر وكأنه لم يتعلم شيئا سوى أن أمريكا هى الدولة الوحيدة على سطح الأرض .. كان دائما يذكرنى بأن أخطر شئ هو أن تحاول استمالة الفتاة الأمريكية .
كان يبدو لى أن ما دفع تاربوكس للإنطلاق إلى العالم خارج أمريكا , هو قصة حب عاشها .. أو هكذا تخيلت . بعد أن كان قد ادخر مبلغا من المال .. ركب فى احدى السفن المتجهة من
نيويورك إلى كاديز فى أسبانيا .. حيث اكتشف أن أفريقيا مكانا يثير اهتمامه .. وياللعجب فقد كان لايعرف أية لغة سوى الإنجليزية , ومع ذلك قرر السفر إلى إفريقيا .. ثم وصل إلى توجورت ولم يكن قد سمع عنها من قبل .. ولكن روح المغامرة هى التى كانت تدفعه فى كل خطواته .. أما حسن طالعه فهو السبب فى اصطحابه لى فى تلك الرحلة المليئة بالصعاب وتحفها المخاطر . وقد أثبت تاربوكس أنه رجل بمعنى الكلمة .. كان لديه المال الكافى لأن يسافر إلى تونس فى الدرجة الأولى , ولكنه آثر السفر فى سيارة بطيئة . إننا كبشر نقع أسرى لعاداتنا .. وبالرغم من إدراكى لهذه الحقيقة إلا أننى اختلفت مع تاربوكس بمجرد وصولنا إلى قابس .
تناولنا عشاءا شهيا فى الفندق , ثم أشعل كل واحد منا سيجارا .. وعندما أحضروا القهوة .. أعطيت تاربوكس السكر .
قال بهدوء :" أنا لا أضع السكر فى القهوة ."
قبلت ذلك بهدوء أيضا , فالكثير من الناس لا يضعون السكر فى القهوة , ولكنه استدعى الساقى وطلب منه إحضار بعض الملح .
نظرت إليه باستغراب عن سبب طلبه الملح . أحضر الساقى بعض الملح وأعطاه لتاربوكس .. أخذه ووضع بعضا منه فى القهوة .
قلت له :" يالها من فكرة غريبة أن تضع الملح فى القهوة ."
رد تاربوكس بهدوء :" إننى أحبها هكذا ."
انتابتنى رعشة عندما رأيت الساقى وصاحبة الفندق يتفحصوننا .. تخيلت أنهما سيتحرون عنا وعن أسمائنا فى دفتر النزلاء .
قلت لتاربوكس :" نعم .. ولكن هذا قد يسبب لك بعض الحساسية ."
لم يرد تاربوكس على ملاحظتى واكتفى بهز كتفيه ووضع بعض الملح فى فنجانه الثانى .
كانت هذه أول وآخر مرة أختلف فيها مع تاربوكس .. ولكننى تبينت كيف تشكل العادات سلوك الإنسان .. إنها مجرد تفاهات .. عندما يتناول العربى طعامه بأصابعه

بدلا من الشوكة والسكين فإننا نقول إن هذا السلوك سلوكا بربريا .. وعندما يأكل الأسبانى لحم الأخطبوط أو عندما
يأكل الفرنسى القواقع فإننا نقول أن هذا شئ مثير للاشمئزاز .. بينما يجد معظمنا متعة كبيرة فى تناول المحار الحى .

الفصل الثالث

النسور الرومانية تحلق فى طرابلس

كان الطريق إلى حدود طرابلس مرصوفا بالحصى .. عليه علامات إرشادية .. كان طريقا

سريعا . غادرنا قابس فى الصباح بعد أن أصلحنا السيارة , كنا نأمل أن نقطع مسافة 95 ميلا ونصل إلى الحدود مع حلول المساء .
بدأ القلق يتملكنى وتساءلت كيف سنجتاز الجمارك ؟ وقد تجنبنا المرور فى الجمارك بين مراكش والجزائر .. ولم يتم ختم أوراقى عند الحدود . اقترح تاربوكس أن ندخل إلى المنطقة الإيطالية ليلا تجنبا لذلك . وفى الساعة السابعة كان الظلام قد حل عندما وصلنا إلى منطقة الحدود .. قدنا السيارة بسرعة فى شوارع المدينة الخالية دون أن يوقفنا أى شخص للتحقق من أوراقنا .. كنا نتوقع أن نجد أول مركز إيطالى عن قرب .. دخلنا إلى طريق وعر واضطررت لقيادة السيارة ببطء شديد . . كان الطريق عبارة عن حفر ومستنقعات .. واعتقدنا أننا اجتزنا الحدود بمسافة كبيرة عندما شاهدنا سيارة أخرى يقف بجانبها السائق وقد وقعت فى حفرة .
بادرت السائق قائلا :" هل تريد المساعدة ؟"
رد شاكرا بالفرنسية :" لا ..سوف تصل النجدة فى أية لحظة , لقد انكسر ذراع توجيه السيارة."
سألته :" كم المسافة إلى أقرب مدينة فى طرابلس ؟"
أجاب قائلا :" أقرب مدينة تبعد حوالى 20 ميلا .. ولكن يجب عليك المرور على منطقة تفتيش فرنسية ."
شعرنا بالانزعاج الشديد .. كنا نتخيل أننا وصلنا إلى طرابلس , ولكن ظهر الآن أننا فى منطقة

تقع تحت الحماية الفرنسية .. كان علينا الإسراع .
وبعد حوالى ستة أميال اختفى الطريق الرئيسي .. وصلنا إلى نقطة يتفرع فيها الطريق إلى ثلاثة اتجاهات .. ترددنا كثيرا فى أى اتجاه نسير .. ثم أخذنا الطريق الأوسط اعتمادا على الحظ ,وبعد خمس دقائق وفجأة شاهدنا أضواءا من جهة اليسار ورأينا مجموعة من الأكواخ الخربة .وسقطت أضواء السيارة على مبنى فى الأمام .. كنا نقترب من المبنى ببطء عندما سمعنا صوتا فى الظلام يقول :" توقف !"
توجهنا بالسيارة نحو مصدر الصوت , فشاهدنا أحد العرب فى زى الجنود الفرنسيين وهو يصوب البندقية والسونكى نحونا .. توقفنا .. توجه نحونا الجندى قائلا :" إلى أين ؟"

شرحت له أننا فى طريقنا إلى طرابلس .. وبمجرد أن ذكرت ذلك أخرج صفارة من جيبه ونفخ فيها مرتين .. وعلى الفور ظهرت مجموعة من الجنود العرب يقودهم رقيب ممتلئ الجسم .. أحاطوا بنا وأمرونا بمغادرة السيارة .. أخذ الرقيب يتفحص جوازات سفرنا .. وبعد فترة

قال لنا :" ليس أمامكم سوى الاعتراف .. إن جوازات سفركم هذه مزورة ."

أخبرته أن جوازات السفر غير مزورة .. واعترض تاربوكس وقد تملكه الشعور بالزهو كمواطن أمريكى. لم يقبل الرقيب أى تفسيرات أو تبريرات .. بل أصر على رأيه .. لقد اقتنع أننا جواسيس إيطاليين فى زى عربى . اتصل هاتفيا بالمدينة التى كنا تركناها للتو , فطلبوا منه إعادتنا إليهم . عدنا إلى المدينة وسمحوا لنا بالإقامة فى فندق بعد وضع حراسة على باب الحجرة . وفى الصباح استدعينا للمثول أمام السلطات العسكرية .. تفحصوا جوازات السفر فلم

يجدوا فيهما شيئا .. وأخيرا سمحوا لنا بالعبور إلى طرابلس .. وعندما حان وقت الدخول إلى منطقة الجمارك .. انتابنا القلق الشديد خشية أن يقوموا بمصادرة السيارة .. ولكن سارت الأمور على أفضل ما كنا نتمنى .. قلت لمفتش الجمارك أننا لم نصادف أية مناطق جمركية فى طريقنا إلى هنا . قام مفتش الجمارك بكتابة بعض الأوراق , وكتب فى كثير من السجلات , ولصق بعض الطوابع على أوراقنا ثم أعطانا إياها بعد أن دفعنا غرامة قدرها 12 فرنك .

عدنا مباشرة إلى الحدود .. هذه المرة كانت معنا أوراقنا الثبوتية ليسمح لنا بالمرور .

أخذ الرقيب يتفحص التصريح من وراء نظارته , وعندما انتهى نظر إلينا قائلا :" لقد كنتما محظوظان أننا لم نسمح لكما بالمرور عبر الحدود أمس ."

وعندما سألته عن السبب قال :" إن الإيطاليين على الجانب الآخر من الحدود لا يسمحون لأى شخص بالمرور أثناء الليل .. إنهم يقومون بإطلاق النيران فورا إذا أحسوا بأى خطر ."

تلقينا هذه المعلومات من الرقيب وبدأنا السير فى الممر الضيق متجهين نحو طرابلس . سرنا لوقت طويل بين الحشائش والرمال العميقة .. كان الطريق يوصل إلى الشاطئ تقريبا .. كانت الجوارح تحلق فوقنا فى السماء .. ولكننا لم نر من البشر أحدا .

وبعد مرور حوالى الساعة , وصلنا إلى حصن على الجانب الأيسر من الطريق , وقد بدأ الطريق يتحسن قليلا .. وبعد قليل شاهدنا صاريا يحمل العلم الإيطالى .. ويعلوه نسر رومانى .

اعترض الطريق حاجزا عليه لوحة مكتوب عليها " توقف" . توقفنا وسرعان ما اندفعت مجموعة من الجنود العرب فى زى إيطالى من الحصن, وصاحوا فينا كى نتوجه ناحية اليسار

فى اتجاه الحصن . وهناك وجدنا ثلاثة من الضباط الإيطاليين وقد فرغوا لتوهم من تناول الطعام .. كانت معنوياتهم مرتفعة وأمزجتهم معتدلة بعد أن شربوا ما يكفيهم من الشانتى وهو نوع من الخمور الإيطالية لايستغنى عنه الإيطاليون .

وعند وصولنا إلى المدخل .. تجهمت وجوههم .. وتوجه قائدهم نحو السيارة قائلا بالإيطالية :" هل أنت إيطالى ؟"

قلت له أننى أفهم الإيطالية بصعوبة .. وأننى أتحدث الفرنسية .

تجهم أكثر ثم قال :" إننا نتحدث الإيطالية هنا ."

ولحسن الحظ كان أحد الضباط يتحدث الفرنسية , فقام بعملية الترجمة .

بدأ الحديث قائلا :" لقد أتيت من تونس وأنت فى طريقك الآن إلى طرابلس .. هل تسمح لى بالإطلاع على جوازات السفر ؟"

أعطيته جوازات السفر وتصريح السفر بالسيارة , فاخذ يقلب فى الأوراق بعين فاحصة .. ثم سألنى :" هل لديك تصريح بمغادرة طرابلس ؟"

فاعترضت قائلا :" ولكن لم يسبق لى أن زرت طرابلس من قبل ."

أخذ يحك ذقنه وهو يقلب فى صفحات جوازات السفر , وقال :" ولماذا لم تقل ذلك من أول الأمر ؟" ثم نظر إليّ وسألنى :" هل أنت أمريكى ؟"

قلت له :" لا .. إننى دانمركى ."

رد قائلا :" وإلى أين أنت ذاهب ؟"

قلت :" إلى مدينة طرابلس ."

قال :" وبعد ذلك ؟"

قلت له :" سأتوجه من هناك إلى مصر ."

رد ساخرا :" فى هذه السيارة ؟ " وابتسم وضحك الضباط جميعا . فى الحقيقة لم يكن منظر السيارة يوحى أننا يمكن أن نقطع بها تلك المسافات الشاسعة .

قال الضابط :" لن يسمح لك بأية حال من الأحوال مغادرة طرابلس ."

قلت له :" هل نستطيع أن نواصل سيرنا فى الحال ؟"

قال :" لا .. عليك بالانتظار ."

تركونا فى السيارة فى وسط الفناء .. لم يهتم أحد بوجودنا .. ولم يعيرنا أحد أى اهتمام .. وكانت جوازات السفر مازالت فى مكتب القائد .

مرت ساعات وبدأنا نشعر بالعطش .. طلبنا بعض الماء .. كان من الصعب الحصول عليه .. وغربت الشمس . بدأنا نقنع أنفسنا بضرورة قضاء الليلة فى الحصن .. وأخيرا ظهر الضابط الذى يتحدث الفرنسية فى الساعة السابعة .. اقترب منى وقال :" يرجع الفضل لى فى السماح لكم باستمراركم فى رحلتكم .. واجهت الكثير من المصاعب .. ولكننى نجحت فى الحصول لكما على التصريح بالمرور .. تفضلا معى .. ! "

مررنا من البوابة .. كان عليها لوحة من الرخام مثبتة فى الجدار مكتوب عليها :" تخليدا للسرية التاسعة– 17 أبريل1912– قتل فى المعركة هنا فى ساحة الشرف الضباط التالى أسماؤهم ..."

اصطحبنا الضابط إلى مكتب الكومندان .. انتظرنا لمدة خمس دقائق .. بعدها عاد الضابط ومعه أحد الجنود يحمل بندقيته الطويلة .
قال الضابط :" سوف يصطحبكم هذا الجندى إلى سوارا , وسوف يقوم بتسليمكم إلى القائد هناك .. وسوف يحدد إذا ما كان سيسمح لكما بالسفر أم لا ."
قال الضابط ذلك , ثم أعطى الجندى عشر طلقات .. وضع الجندى اثنين منهما فى البندقية والباقى وضعها فى حزامه .
أصابنى الرعب الشديد , فسألت الضابط :" هل نحن مقبوض علينا ؟ "
قال الضابط :" نعم .. إنكم رهن الاعتقال حتى تقابلا القائد فى سوارا , بعد ذلك فإنكم أحرار فيما تفعلون ."
سألته وما زال شعورى بالرعب قائما :" ولماذا أعطيت الجندى ذخيرة ؟"
رد قائلا :" هذا هو القانون هنا .. وعليكما بطاعة القانون طالما أنكما هنا ."
قدنا السيارة إلى سوارا .. كا الطريق جيدا .. جلس الجندى بجانبى بينما جلس تاربوكس فى المقعد الخلفى .. ظل الجندى طوال الطريق يغنى تارة بالعربية وتارة أخرى بالإيطالية .. وبين فينة وأخرى يخرج زجاجة خمر صغيرة من جيبه ويشرب منها القليل , ثم يضعها فى جيبه مرة أخرى .
وصلنا إلى سوارا ليلا .. أمرنا الجندى بالتوجه مباشرة إلى مكتب القائد . دخلنا إلى المكتب .. كان خاليا تقريبا .. وبعد حوالى عشر دقائق , وصل القائد وبصحبته أربعة ضباط .. لم يفهم أى
منهم لغة سوى الإيطالية , وبالطبع فشلنا فى التواصل معهم .. فطلبوا من أحد العرب أن يقوم بعملية الترجمة .. كان يعمل معلما فى المدينة .
سألنى القائد :" من أين أتيت ؟"
قلت له :" من تونس ."
سألنى :" وإلى أين أنت ذاهب ؟"
قلت له :" إلى طرابلس ."
سألنى :" ومن هناك ؟"
قلت :" سأتوجه إلى بنى غازى ."
سكت برهة ثم قال :" بالطبع لن تحصل على تصريح بذلك .. فليس هناك طريق بين طرابلس وبنى غازى .. لم يسبق أن سمحوا لأحد بالسفر إلى تلك المنطقة .. ماهى جنسيتك ؟"
قلت له :" تاربوكس أمريكى .. أما أنا فبلدى هى الدانمارك ."
رد مستغربا :" الدانمارك ؟ فى أى مكان تقع هذه البلد ؟ هل أنت عربى ؟"
قلت له :" لست عربيا .. أما الدنمارك فتقع فى الشمال من أوروبا ."
رد قائلا :" أنا لم أسمع بها من قبل .. ولكن لماذا تتحدث العربية وترتدى اللباس العربى ؟"
قلت له :" لأننى أريد أن أتعرف على سكان شمال أفريقيا .. كما أننى أعتنق الإسلام ."
رد قائلا :" وهل اعتنقت الإسلام لأسباب سياسية ؟"

قلت له :" بالطبع لا .. لقد اعتنقت الإسلام لأننى أعتقد أنه الدين الصحيح ."
رد قائلا :" حسنا .. سوف نسمح لك بالسفر إلى طرابلس , ولكن عليك أن تسجل اسمك فى قسم الشرطة بمجرد وصولك .. وسوف يقررون هم الخطوة التالية ."
حصلنا على جوازات السفر بعد أن وضعوا عليها الأختام .. تركنا الجندى المعين لحراستنا وعاد أدراجه .. كان عليه أن يعود سيرا على الأقدام لمسافة اثنى عشر ميلا .. أما المعلم الذى قام بعملية الترجمة فقد دعانا إلى منزله .
كان يدعى إبراهيم عبد الكريم .. وكان يمتلك منزلا كبيرا فى قلب سوارا . كان الجو باردا أثناء الليل .. دخلنا إلى حجرة وجلسنا .. كان هناك مدفاة فى أحد أركانها .. كانت دواوين الشعر تغطى الجدران .. وبعد لحظات أحضر أحد الخدم الشاى .
بدأ ابراهيم حديثه معى قائلا :" سمعت أنك مسلم .. فهل هذا صحيح ؟"
قلت :" نعم .. أنا مسلم ."
رد قائلا :" إنه لمن دواعى سرورى أن أستقبلك فى بيتى .. وهل صديقك مسلم أيضا ؟"
قلت له :" لا .. إنه لايعرف شيئا عن الإسلام حتى الآن ."
سألنى :" وهل هناك الكثير من المسلمين فى أوروبا ؟"
قلت له :" نعم .. هناك عدد غير قليل من المسلمين فى إنجلترا وألمانيا."
أتى بعض العرب للزيارة.. تعارفنا وجلسنا سويا حول المدفأة نتجاذب أطراف الحديث .. كان أحد الزوار مصاب بندبة فى وجهه .
أشار إليّ إبراهيم قائلا :" إن زائرنا مسلم ."
نظر إليّ الضيوف باهتمام .. نظر إليّ صاحب الندبة قائلا :" إذا سيكون من الصعب عليه التوجه إلى طرابلس ."
رد إبراهيم:" لا أعتقد ذلك ."
رد الضيف :" إننى أخالفك فى الرأى ياإبراهيم ." قال ذلك والمرارة فى كلماته .
ثم اضاف قائلا:" لقد استسلمت طرابلس كلها .. أما الذين لم يستسلموا فإنهم لا يتكلمون ."
سألته بسذاجة :" ولماذا ؟"
رفع الضيف صاحب الندبة بكلتا يديه ووضعهما حول رقبته وقال :" لهذا السبب لا يتكلمون .. سوف تنعم بالهدوء والسلام فى طرابلس ."
أشار إليه إبراهيم كى يصمت .. وغيرت موضوع المناقشة إلى موضوع آخر ..
قلت لهم :" لقد أتينا بالسيارة ونعتزم أن نواصل الرحلة إلى برقة وبنى غازى ."
نظر إليّ صاحب الندبة وقد تملكته الدهشة قائلا :" إن الحرب مازالت دائرة فى برقة ولن تستطيع أن تمر بين الجبال ."
سألته :" ومنذ متى وهذه الحرب دائرة ؟"
رد قائلا :" ثمانية عشر عاما ." وأشار إلى الندبة التى على وجهه وقال :" إن الحرب انتهت هنا الآن .. إننى أتذكر عندما شن أنور باشا الحرب ضد الإيطاليين .. وكما ترى على وجهى .. لقد كنت هناك بنفسى ."
سألنى إبراهيم بتوتر :" وأين تعلمت اللغة العربية ؟"

قلت له :" لقد تعلمت اللغة العربية فى مراكش ."
قال معلقا :" أستطيع أن أتبين ذلك من اللكنة التى تتحدث بها .. إنها لكنة أهل المغرب .. وهل مازال عبد الكريم يقاتل هناك ؟"
قلت له :" لا .. لقد توقفت الحرب هناك منذ مدة طويلة .. أما عبد الكريم فهو رهن الاعتقال فى سجن إحدى الجزر أمام ساحل المغرب ."
تنهد صاحب الندبة وقال :" نعم .. سوف يحدث ذلك فى كل مكان إلا إذا توحدنا هكذا ." قال ذلك وهو يضم يديه بشدة إلى بعضها . وفى هذه اللحظة .. أحضروا الطعام على صينية من النحاس .. كانت هناك أصناف كثيرة فى أوانى صغيرة .
كان الجوع قد بلغ منا مبلغه .. أكلنا حتى الشبع .. لم يتناول أحد الطعام معنا سوى ابراهيم .. أما الآخرين فقد اكتفوا بشرب الشاى والتدخين .
بعد أن فرغنا من تناول الطعام , تواصل الحديث فيما بيننا , وقبل أن نخلد إلى النوم اقترب منى صاحب الندبة وهو يهمس فى أذنى قائلا :" إنك صحفى .. رجاءا أن تسألهم فى أوروبا لماذا يأتون إلى بلادنا ويفرضون علينا ثقافة لانقبلها .. وبأى حق ؟ .. أرجوك أن تسألهم لو انقلب الحال وذهبنا نحن إلى بلادهم ذات يوم ونحن نحمل المدافع الرشاشة وقلنا لهم نحن الحكام الشرعيون هنا ..وأى شخص لايعترف بذلك سوف نعتبره متمردا ."
صمت برهة ثم ضغط على أسنانه قائلا :" إنهم يعاملوننا هنا فى بلادنا كالكلاب .. بل أسوأ من الكلاب.. " ولم يكمل كلامه ورحل الجميع .
نظر إليّ إبراهيم قائلا :" أرجوك لاتفكر فيما قاله سيدى حسين .. لم يكن يقصد كل ماقاله ."
نظرت إليه ثم قلت له ببساطة :" أنا لن أنسى قواعد وأصول الضيافة .. إننى لن أتحدث مطلقا عما شاهدت أو سمعت ."
نظر إبراهيم إليّ .. شد على يدى ثم خرج .. خلدنا إلى النوم على الأرائك .. كان نوما هادئا .
وفى صباح اليوم التالى .. ألح علينا إبراهيم بالبقاء معه فى منزله , ولكن كان علينا أن نواصل السير .. كان أمامنا حوالى 75 ميلا حتى نصل إلى مدينة طرابلس .. كان علينا أن نسرع حتى نصل فى نفس اليوم .
كان الطريق بين سوارا وطرابلس طريقا رائعا .. كان أفضل من الطرق فى أوروبا .. كان مغطى بالأسفلت .. واسعا ولكن لم تكن عليه حركة كثيفة .
قدت السيارة بسرعة ستين ميلا فى الساعة .. لم نر أثناءها بشرا إلا عندما اقتربنا من طرابلس . وفى اليوم السابق لوصولنا كان هناك معرضا لقوات الاحتلال الإيطالى يقدمون فيه معلومات عن إيطاليا الجديدة وعن الدولة الرومانية بقوتها وعظمتها .. كانت الأعلام الإيطالية بألوانها الثلاثة ترفرف على جميع المبانى الحكومية .. كان الجنود الإيطاليين الشبان من ذوى القمصان السوداء يسيرون فى مسيرات فى الشوارع وهم يتغنون بالسلام الفاشي .. كان رمز الفاشية موجودا فى كل مكان ومكتوبا تحته " إيطاليا الجديدة بقيادة موسولينى " كانت صورته وهو يرتدى الزى

الأسود معلقة فى كل مكان .. وتحتها الكثير من الجماجم .. ومكتوب عليها " من ليس معنا فهو ضدنا ."
عندما تصل إلى طرابلس برا , فإن أول ما تراه هو الحى الأوروبى الإيطالى .. وهو منفصل تماما عن المدينة وعن الحى العربى وعن الحى اليهودى .
كان الجزء الحديث من المدينة يبدو وكأنه مسرح كبير تم بنائه على عجل .. ولكنه كان يبدو رائعا .. كانت المبانى يعلوها الرخام والنحاس . . والفنادق رائعة بواجهاتها الزجاجية ومصاعدها الفخمة وأبوابها المتحركة .. كانت تضاهى أفضل فنادق أوروبا , أما المحلات فقد كانت حديثة ورائعة .. كان كل شئ جديد .. كان من الصعب علينا أن نصدق ما نراه بأعيننا .
كانت الصحراء الليبية تحيط بمدينة طرابلس .. تمتد رمالها ميلا بعد ميل .. كان هناك القليل من الواحات .. يتنقل البدو فيما بينها بحثا عما يعينهم على الحياة .
كان المرء يتساءل كيف يمكن لهذه الصحراء الجرداء بصخورها وحشائشها أن تعطى طرابلس كل هذه الثروات التى نراها !!
كنا نسير فى الشارع الرئيسى بالسيارة نحو مركز المدينة , عندما أوقفنا أحد رجال الشرطة , كان يرتدى خوذة بيضاء – على الرغم من برودة الجو – ويرتدى قفازات بيضاء.. أوقفنا
قائلا :" سنيور .. إن قيادة السيارة فى الشارع الرئيسى ممنوعة منعا باتا اليوم .. لأن الموكب على وشك الوصول . "
توجهنا بالسيارة إلى إحدى الشوارع الجانبية , حيث بدأ المنظر يختلف اختلافا بينا عما شاهدناه من روعة فى الشارع الرئيسى .
قال تاربوكس :" إننى متعب للغاية .. ما رأيك لو توجهنا إلى أحد الفنادق الفخمة .. كى نستحم
ونحظى بقدر من الراحة ؟"
شعرت بالسرور لاقتراح تاربوكس .. وبالفعل وصلنا إلى فندق البرجو الوطنى أكبر فنادق طرابلس , بعد أن توقفنا أكثر من عشرين مرة لنسأل عن الطريق .
استقبلنا الحمال بالتحية الفاشية .. بأن رفع إحدى ذراعيه إلى أعلى , وحيتنا السيدة التى استقبلتنا بنفس الطريقة . تناقشنا معها على سعر الحجرة .. وحضرت إحدى الخادمات لتصطحبنا إلى الحجرة بعد أن حيتنا بنفس الطريقة الفاشية .. كان الجميع يتبع نفس الطريقة فى التحية .. كانت طرابلس كلها مسممة بالفاشية .
على الرغم من أننا كنا فى الساعة الثامنة .. كان الفندق يعج بالصحفيين .. كان معظمهم من الإيطاليين والألمان .. حضروا خصيصا لحضور المعرض .
ارتدينا بعض الملابس اللائقة النظيفة بعد عناء السفر .. وأودعنا السيارة فى الجراج .. وخرجت أنا وتاربوكس لمشاهدة المعرض . امتلأ الشارع الرئيسى عن آخره بالناس .. أتى كل واحد وهو يرتدى لباسه الخاص .. العرب يرتدون الطرابيش بألوانها الحمراء ويتدلى منها مجموعة من الخيوط الزرقاء .. البدو ببشرتهم السمراء التى اكتوت من أشعة الشمس .. أتى اليهود وقد علتهم القذارة وهم يرتدون القفطان ويضعون القلنسوات على رؤوسهم .. نساء عربيات محجبات.. نساء يهوديات حوامل

وحولهن أطفالهن .. كل يحاول الركوب على أكتاف الآخر حتى تتاح له مشاهدة الاستعراض .. كان هناك أيضا الشحاذون الإيطاليون .. وقفوا فى تعالٍ .. فقد اعتبروا أنفسهم أفضل من يقف فى الشارع .. وأخيرا بعض الأطفال من العرب

وهم يرتدون الطرابيش البيضاء والحمراء .
كانت الشمس ساطعة .. وقف رجال الشرطة بعصيهم البيضاء فى صفوف , يحاولون دفع الجماهير المحتشدة إلى الخلف .. وبدأت الموسيقى تتردد على مسامعنا وهى تعزف المارش الفاشى .. بدأ الإيطاليون فى التهليل وقد تملكهم الحماس .. بينما التزم العرب الصمت .. وصلت أول فرقة وهى تحمل أربعة رايات ممزقة فى الأمام .. كانت هذه الرايات من واحتى مرزوق وفزان .. فى أقصى الجنوب من طرابلس .. كان فيها مجموعة من البدو أسكتها الإيطاليون بقنابلهم ومدافعهم الرشاشة .
التهبت أيدى الإيطاليين بالتصفيق وانطلقت حناجرهم بالهتاف , عندما ظهرت الرايات ومكتوب عليها " عاشت إيطاليا .. عاش موسولينى " . بدأت أيادى العرب ترتفع حياءا أو خوفا حيثما كانت أيادى اليهود مرتفعة منذ فترة طويلة وهم يرددون :" عاش العلم الإيطالى .. عاش العلم الإيطالى .. لقد عدنا إلى مستعمرتنا القديمة .. ليبيا ."
وقف العرب فى صمت .. وقد رفعوا أيديهم قليلا .
مرت الفرقة الموسيقية .. تبعتها فترة من الهدوء .. كنت أقف فى الصف الأول بجانبى تاربوكس .. ومن الناحية ألخرى وقف جندى إيطالى .. كان طويل القامة .. أشقر الشعر .
سألته بإيطالية ركيكة :" واين ستكون الاحتفالات الكبرى ؟"
نظر إليّ الجندى وسألنى بالألمانية :" هل أنت ألمانى ؟"
قلت له :" لا "
قال لى :" إن الفرقة الموسيقية كانت متجهة إلى المعرض فى ضواحى المدينة ."
ثم أضاف قائلا :" كما ترى .. أنا من بوزان ."
لم أكن أعرف تلك المدينة التى ذكر اسمها .. وربما أحس هو بذلك , فقال :" إنها تسمى بولزانوا الآن .. إنها مدينة فى تيرول ."
فهمت ما قاله وسألته :" والآن .. هل أنت جنديٌ فى الفيلق الأجنبى هنا ؟"
رد بالنفى قائلا :" لايوجد فيلق أجنبى هنا .. هناك فرق إيطالية وأنا جندى فى إحداها ."
سكت لبرهة ثم سألنى :" هل حضرت خصيصا لمشاهدة العرض ؟"
أجبته بالنفى قائلا :"لا .. إن وجودنا اليوم هنا هو صدفة بحتة ,إننا فى طريقنا إلى بنى غازى."
رد وقد علته الدهشة :" إلى بنى غازى ؟ .. وما موعد إبحار سفينتكم ؟"
قلت له :" إننا مسافرون بالسيارة ."
سألنى :" وهل لديك تصريح بالسفر إلى بنى غازى ؟"

قلت له :" لا.. ليس بعد .. إن جميع المكاتب مغلقة اليوم .. ستسير امور على ما يرام ."
رد قائلا :" لا أعتقد ذلك .. وصل أمريكيان إلى هنا مؤخرا , وأرادا السفر فلم يصرحوا لهم بذلك .. واضطرا إلى شحن سيارتهما بالباخرة إلى الإسكندرية , وعلى قدر علمى فلم يسافر شخص بالسيارة إلى بنى غازى .. إننى أعتقد أن ذلك أمر مستحيل ."
سألته مستغربا :" ولماذا ؟"
هز كتفيه وقال :" الطريق غير ممهد لسير السيارات .. كما أن البدو ليس من السهل التعامل
معهم .. إذا أمسكوك فإنهم يقيدونك فى السيارة ويشعلون النار فيها .. وقد يحدث أسوأ من ذلك."
قلت له :" لايمكن أن يكون الأمر بهذا السوء كما تقول .. لسنا فى حالة حرب مع البدو .. كما أننى أستطيع التحدث باللغة العربية ."
ابتسم ابتسامة ساخرة ثم قال :" من الواضح أنك لا تعرفهم حق المعرفة .. إن البدو فى الصحراء الليبية يختلفون اختلافا كبيرا عن البدو فى الصحارى الأخرى .. إن البدو هنا كالوحوش .. أستطيع أن أحكى لك الكثير من القصص عن فظاعتهم . . لقد كانوا يقومون بتعذيب الضباط الإيطاليين الذين يقعون بين أيديهم .. لن تنفعك لغتك العربية عندئذ .. لقد قتلوا الكثير من الجنود العرب .. كانوا يتحدثون بلغتهم ويدينون بدينهم ."
هز رأسه وأضاف قائلا :" إن البدو متعطشون للدماء ولايعرفون الرحمة .. لن أسافر أبدا عبر الصحراء إلى بنى غازى ."
سألته :" وهل قاتلت البدو فعلا ؟"
أجاب :" نعم .. لقد سبق لى القتال ضدهم ."
وفى هذه اللحظة سمعنا أصوات الطبول من على بعد .. وظهر بعض الفرسان وهم يرتدون ملابس العصور الوسطى .. وبمجرد ظهورهم بدأ الإيطاليون فى التهليل .
جلس المارشال بادوجيليو حاكم طرابلس فى عربة المقدمة .. تتبعه فرقة موسيقية تعزف المارش الفاشى .. كان المارشال ينحنى ويحيى الجماهير على جانبى الطريق .
سارت السيارات الواحدة تلو الأخرى .. وأخيرا وصل الصحفيون فى سيارة خاصة .. كانوا
يرتدون ملابس المهرجان المزينة وجوارب حرير .. ويرتدون أحذية جلدية .. يجففون جباههم ووجوههم الشاحبة من العرق . . لم يكونوا قد اعتادوا على جو إفريقيا الحار .
عندا انتهى الموكب , ذهبت أنا وتاربوكس والجندى إلى إحدى المقاهى بالقرب من الفندق , وبمجرد جلوسنا بدأ الجندى يحكى عن مغامراته .

بدأ حديثه قائلا :" إننى أعرف هؤلاء البدو جيدا .. إنهم يقاتلون كالشياطين ويقودهم شيخ غريب يدعى عمر المختار .. عمره سبعين عاما .. دائما يمتطى صهوة جواده .. وعندما نظن أنه يختبئ فى مكان ما .. ونظن أننا أمسكنا به .. يختفى فجأة ."
أفرغ فنجان القهوة فى جوفه والتهم قطعة من الكيك واسترسل يقول :" لقد كنت هناك عندما كنا على وشك الإمساك به , كنا قد استولينا على إحدى الواحات .. لم يكن فيها رجل واحد .. أخفينا الجمال .. واختبأنا .. وكنا على أهبة الاستعداد للهجوم عليهم عند رجوعهم .. ولكنهم أحسوا بوجودنا هناك ."
سألته :" ولكن كيف أحسوا بذلك ؟"
هز كتفيه قائلا :" وكيف لى أن أعرف ؟ كنا قد حبسنا النساء فى المنزل ووضعناهن تحت الحراسة .. ولكن يبدو أن إحداهن نجحت فى الهرب .. لقد هجم علينا البدو واشتعلت نيران المعركة بيننا وبينهم .. كنا مسلحين بالمدافع الرشاشة .. أما هم فقد كانوا مسلحين ببنادق عتيقة .. هزمناهم هزيمة منكرة .. حاولوا الهرب على ظهور الخيل , فطاردناهم بالسيارات .. كيف حدث ؟ لا أعرف .. أخبرنا أحد الجنود أن عمر المختار كان بين البدو الذين كانوا يحاولون
الهرب .. فاشتد حماسنا للإمساك به ."
توقف لفترة كمن كان يريد أن يسترجع كل شئ من ذاكرته , واستطرد يقول :" كانت الصحراء حول الواحة منبسطة .. والأرض صلبة كالطريق السريع .. كان من السهل علينا قيادة السيارات بسرعة ونحن نطارد فلولهم .. كنا نطلق مدافعنا الرشاشة تجاههم .. وفجأة رأينا
عمر المختار .. كان يمتطى صهوة جواد رمادى اللون .. تعرف عليه أحد الجنود .. فأطلقنا عليه الرصاص فسقط من على الجواد .. أسرع إليه أحد البدو وترك له جواده ووقف هو يقاتل .. بينما هرب الآخرون .. سمعت بعد ذلك أن عمر المختار أصيب فى ذراعه ."
سألته : " وماذا حدث للبدوى الذى أعطى عمر المختار جواده ؟ "
أشار إلى الأرض وقال :" أعتقد أنه فى جهنم الآن .. كان من المتمردين فاستحق الشنق ."
لم أستطع أن أتمالك نفسى فقلت له :" ولكن هؤلاء البدو ليسوا متمردين , إنهم يدافعون عن وطنهم ."
رد قائلا :" لن تقول ذلك إذا قابلت أحدهم .. أنا من بولزانو ولكننى إيطالى .. لقد عقدنا اتفاقية مع الأتراك عام 1912 .. أصبح حكم ليبيا بموجبها من حقنا .. وعلى الشعب الليبي التسليم بذلك وإلا لن نعفوا عنهم ."
دفعت ثمن القهوة وقبل أن يرحل الجندى نظر إليّ قائلا :" سوف ترى كل ذلك بنفسك إذا حصلت على تصريح بالسفر , وأعتقد أنك لن تنجح فى ذلك ."
تجولت أنا وتاربوكس طوال المساء فى الحى العربى .. ففى قلب طرابلس تشعر أنك أقرب
ما تكون إلى الشرق .. فالعادات كانت كلها عربية وشرقية .. على عكس ما شاهدناه فى المغرب والجزائر .. هنا كانوا يجلسون على المقاهى يدخنون الأرجيلة .. التى لم

تكن معروفة هناك . استبدل الناس هنا بالعباءة المغربية شالا يلفونه حول الجسم , أما البنطلون المغربى فإنه يختلف اختلافا كليا عن البنطلون هنا .. فهو قصير وألوانه زاهية فى المغرب , أما هنا فهو طويل ولونه أبيض . أما عن أزياء النساء فهى واحدة هنا كما فى أقصى الغرب .. ولكن النساء اللائى ينتمين إلى الطبقة الراقية فى المجتمع فيرتدين نصف الحجاب التركى الشفاف .. والذى يغطى الجزء الأسفل من الوجه .. ولكن بصفة عامة ترتدى معظم النساء غطاء يغطى وجهها تماما عدا فتحة صغيرة للعينين .

كان النشاط يدب فى الشارع الذى تملؤه محلات الخياطين .. فلربما كانت هذه آخر ليلة فى رمضان ويليها عيد الفطر .. وفيه يرتدى الجميع الملابس الجديدة . لم يكن أحد يعرف بالتحديد متى ينتهى شهر رمضان .. ففيه يصوم المسلمون حتى يشهد اثنان من الرجال أنهما شاهدا هلال الشهر الجديد .. شهر شوال .. عندئذ يحتفل المسلمون بقدوم العيد .

بدأ المساء .. كانت الجمال والحمير تسير فى شوارع السوق الضيقة وهى تحمل البضائع .. كان الجميع فى انتظار سماع طلقة المدفع إيذانا بإنتهاء الصيام فى ذلك اليوم .

أخيرا انطلق المدفع وارتفع الحمام من فوق مئذنة المسجد .. صاح أحد العرب المسنين :" أتمنى أن يكون اليوم هو آخر أيام شهر رمضان ."

وسرعان ما خيم الظلام واحتشد الناس فى الشوارع وعلى أسطح المنازل يتطلعون إلى السماء

محاولين رؤية الهلال إيذانا بقدوم العيد , كان كل واحد يحدوه الأمل فى أن يكون أول من يشاهد القمر .

قال أحد الشباب العرب الواقفين بجوارى وهو ينظر إلى السماء :" لابد أن يظهر هلال شوال الليلة ."

مرت الساعة تلو الأخرى .. وظن الناس أن رمضان سيمتد يوما آخر.. عندما انطلقت صيحة تقول :" الأحمر .. الأحمر .. القمر .. القمر ." كانت هذه نهاية شهر رمضان .. وبدات الإحتفالات .. أخذ الناس يرقصون ويغنون فرحا بقدوم عيد الفطر .

عدت أنا وتاربوكس إلى الفندق .. وهناك قابلنا بعض الصحفيين الذين دعتهم الحكومة الإيطالية لمشاهدة طرابلس .. والمعرض .. كانوا سيزورون بعض الزراعات إلى الجنوب خارج طرابلس فى اليوم التالى .

كنا نشعر بالتعب والارهاق بعد هذا اليوم الطويل .. آوينا إلى الفراش .. كانت أول ليلة مريحة نستمتع بها بدفئ الفراش . استيقظنا مبكرا فى صباح اليوم التالى .. كان أمامنا الكثير المطلوب إنجازه . . كان علينا شراء خيمة .. حتى لانستمر فى الاعتماد على الفنادق أو نضطر للنوم فى السيارة . تجولنا فى المدينة وأخيرا وصلنا إلى أحد محلات اليهود يبيع الأشياء المستعملة .. وجدنا إحدى الخيام العسكرية المستعملة.. كانت تفى بالغرض .. جادلناه فى السعر ونجحنا فى الحصول عليها مقابل مائة ليرة بدلا من خمسمائة ليرة كان يطلبها. وفى نفس اليوم قررت أن نبحث عن مكان نقيم فيه الخيمة .

انتصف النهار .. انتهينا من شراء ما نحتاجه . . ثم حان وقت أصعب مهمة أمامنا .. الحصول على تصريح بالسفر إلى بنى غازى .
ذهبنا إلى القنصلية الدنماركية .. قابلنا أحد التجار الإيطاليين وكان يدعى فازورو .. كان فاشيا .. وقد اندهش كثيرا عندما أخبرته أنه من السهل فى الدنمارك أن تتحدث بالهاتف مع أحد الوزراء أما الأمر فى ليبيا فمختلف تماما.. كل واحد هنا كان يعتبر نفسه من أصحاب السعادة .. حتى القنصل فازورو نفسه يوقع على الأوراق " صاحب السموالملكى قنصل الدنمارك "
ولكن القنصل فازورو بذل كل ما فى وسعه لمساعدتى . . فقد ذهب معى إلى مبنى الحكومة .. وتحدثنا مع سكرتير المحافظ .. ولكن جاءت الإجابات دائما غير مشجعة على الإطلاق .. كنا نقابل بالرفض . قال السكرتير :" لقد أتى الكثير من الأمريكيين والفرنسيين يطلبون إذنا بالسفر , ولكننى أخبرتهم أن الحكومة الإيطالية تأسف أنها لاتستطيع منح أى إذن بالسفر .. نظرا لخطورة السفر . "
كانت هذه الإجابة غير مشجعة إطلاقا , ولكن السكرتير وعدنا بأن يعرض طلبنا على المحافظ , وعدت أنا والقنصل إلى القنصلية الدنماركية .
سألنى القنصل :" فى أى فندق تقيم ؟"
قلت له :" حتى الآن فى الفندق الوطنى .. ولكننا سوف ننتقل إلى خيمتنا الليلة ."
صاح مندهشا :" إلى أين ؟"
شرحت له قائلا :" إلى الخيمة .. لقد اشترينا خيمة وسوف نقيم فيها ."
كان من المستحيل أن تقنعه أن هناك أنماطا من الناس يتركون الفنادق ليعيشوا فى الخيام .. هز رأسه وهو يشك فيما سمع .
كان الحمال فى فندق البرجو الوطنى سويسريا من إحدى الولايات الإيطالية , وعندما عرف أننا تقدمنا بطلب للحصول على تصريح بالسفر بالسيارة , اكتفى بهز رأسه ونظر إلينا نظرة كلها شك فى أن ننجح فى مسعانا , وبادرنى بالقول عندما قابلنى :" عليك أن تتخلى عن الفكرة تماما .. قد يسمحوا لك بالسفر إلى سرت .. وليس أبعد من ذلك ."
لم تكن هناك بادرة تبعث على الأمل بعد كل ما سمعناه .. حزمنا أمتعتنا ووضعناها فى السيارة وغادرنا الفندق وتوجهنا نحو واحة قريبة على بعد ثلاثة أميال من طرابلس .. وهناك قضينا أول ليلة لنا فى الخيمة .
وفى صباح اليوم التالى بدأت أول متاعبنا مع الإقامة فى الخيمة .. كان على واحد منا أن يبقى بجانب الخيمة لحراسة متعلقاتنا .. ونظرا لأننى أستطيع التحدث بالفرنسية وقليل من الإيطالية .. كان على تاربوكس أن ينتظر طوال اليوم بجانب الخيمة .
وفى المساء قررنا أن نحاول أن نجد أحد الصبية من العرب حتى يقوم بحراسة متعلقاتنا حتى نتحرك أنا وتاربوكس سويا فى قضاء احتياجاتنا . وبالفعل فى اليوم الثالث عثرت على محمد وكان عمره حوالى اثنى عشر عاما .. كان لمحمد دور هام فى الأحداث التى مررنا بها

فيما بعد . كان بطرابلس سوقا كبيرا لبيع المواد الغذائية .. وكان الكثيرون من الصبية العرب يساعدون المتسوقين فى حمل بضائعهم نظير مبلغ من المال .. كانوا يجلسون فى جماعات
بالقرب من المحلات ويحملون السلال خلف ظهورهم فى انتظار المتسوقين .. وهم أثناء ذلك يلعبون بالحصى .. كان محمد من أمهر اللاعبين .
كان ملبسه بسيطا .. عبارة عن قميص طويل يصل إلى رجليه .. كان قذرا للغاية .. كان يرتدى طربوشا باليا على رأسه .. كان وجهه بشوشا .. عيناه سوداء يشع منهما الذكاء .. كان أول من رآنى عندما اقتربت من السوق .
بادرنى قائلا :" سنيور .. سنيور .. حما ل.. حمال ." قال ذلك وهو يدفع الآخرين بكلتا يديه .
قلت له بالعربية :" لست فى حاجة أن تتحدث إليّ بالإيطالية ."
نظر إليّ وقد علته الدهشة .. فلم أكن أرتدى اللباس العربى فى طرابلس .. ولم يكن هناك من الإيطاليين من يتحدث العربية . مال على بقية الصبية قائلا :" إنه يتحدث العربية ."
وكى أضيف إلى دهشته قلت له :" إننى مسلم أيضا .. مثلك تماما ."
كان ما سمعه محمد أكثر مما يحتمل .. نظر إليّ متوجسا .. ونظر إلى الصبية قائلا:" إنه يقول أنه مسلم ."
قلت له :" تستطيع مساعدتى فى حمل مشترياتى ."
وافق على الفور .. ولكنه توتر كثيرا عندما طلبت منه ركوب السيارة .. كانت أول مرة فى حياته يركب فيها سيارة .. ولكنه مع ذلك ركب السيارة .. وتوجهنا إلى الواحة حيث كنا نقيم .
كان تاربوكس فى انتظارنا .. امتلأ محمد حماسا عندما رأى الخيمة .. وأخبرنى أن والده كان شيخا عظيما .
توقف محمد لبرهة , ثم تنهد قائلا :" لقد أطلق عليه الإيطاليون الرصاص عندما استولوا على واحتنا ."
لم تكن هناك فرصة للاسترسال فى هذا الموضوع الشيق , سألت محمد إذا كان يمكنه حراسة الخيمة فى غيابنا ؟ فوافق على الفور وكله حماس .
سألته :" أين تسكن ؟"
هز كتفيه قائلا :" أماكن كثيرة ومختلفة ياسيدى .. إننى أعيش فى المكان الذى يرزقنى الله فيه .. ولكننى أحيانا أقيم مع عمى , إنه جندى فى الجيش الإيطالى , تزوج أمى بعد وفاة أبى .. أنا لا أحبه لأنه أحيانا يتكلم بطريقة سيئة عن والدى ."
سألته :" وماذا سيقول عمك إذا عشت هنا ؟"
قال محمد :" لاشئ .. إننى لا أذهب للبيت لأيام كثيرة لأنه يضربنى ."
اتفقنا فيما بيننا أن يظل محمد معنا ليحرس الخيمة . وفى اليوم التالى أخبرنى القنصل أنه عليّ الذهاب إلى مبنى الحكومة حيث سيتم مناقشة التصريح الخاص بنا . وعند وصولى إلى هناك دخلت إلى غرفة السكرتير, رحب بى وطلب منى الجلوس بعد أن أرسل من يحضر لى القهوة.

كان يطرق بأصابعه على المنضدة بعصبية ظاهرة .. وقال :" إننا نحب أن نعطيك تصريح بالسفر بالسيارة , ولكننى كما سبق وأخبرتك , الطريق خطر للغاية .. ولاتوجد لنا مواقع إيطالية كثيرة فى هذه الأنحاء .. من الممكن جدا أن تواجه متاعب وصعوبات جمة .. وإذا واجهتها من سيكون المسئول أمام حكومتك ؟ الحكومة الإيطالية ؟"
قلت له معترضا :" ولكننى أنا وتاربوكس على استعداد تام لتحمل المسئولية تجاه أنفسنا ."
رد بسرعة :" ولكن ذلك لايكفى .. أولا يجب أن تكون ممن يستطيعون تحدث العربية ."
قلت له بحماس :" إننى أتحدث العربية ."
نظر إليّ السكرتير وقد فوجئ بما قلت .. ولكنه استرسل بعصبية قائلا :" على أية حال .. إننا لانستطيع إعطاءك هذا التصريح .. لقد طلب منى رئيسى أن أخبرك بذلك ."
قلت له :" ولكن هل يمكنك أن تحدد لى موعد للقاء رئيسك مسيو لوكوند ؟ قد أستطيع إقناعه ." سكت السكرتير لفترة , ثم رفع سماعة الهاتف وتحدث لمدة دقيقة , ثم وضعها ونظر إليّ
قائلا :" إن سعادة نائب المحافظ مسيو لوكوند , سوف يقابلك لمدة خمس دقائق فقط ."
كان مسيو لوكوند طويل القامة .. كان بذراع واحدة .. فقد بترت ذراعه الأخرى أثناء اشتراكه فى الحرب العالمية .. كان مثقفا للغاية .. يتحدث خمس لغات بطلاقة .. بما فيها اللغة العربية .
عندما دخلت إلى حجرته أخذ ينظر إليّ .. قدم لى سيجارة ثم قال بهدوء :" أعتقد أن السكرتير قد أخبرك عن أسباب عدم استطاعتنا منحك التصريح بالسفر بالسيارة إلى برقة ."
قلت له :" ولكننى عرفت أيضا أن السبب فى ذلك أننى لا أتحدث العربية ولكننى أستطيع التحدث بالعربية بطلاقة ."
عقب ذلك الحوار اختبار صعب باللغة العربية , فبعد أن كان الحوار بيننا باللغة الفرنسية أصبح الآن يدور باللغة العربية .. وسرعان ما أظهر نائب المحافظ رضاه .
قال لى :" إذا وقعت أنت وصديقك الأمريكى على تعهد ينص على أن الحكومة الإيطالية
لاتعتبر بأية حال من الأحوال وتحت أى ظرف , مسئولة عما قد يحدث لكما .. فى هذه الحالة يمكننى الحصول لكما على التصريح . ولكن فى هذه الحالة سوف تضطر للانتظار بضعة أيام.
هناك حكومتان .. واحدة فى طرابلس والأخرى فى برقة .. كما يجب أن أحصل على إذن من بنى غازى بذلك ."
عبرت له عن عظيم شكرى وامتنانى لذلك . وعدت وقد انفرجت أساريرى إلى تاربوكس ومحمد فى الخيمة , أزف له البشرى .

اضطررنا للانتظار بضعة أيام .. ذهبنا إلى مركز الشرطة حيث وقعنا التعهد االذى كان نصه كما يلى :

" نقر نحن الموقعان أدناه روسكو د . تاربوكس وكنود هولمبو أن الحكومة الإيطالية لا تتحمل أدنى مسئولية تجاهنا أمام حكومتينا فى حالة حدوث أى مكروه لنا أثناء رحلتنا بالسيارة من طرابلس إلى بنى غازى وتعتبر الحكومة الإيطالية غير مسئولة عن أية خسائر فى الأرواح

أو الممتلكات ."

كان التوقيع على هذا التعهد بالنسبة لنا بمثابة من يوقع على صك موته بنفسه .

الفصل الرابع

تائـهون في الصحراء الليبية

كان الوقت متأخرا عندما عدت أنا وتاربوكس فى العاشر من مارس إلى الخيمة بعد أن وقعنا

على التعهد وحصلنا على جوازات سفرنا مسجل عليها تصريح بالسفر بالسيارة عبر الصحراء

الليبية المجهولة وعزمنا على أن نبدأ رحلتنا مبكرا في صباح اليوم التالي بعد أن أخبرت
محمدا أن عليه البقاء ولن يستطيع اصطحابنا .
كانت مسئولية تاربوكس توفير المؤونة وإعداد الخيمة و مشتملاتها و كنا قد قمنا بشراء

الكثير من الأطعمة بما في ذلك ثلاث دجاجات حية . أما أنا فقد كنت مسئولا عن السيارة و لكن

كان هناك القليل عمله للسيارة فلم يكن لدينا من النقود ما يكفي لشراء الكثير من الإطارات

الإضافيةأو حتى مبرد للسيارة (رادياتير) , كان الأمل يحدونا أن يصمد الرادياتير الذي تم

إصلاحه و الذي عمل بكفاءة في رحلتنا من توجورت إلى طرابلس حتى نصل إلى بنغازى.

سأل تاربوكسّ هل لدينا بوصلة ؟ أومأت بالإيجاب و أخبرته أن لدينا بوصلة صغيرة للجيب

و اعترضت قائلا :" إن البوصلة ليست ضرورية و سوف نتبع الطريق الساحلى بقدر ما

نستطيع أما الشمس فإنها أصلح وآمن بوصلة الآن حيث أن الجو صحو طوال شهر

مارس". و بدأنا في دراسة الخريطة التي تحدد مسار رحلتنا لمسافة 600 ميل .

سأل تاربوكس :" كم تظن سنستغرق من الوقت في هذه الرحلة ؟ " أجبته قائلا :" إذا حالفنا

الحظ فإن ذلك يستغرق ما بين 5 إلى 6 أيام . من هنا إلى مصراته لن نستغرق وقتا طويلا ,

أما ما بين مصراته وسرت فلا يوجد طريق وسوف نحاول أن نقطع هذه المسافة في اليوم

الثاني أي بعد غد . "

أما الجزء الصعب فهو الجزء الذي بين سرت و النوفليّة و ليست لدينا أ ية معلومات على

الإطلاق عن ذلك . ثم يلي ذلك الجزء المنطقة الممتدة بين النوفليّة و أرجيلا و هي منطقة

غير معروفة إطلاقا , ثم من هناك ننتقل من أرجيلا إلى بنغازي وهي قد تستغرق معظم

الأسبوع .

" ألا تظن أنه يجب أن نحتفل بقضاء الأمسية الأخيرة مع محمد بوليمة ؟ " إقترح تاربوكس

ذلك . قمنا بإشعال الموقد وطهي دجاجة وضعناها في وعاء لعمل الحساء و لم ينقض وقت

طويل حين بدأنا نتناول الحساء و نحن جالسون حول النار المشتعلة أما محمد فلم يتناول شيئا

من الطعام .

كانت السيارة جاهزة للتحرك و لم يكن أمامنا سوى ربط الخيمة , و فجأة لاحظت أنه يبكي

بكاءا شديدا و دموعه تنهمر في صحن الحساء ." إنني أشعر بالأسى لفراقكم" تحدث محمد

بصعوبة فسألته هل تحب أن تصحبنا في رحلتنا ؟ صاح مبتسما :" نعم أحب أن أصحبكم"

و قمت بترجمة ما قاله" محمد" إلى" تاربوكس" الذي أبدى حماسه الشديد لذلك , و لكني سألت

"محمد" :"" هل تدرك مدى خطورة الرحلة التي تزمع القيام بها ؟ و هل ستتمكن من البقاء على

قيد الحياة أثناءها ؟" أجاب" محمد" :" إن هذا لا يهمني البته طالما في مقدوري اصطحابكما ,

لا أحفل بأي مخاطر." و اتفقنا بيننا أن أذهب في اليوم التالي إلى عم محمد – كان جنديا –

كي أسأله عن رأيه في مسألة اصطحاب محمد لنا . كان البيت الذي يقطنون فيه في ضواحي

طرابلس يتكون من خمس حجرات تطل على فناء , تسكن كل حجرة عائلة واحدة .

ففي حجرة عائلة عم محمد عاش 7 أو 8 أشخاص , العم وزوجته ووالدة محمد و شقيق

العم و شقيقي محمد الأول يكبره بعامين و الآخر يصغره بعامين , و شقيقة محمد وعمرها

4 أعوام و طفل رضيع من نتاج الزواج الجديد و أخيرا محمد نفسه .

و عند وصولنا إلى البيت خرجت أم محمد إلى الفناء و توارت فيه عن الأنظار حيث لم يكن

يسمح لنا برؤيتها . لم يتردد عم محمد في الإجابة بالنفي عندما طلبنا السماح لمحمد

باصطحابنا ." و لكن ما السبب في عدم موافقتك ؟ " سألته مستغربا , فأجاب عم محمد قائلا:

" لا أستطيع أن أسمح له بالذهاب معكم فقد بلغ محمد السن التي يستطيع عنده العمل و اكتساب

القوت , و قد أنفقت على طعامه الكثير ولا نستطيع الاستغناء عنه الآن . "

أحسست أن مناقشتنا مع عم محمد لن تؤدي إلى النتيجة المرجوة نظرا لأنه رفض كل

ملاحظاتي في هذا الصدد , وهنا اقترح الأخ الأكبر لمحمد " يستطيع محمد أن يذهب إلى

خاله في بني غازي و يستطيع أن يبقى معه هناك ."

و ركبنا السيارة أنا وتاربوكس بينما وقف محمد بجانب السيارة كي يودعنا وهو يبكي بشدة

و خرج عم محمد أيضا وهنا ألقيت آخر ما في جعبتي وعرضت تقديم مبلغ 100 ليرة

ولكنه أصر على الرفض و عندما وصل المبلغ إلى 300 ليرة رق خال محمد لدموعه ووافق .

و أخيرا سمحوا لمحمد أن يصطحبنا , و عندما شرعنا في التحرك اندفعت أم محمد إلى ولدها

تقبله و تحتضنه و تتوسل إلي أن أعتني به .

نحن الآن في طريقنا إلى مصراته و قد كان الطريق ممهدا وجيدا و ظهرت مصراته من

على بعد حيث كان يحيط بها سور من جميع الجهات به بوابتان إحداهما من جهة الشمال

و الأخرى من الجنوب . انتظرنا لوقت قصير في مصراته و توقفنا في موقع السوق حتى

نقوم بختم أوراقنا عندما حضر أحد العرب و طلب أن يصطحبنا إلى سرت. و قد رفضت

ذلك بالطبع لأنه لم يكن مسموحا أن نأخذ أي مسافر معنا فقد كان التصريح بالانتقال فرديا

وقاصرا علينا , و اعتقدت أن الأمر قد انتهى عند ذلك . و نزلنا من السيارة حتى نستريح من

طول مدة الجلوس فيها . ثم بدأنا رحلتنا إلى سرت آملين أن نصل إليها في المساء .

و لكن الأمر لم يكن هينا فقد طرأ عطل على المحرك مما اضطرنا لقضاء الليل على بعد أميال

من مصراته. و عندما بدأت الشمس في المغيب بدأ الغيم يلف المكان و بدا لنا من بعد النيران

التي يشعلها البدو هنا و هناك . و عندما أخرجنا الأغطية و الخيمة ظهر لنا الأعرابي الذي كان

يرغب في السفر معنا من مؤخرة السيارة بعد أن تسلل إليها خلسة دون أن نلحظه و ذلك أثناء

توقفنا في مصراته. قلت له :" نستطيع أن نتركك كي تعود أدراجك سيرا على الأقدام ".

فالأعرابي لم يكن يتوقع أن نقف قبل الوصول إلى سرت فتوسل إلي أن أتركه حتى صفحت

عنه و طلبت منه المساعدة في تثبيت الخيمة و إعداد المعسكر .

وكان الظلام قد أسدل أستاره تماما عندما انتهينا من الإعداد , فتناولنا طعام العشاء و أشعلنا

نارا وعندها ظهر في الأفق شبحان لاثنين من البدو حضرا الينا من المعسكر القريب منا

حاملين معهما البيض و الحليب , و تمشيا مع تقاليد الضيافة دعوتهما إلى داخل الخيمة حيث

قضيا معنا الوقت حتى انتصف الليل تحدثا أثناء ذلك عن نفسيهما وعن حياتهما . و تحدث

أحدهما قائلا :" لقد أصبحت الحياة صعبة لنا هنا , فقد أصبح من غير المسموح حمل البنادق

ولم تكن لنا حرية اختيار المكان الذي نعسكر فيه , أما المعيشة في المنطقة الخصبة فى نيفلون

فقد أصبح ذلك محرم علينا ." وتساءلت قائلا :" لكن و لم لا ؟" فرد قائلا :" لم يكن هناك مفر

من الاستسلام فقد أصبح من المستحيل الاستمرار في الحرب ضد الإيطاليين لقد ازددنا فقرا فقد

قاموا بسد الآبار بالأسمنت حتى لا نتمكن من رعي الأغنام لذا لم يكن هناك بد من الاستسلام .

إننا الآن نعاني من الموت البطئ فنحن ملزمون بدفع ضرائب للحكومة الإيطالية و غير

مسموح لنا أن نعيش كما يعيش البدو والأحرار لأن الإيطاليين يخشون أن نلتحق بصفوف

الثوارو المتمردين , إن ذلك أمر ميئوس منه." و رد البدوي الآخر قائلا :" أعتقد أن

الإيطاليين يعزمون القضاء علينا نهائيا ." فرددت قائلا : " إن ذلك أمر مستحيل , أعتقد أنهم

يريدون القضاء على التمرد ." فرد البدوي قائلا:" أي تمرد تتحدث أنت عنه ؟ إنها حرب للبقاء

على أرض آبائنا و أجدادنا , و لكنها إرادة الله, إننا نزداد فقرا و جهلا و هم ينعتوننا

بالحيوانات ." وفي صباح اليوم التالي قمنا بحزم أمتعتنا بسرعة و شرعنا في رحلتنا نحو

سرت و لكن العطل في محرك السيارة كان ما زال مستمرا مما جعلها تبطئ في السير .

وقد اضطررنا لتغيير الإطارات عدة مرات , و لكن المدنية لم تكن قد اختفت تماما ففي

منتصف الطريق بين مصراته و سرت مررنا بقرية صغيرة بها متجر يبيع الوقود في علب

مغلقة و كنا في حاجة ماسة إليه خشية ألاّ يكفي الوقود المتوفر معنا لتسيير السيارة التي

كانت تستهلك الوقود بطريقة غير عادية نظرا للعطل الذي طرأ عليها .

بدت الأرض منبسطة أمام أعيننا واختفى الطريق و لكن خط الأفق في الصحراء سهل عملية القيادة , فقد بدت الصحراء و كأنها قاع بحر قديم , و قد سهل لنا المسير وجود ساحل البحر عن يسارنا.

كان محمد يجلس بجانبي فسألته :" كيف يمكن لصبي في مثل عمرك أن يتعلم القراءة

و الكتابة ؟" فرد محمد قائلا :"ّ لقد علمني والدي ذلكّ" فسألته :" و أين كان يقيم والدك؟"

"كان يقيم في واحة قريبة منا الآن ." و سكت لبرهة ثم أضاف قائلا :" لهذا السبب لا أخشى الذهاب معكم فإذا حضر البدو فلن يؤذوننا لأنني سأخبرهم عن والدي , لقد

كان شيخا عظيما , لقد عرفه الجميع ". فبادرته سائلا :" و لكن ما سبب وفاته ؟" فرد محمد بهدوء :" لقد أطلق عليه الإيطاليون النار فأردوه قتيلا ."

فسألته :" و ماذا فعل كي يطلقوا عليه النار ؟" فأجاب بهدوء أيضا :" لا شئ ."

فقلت له :" لا أجد سببا لإطلاق النار على الأبرياء و قتلهم ". فقضّب محمد جبينه محاولا أن

يتذكر حادث قتل والده و قال :" لا تسعفني ذاكرتي الآن فقد حدث ذلك منذ ثلاث سنوات عندما

حضر الإيطاليون إلى هنا لأول مرة , و الله لقد كنا نعيش في بحبوحة عندما كان والدي حيا ".

فسألته:" ماذا تعني بذلك ؟" فبادرني بسؤال :" هل سبق و أن تذوقت طعم لحم الإبل ؟"

و أضاف قائلا لقد :" لقد كان لذيذ الطعم لذا كنا كثيرا ما نتناوله ." و أضاف بحماس بالغ:" كنا

نتناول التمر و نشرب لبن النوق , لا شئ يماثله في الطعم , و أعتقد أنه يجب أن تتذوقه يوما

وللأسف الشديد أنا لا أتناوله الآن ." فرددت قائلا :" أظن يا محمد أنك تشعر أنك على ما يرام

هنا , أليس كذلك ؟" فأجاب قائلا :" الحمد لله على كل شئ ,إنني أحبك أكثر من عمى , على

أية حال كانت الأمور أفضل بكثير عندما كان أبي على قيد الحياة ." قلت له :" حدثني عن كيفية إصابة والدك بالرصاص ." فقال محمد :" إن ذاكرتي لا تسعفني كي أحكي لك عن كل شئ , ولكن دار قتال خارج المدينة , وذات يوم أحضر الإيطاليون والدي أسيرا مع تسعة آخرين من نفس الواحة مكبلين بالأغلال . يا الله! لقد كان الأمر فظيعا , لقد صرخت والدتي

و لطمت خدها كما تفعل النسوة , لقد كدنا نتضور جوعا فلم يكن هناك ما نأكله

ولمدة تسعة أيام مما أدى إلى وفاة اثنين من إخوتي الصغار , ثم قاموا بإعدام والدي ".

فأشفقت عليه و سألته :" وهل شاهدت ذلك ؟" فرد بأسى :" نعم , لقد وضعوا العشرة رجال

أمام الحائط و أطلقوا عليهم الرصاص , و لكن إصابة والدي لم تكن قاتلة حتى ظننت أنه

سيهرب و لكن عندئذ ذهب أحد الضباط تجاه والدي و أطلق رصاصة على رأسه فمات والدي

من فوره ." لقد كان الصبي يتحدث بصدق شديد مما جعلني أصدق كل ما يقول فلم أعهد

في محمد الكذب أبدا .

و استمرت رحلتنا لمدة عشر دقائق عندما شممنا رائحة احتراق تخرج من الموتور , لقد اشتعل

زيت السيارة نتيجة للحرارة الشديدة بسبب تلف مبرد السيارة (الرادياتير) و فراغه من الماء .

بحثنا عن مسمار سددنا به ثقب الرادياتير ثم ذهبت أنا و محمد إلى شاطئ البحر على بعد

بضعة أميال و ذلك لإحضار ماء لملء الرادياتير , و على شاطئ البحر كانت هناك آثار أقدام

كثير من الحيوانات تعرّف عليها محمد . و أشار محمد إلى آثار الأقدام قائلا :" أنظر هنا . .

آثار أقدام ضباع , وهذه آثار حيوان ابن آوى , و هذه لفهد ." فسألته بدهشة:" و هل هناك فهود

تعيش هنا ؟" فرد بالإيجاب قائلا :" هناك الكثير منها هنا و سوف نراها بالطبع ." و أحضرنا

الماء إلى السيارة حيث ملأنا به الرادياتير وواصلنا رحلتنا إلى سرت التي ظهرت عن بعد

و كانت تشبه القلعة . و على بعد مسافة قصيرة من البلدة تركنا الأعرابي الذي كان قد تسلل إلى

السيارة , فلم نكن نريد المخاطرة باصطحابه إلى هناك .

ومع حلول الظلام دخلنا إلى سرت والتي كانت محاطة بالأسلاك الشائكة من جميع الجهات ,

فتجنبناه و دخلنا من خلال بوابة عليها بعض الحراس , و توجهنا إلى ميدان المدينة .

وجدنا قائد المدينة برتبة مقدم و قد كان ممتلئ الجسم و يدخن غليونا و شاهدناه يمشي في

الميدان مع أحد الرهبان و الذي كان يضطلع بمهمة تحويل البدو عن دينهم . و عندما اقتربنا

بالسيارة منهما أسرع إلينا الضابط و استوقفنا قائلا :" من أين أتيتم و ما هي وجهتكم ؟"

فأريته جوازات السفر الخاصة بنا , و لكنه أخذ يتفحص ملابسنا العربية التي كنا نرتديها قائلا :

" لن أسمح لكم بالسفر أبعد من سرت فذلك غير مسموح به , و عليّ أن أنتظر الأوامر من

طرابلس ." ثم سألنا قائلا :" أين ستقضون ليلتكم ؟ لا يوجد مكان لأغراب هنا ."

فأجبته :" لا بأس . فنحن لدينا خيمتنا التي نستطيع قضاء الليل فيها و سوف نعسكر في ذلك

الحقل ." فلم يرد عليّ و ذهب بعيدا . و أقمنا معسكرنا لقضاء الليل فيه .

لقد كانت سرت تعج بالجنود المسيحيين من إرتيريا التي كانت مستعمرة فرنسية , فلم يكن

الإيطاليون يعتمدون على العرب في حربهم ضد البدو , لذا فقد احتفظوا بحاميات كبيرة من

الجنود السود في كل من مستعمرتي طبرق و طرابلس .

و بالقرب من سرت شاهدنا أحد معسكرات البدو و ذهبت أنا و محمد إلى هناك بعد أن خلد

تاربوكس إلى النوم . و يا لهول ما رأيت !!! لم أر مثل هذا الفقر من قبل , لقد كانت النساء

تضعن خرق ممزقة يسترن بها أجسادهن وكذلك ظهر الرجال . أما الأطفال الجائعون فاندفعوا

نحونا يشحذون نقودا , و سألت أحد البدو :" كم المدة التي قضيتها هنا ." فرد قائلا :" لقد

حبسوناهنا لمدة ثلاثة شهور حتى الآن و لم يسمحوا لنا بالانتقال و الترحال إلى أماكن أخرى حيث الأعشاب و الماء لرعى الأغنام مما سيضطرنا إلى بيع بعضها هنا و العيش بثمنها و شراء علف للباقي من هذه الأغنام , و ليس في مقدورنا فعل أي شئ آخر ."

وسألته :" و هل يرغب الإيطاليون في إجباركم على الاستقرار في مكان واحد فقط ؟"

فرد قائلا :" الله وحده يعلم ذلك و أعتقد أنهم يريدون القضاء علينا ."

كانت النيران متوهجة ووجوه النساء بملابسهن الرثة يبدو عليها الجوع الشديد , أما الأطفال فقد

كان يبدو عليهم الهزال و الضعف لدرجة أنك تستطيع رؤية الضلوع فوق أمعائهم الخاوية .

و في صباح اليوم التالي سمح لنا المقدم الإيطالي بمواصلة رحلتنا بعد أن تلقى أوامر من

طرابلس بذلك و قام بتبليغ موعد سفرنا لاسلكيا إلى محطة النوفليّة.

و على الجانب الآخر من سرت اختفى أي أثر للطريق , حيث قابلنا أحد الرعاة مرتديا صوف

الأغنام , و بمجرد أن رآنا أخذ يحملق فينا كما لوكنا أشباحا , فقد عاش شهورا في هذا المكان

لم ير أثناءها إنسانا آخر و أعتقد أنه لم ير سيارة في حياته من قبل , وعندما اقتربنا منه

حمل في يده بعض الأحجار الكبيرة مهددا لنا و لكننا أخبرناه أننا لا نضمر له سوءا بل نريد

شراء بعضٍ من حليب الماعز .

أعطى محمد الراعي وعاءا كي يملأه لنا بالحليب و لكنه لم يقبل نقودا مقابل ذلك بل أعطانا

الحليب نظير أن نتركه لحال سبيله هو و أغنامه . و عندما سألناه عن قبيلته أشار جهة الشرق

قائلا :" معسكرنا على مسيرة أيام من هنا و سوف أتوجه إليه قريبا ."

و ظل هذا الراعي يراقبنا من فوق التل , حيث خيم جو من الكآبة على الأفق حيث يجب علينا

أن نتجنب السير بالغرب من الوديان الضيقة و العميقة و نسلك الطرق المجاورة للبحر حتى لا

نضل الطريق . و بعد مرور ساعتين توقفنا لإعداد بعض الطعام , و كان تاربوكس على

وشك أن يقطع رأس إحدى الدجاجات التي اشتريناها من سرت و لكن محمد منعه من ذلك .

فقال لي تاربوكس :" يجب عليك أن تقطع رأس الدجاجة بنفسك فأنت تعرف كيف

تفعل ذلك. " و حاولت أن أقنع محمد بأن عملية قطع رأس الدجاجة هي مثل ذبحها تماما

و لكنه أصر على رأيه و رفض أن يتذوق الدجاجة إلا إذا تم ذبحها طبقا للشريعة الإسلامية .

امتدت الصحراء الليبية أمامنا بالقرب من البحر كسجادة من الورود يداعبها النسيم , ينتقل

النحل بينها ليجمع رحيقها , بينما بدأت الشمس في الظهور لتسطع بأشعتها القوية دون كلل

و بعيدا في الأفق بدت لنا الأشجار الصغيرة و كأنها واحات عظيمة تملؤها أشجار النخيل .

و بانتصاف النهار اشتدت الحرارة و بدأ الماء في مبرد السيارة (الرادياتير) في الغليان

والتسرب ببطء , لذا فكرنا في السير بسرعة أكثر حتى نصل إلى النوفليّة و لذلك اضطررنا

لوضع كمية من ماء الشرب في مبرد السيارة .

و عندما أصبحت الرمال أكثر نعومة اضطررنا إلى السير ببطء , و لكن ذلك لم يحمنا من

الغوص بإطارات السيارة في تلك الرمال الناعمة مما أجبرنا على التوقف لإخراج السيارة

وفي كل مرة كنا نفقد الكثير من المياه .

و بحلول الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا إلى إحدى الواحات غير المأهولة و لكن لحسن الطالع

وجدنا فيها بئرين للماء العذب و أطلال لمنزل مهجور .

و اقترحت على محمد و تاربوكس أن نتوقف فيها و نحاول إصلاح مبرد السيارة فوافقا على

ذلك . كانت تلك الواحة تبعد 50 ياردة عن البحر و تحتوي على أكثر من عشرين نخلة مما يدل

على خصوبتها العالية مما جعلها تبدو و كأنها منفصلة عن الصحراء الممتدة على مرمى

البصر . و كان هناك بحيرة جافة في اتجاه الجنوب الشرقي ممتدة على الطريق الذي نسلكه

حتى نصل إلى النوفليّة. و قد كانت منطقة جدباء ليس بها أي زرع .

كانت الواحة هي علامة الحياة في الصحراء , و رأينا أحد النسور يقف بين أطلال المنزل

وكان كلما اقتربنا منه ارتفع في الهواء يتبعه مجموعة من الغربان التي تسكن الأشجار و هي

تنعق بصوت عال و منفر , فقد كان سكون الموت يخيم على الصحراء .

فعندما تقف في الصحراء لا تسمع سوى حفيف الرياح بين الحشائش و صوت ارتطام أمواج

البحر بالشاطئ .

و سرعان ما ثبتنا الخيمة و بدأنا في عملية إصلاح الرادياتير و لكنها كانت عملية شبه مستحيلة

نظرا لتسرب كمية كبيرة من المياه و كبر حجم الثقب على الرغم من محاولاتنا المستمرة لسده

باستخدام قصدير اللحام الذي لم يمكن تثبيته في جسم الرادياتير .

و بحلول المساء كانت الشبورة التي هبت من البحر تغلف الصحراء مما زاد من برودة الجو ,

و عندئذ أخذ تاربوكس البلطة و بدأ في قطع بعض الأشجار و الفروع الجافة تمهيدا لإشعال نار

للإضاءة و التدفئة , و لكن محمد منعه من ذلك قائلا :" لن يفيدنا إشعال النار هنا في المعسكر

لأن هذه النار قد تدل بعض البدو على مكاننا مما يجعلهم يسرعون إلى هذا المكان معتقدين أننا

من الإيطاليين و يبدءون في إطلاق النار علينا حتى و نحن داخل الخيمة ."

فوافقت محمد في كل ما قاله و قلت :" أنت محق يا محمد , لقد نسيت أمر البدو ."

أمسكنا بإحدى الدجاجتين و سرعان ما وضعناها في وعاء للحساء مع بعض المكرونة

والخضروات كنا قد اشتريناها من سرت. لقد تمت عملية الطهو داخل الخيمة بعد وضع

بطانية على جانب الخيمة حتى لا تسمح بتسرب أي ضوء خارجها قد يدل على مكاننا . و من

سوء الطالع أننا لم يكن لدينا أي أسلحة لأنني اعتقدت أنه من الحكمة عدم حملها حتى لا نستثير

أيا من البدو ضدنا , و سرعان ما كنا نغرق في سبات عميق داخل الخيمة .

واستيقظت في الثانية بعد منتصف الليل على جلبة و ضوضاء خارج الخيمة , كان الظلام

حالكا و السماء ملبدة بالغيوم و بالطبع لم أجرؤ على إشعال أي ضوء و لكنني أمسكت بذراع

محمد فوجدته مستيقظا هو الآخر . سألت محمد هامسا :" هل تسمع الجلبة التي في خارج

الخيمة ؟" و زحفنا أنا و محمد بعد أن أمسكت ببطارية تاربوكس بيد و البلطة باليد الأخرى ,

وخرجت بسرعة إلى الخارج مع محمد فوجدنا حيوان ابن آوى و قد مزق الدجاجة الوحيدة

الباقية إربا إربا , و تعجبنا كيف تم ذلك دون أن نسمع أي صوت . و سرعان ما ألقيت البلطة

تجاه ابن آوى الذي ابتعد مسرعا و عيناه الصفراوين تلمعان في ظلام الليل كالفسفور , و لم

يكن هناك ما نفعله سوى النوم لبضع ساعات أخرى .

و عندما استيقظ ثلاثتنا سمعنا صوت عويل غامض يقترب من الخيمة ثم يختفي مرة أخرى , ثم

سرعان ما عاد من فوق الخيمة و ارتفع صوت العويل الغامض و لف الخيمة من كل اتجاه

وتملك محمد خوف شديد على الرغم من هدوئه المعهود .

قال محمد واثقا :" لابد أن شخصا مات في هذا المكان فما يحوم حولنا الآن هو الجن ".

أجبته : " هراء ... ولكنني أعتقد أنها بعض الطيور أو الخفافيش " قلت له ذلك وأنا أحاول

الخروج من الخيمة و لكن محمد توسل إلي ألا أخرج قائلا: " إن الجن قوي للغاية و في مقدوره

أن يلوي رقبتك كما تستطيع أنت لوي رقبة الدجاجة." ولف محمد نفسه بالبطانية وأ
خذ يرتل

كل السورالقرآ نية التي يحفظها ثم قال:" ان الجن لا يستطيع الاقتراب منا أو إيذاءنا
الآن. "

و سرعان ما خلدنا إلى النوم مرة أخرى .

و في الصباح شرعنا في عملية إصلاح الراديايتر و عندما انتهينا من ذلك بدأنا
الاستعداد

للتحرك و معنا كمية قليلة من الماء تكفينا للوصول إلى أقرب بئر بجانب البحر .

و عندما بدأنا في التحرك طلب محمد أن نذهب حيث أشجار النخيل قائلا : " أنظرا
هنا ."

فنظرنا و تسمرنا لرؤيتنا أربعة قبور شاهدها محمد . ثم قال محمد : " ألم أخبركم
بوجود الجن

في هذا المكان , إن الموتى مدفونون بالقرب من سطح الأرض مما جعل حيوان ابن
آوى ينبش

هذه القبور و ينهش هذه الجثث و كما ترون تبعثرت عظامهم و تمزقت ملابسهم ."
وأضاف

محمد صائحا : " إنهم من الإيطاليين و يرتدون الزي العسكري الإيطالي ."

كان من الواضح أنه تم دفن هذه الجثث في عجالة لذا فقد رحلنا من تلك الواحة
المخيفة

والمرعبة بأسرع ما يمكن .

و سرعان ما قطعنا مسافة في الصحراء بدت و كأنها قاع بحر قديم , لقد كانت تبدو و
كأنها

إحدى الطرق السريعة مما جعلنا نسرع في سيرنا . ثم وصلنا إلى بعض الكثبان
الرملية تنمو

عليها بعض الحشائش . و عند الظهر وجدنا أننا أمام بحيرة صغيرة عرضها حوالى ثلاث

ياردات و لكنها ممتدة إلى مسافة طويلة مما يجعل من المستحيل الالتفاف حولها ووجود الرمال

الناعمة بالقرب من البحر يجعل السيارة تنغرس في الرمال , لذا قررنا أن نجتاز البحيرة

بالسيارة , و نظرا لأن قاع البحيرة لم يكن عميقا – حوالى 3 أقدام – خففنا حمولة السيارة

وحملنا الأمتعة إلى الجانب الآخر . وقدت السيارة بسرعة كبيرة حتى وصلت إلى الناحية

الأخرى من البحيرة , وهكذا اجتزنا أصعب عقبة قابلتنا .

وفي أثناء سفرنا شاهدنا حطام طائرة محترقة لنجد بعدها فوق إحدى التلال مقبرة يبدو و كأنها

لأحد الأولياء , لقد كانت أبسط مقبرة شاهدتها في حياتي , فلم تكن أكثر من سياج من العصى

حوله عدد من الصخور تحول بين القبر و السباع الضارية , بينما ظهر بعض القماش فوق تلك

العصى . و عندئذ قال محمد : " إن هذا القبر هو لأحد شيوخ البدو العظماء و قد تم دفنه بنفس

الطريقة التي كنا ندفن بها شيوخنا ." فسألته : " و لكن ما فائدة قطع القماش هذه ؟ "

فأجاب محمد : " إنها ملابسه و كما ترى بها بعض الجيوب التي بها القليل من النقود , ألا تعلم

أن المسلم يهب جزءا من ماله للفقراء و المحتاجين ؟ إنه يخصص جزءا من ماله لذلك . ولكن

البدو الأحرار ليس بينهم فقراء لذا فإنهم يضعون ملابسهم و بعض نقودهم لعابري السبيل الذين

يمرون على تلك القبور . " وعندئذ وضعنا جزء من ملابسنا و متعلقاتنا بجانب القطع الموجودة

وواصلنا رحلتنا .

و عند الساعة الثالثة توقفنا لتناول الطعام و احتساء الشاي و بينما نحن كذلك ظهر في الحر

الشديد من على بعد سحابة كبيرة من الغبار فظننا أنها بسبب قطيع من الغزلان وإذا بنا نرى

أشباحا تتحرك تجاهنا بأقصى سرعة و هي تمتطي صهوة الخيول بينما تظهر البنادق في أيديهم

و هي تعكس ضوء الشمس الأصفر . و عندئذ صاح محمد : " إنهم من البدو الأحرار ".

و نظرت إلى تاربوكس و تساءلت : هل هذه هي نهاية حملتنا ؟ ! فقد سمعنا الكثير عن الطرق

التي يقتل بها البدو أعداءهم . . و بدا و كأن شبح الموت اقترب منا , و فكرت في وسيلة

لإقناع هؤلاء البدو القادمون بأننا لسنا من الإيطاليين .

اقتربت الجياد أكثر فأكثر حتى أصبحت بجانبنا تقريبا و هنا اضطررنا أن نحتمي خلف السيارة

خشية أن يطلقوا علينا الرصاص . كان قائد المجموعة أسود البشرة و يرتدي زيا مميزا و أشار

ببندقيته نحونا و سأل بحزم : " من أين حصلتم على هذه السيارة ؟ " قلت له : " إنها سيارتي ."

فبادرني بسؤال أثار حيرتي قائلا : " و لكن أين الرجل الأمريكي و الرجل الإنجليزي اللذان

يجب أن يكونا هنا الآن؟ هل قتلتموهما؟ " فأجبت و قد ازدادت حيرتي : " إننا نحن اللذين تسأل

عنهما ." فرد بحدة و هو يصوب بندقيته تجاهنا : " أين هما الآن ؟ " فأكدت له أننا نفس

الأشخاص التي يبحث عنها .

فسألني متعجبا :" و لكن من أين حصلتما على هذه الملابس العربية ؟ "

فشرحت له و سألته عن المكان الذي أتى منه فرد قائلا إنه أتى من النوفليّة وإنه تسلم برقية من سرت وصلت منذ ثلاثة أيام فيها موعد سفرنا . وأضاف قائلا : " لقد كنا نخشى أن يهاجمكم البدو وخرجنا للبحث عنكما , و لكن الأمر يبدو على ما يرام الآن . "
وترجلوا جميعا من على ظهور الجياد و أشعلنا النار وبدأنا في شرب الشاي , و أضاف قائد المجموعة قائلا : " لقد حالفكم الحظ بوصولكم إلى هنا على قيد الحياة , فالمكان يعج بالبدو في كل مكان . و لكن أين قضيتم الليل ؟ "
فأخبرته عن الواحة المرعبة التي قضينا فيها الليل فعلته الدهشة و أضاف قائلا :" لقد قتل خمسة من جنودنا الشهر الماضي هناك , فالبدو غالبا ما يذهبون إلى هناك لتشرب الإبل . "
وعندما حكيت له عن الطائرة المحطمة سرد لي قصتها و هو يضحك ملء شدقيه و قال : " لقد أسقطوا هذه الطائرة بنيران بندقية صغيرة مما أسفر عن مقتل الطيار و تحطم المحرك تماما وعندما أضرم البدو النيران في الطائرة احتفالا بذلك إذا بانفجار ضخم يقتل كل البدو الموجودين , فقد كانت الطائرة تحمل الكثير من القنابل . ياالله .. لقد قتلوا جميعا ." فقلت له أننا لم نجد أثرا لعظامهم هناك فرد قائلا : " إن البدو قد حضروا و سحبوا جثث قتلاهم من هناك ."
وأمر القائد الأسود المجموعة بأن تسبقه على ظهور الخيل و ركب معنا السيارة و بدأنا في مواصلة رحلتنا . وفي طريقنا وجدنا لوحة مكتوب عليها (30 كيلومتر إلى النوفليّة) .
و بدأ الطريق يظهر شيئا فشيئا حتى وصلنا إلى الطريق العادى . و على بعد 18 ميلا من البحر رأينا المدينة تظهر من على بعد , و بحلول الظلام وصلنا إلى الحصن الذي يقع في وادي تحيط به التلال العالية و يحيط به سور من الأسلاك الشائكة فوقه كشاف ضوء ضخم لكشف كل من يقترب , و توقفنا عند البوابة حيث همس قائد

المجموعة بكلمة السر للمرور , و دخلنا بالسيارة إلى فناء الحصن , ثم توجهنا إلى المبنى الرئيسي الذي لم يكن سوى مظلة من الخشب يتناول فيها الضباط وجباتهم .
كان قائد الحصن ضابطا برتبة نقيب و كان يسمى "دي باولى" و بمجرد أن لمحنا أسرع إلينا مرحبا هو و زملاؤه من الضباط و قدمنا إليهم وكانوا خمسة , منهم طبيب واثنين من ضباط المدفعية و ضابط اللاسلكي وضابط من سلاح الفرسان .
و بدأ دي باولي في الاستفسار عن المصاعب التي واجهتنا في الطريق , فقد كانوا يخشون علينا من هجوم البدو , فأوضحت له أن الرادياتير كان سبب التأخير . وفي الحال أمر الميكانيكي بإصلاحه .
تناولنا الطعام و كان يتكون من مكرونة و لحم جدي مشوى , ثم ذهبنا إلى إحدى الحجرات للراحة و النوم . وقضينا اليوم التالي في محاولات لإصلاح المبرد دون جدوى , و بالطبع لم يكن من الممكن الوصول إلى بني غازي دون إصلاحه تماما .
ذهبت إلى النقيب دي باولي وطلبت منه أن يعطيني خارطة أرجيلا فأشار إلى خريطة ضخمة معلقة على الحائط قائلا : " ليست لدينا معلومات عن الطريق من هنا إلى أرجيلا الذي يمتد لمسافة 200 ميل . و على الرغم من ذلك فقد استطاعت بعض دورياتنا الراكبة الوصول إلى هناك و كان ذلك منذ خمس سنوات عندما أرسلنا إحدى سيارتنا العسكرية الكبيرة إلى هناك. وأستطيع أن أذكر لكم أنه لا يمكنكم السفر بمفردكم نظرا لصعوبة الطريق و عدم وضوحه ووجود مساحات ضخمة من الأرض تغطيها الأشجار الكثيفة تجعل من الصعب عليكم أن تشقوا طريقكم فيها , لذا فإني أقترح أن يصطحبكم أحد الجنود ليوصلكم إلى بئر أم الريش حيث الخطوط الأمامية على بعد 40 ميل من هنا , و هذا أقصى مكان أستطيع أن أوصلكم إليه و سوف أرسل برقية إلى أرجيلا في طبرق كي يرسلوا لكم دورية إلى بئر ميردوما تصطحبكم
في الطريق . "

و عندما سألته عن هذا البئر أجاب بأنه علىبعد 20 ميل فقط من بئر أم الريش وهناك ستجدون واديا بين التلال .
قام النقيب دي باولي بإرسال برقية إلى أرجيلا ولكننا انتظرنا ليومين آخرين حتى يتم إصلاح الرادياتير وأخيرا وفي 15 مارس كنا جاهزين للسفر فاشترينا جديا صغيرا ووضعناه في مؤخرة السيارة كما اشترينا صندوقا من المكرونة, و6 أرغفة وبعض التمور والكثير من البطاطس , ثم بدأنا رحلتنا وجلس الجندى بجانبي كي يدلني على الطريق .
ازدادت الرحلة صعوبة وازداد الطريق وعورة فقد كان علينا عبور أخاديد عميقة و أن نتحسس طريقنا بين الأشجار الكثيفة التي كثيرا ما حطمناها أثناء سير السيارة.
واضطررنا
إلى التوقف وتثبيت حقائبنا التى كنا نخشى سقوطها أثناء سيرنا .
و بحلول الظهر كنا قد قطعنا نصف المسافة إلى بئر أم الريش, و لكن الإطارات تلفت من كثرة الثقوب التى أحدثتها فيها أشواك الأشجار مما أجبرنا على الوقوف عدة

مرات لإصلاح الإطارات . وازداد الجو حرارة و ازداد إفرازنا للعرق , لقد كنا نتعجب من قدرة السيارة
على السير في هذه المناطق الوعرة .
وفي أثناء سيرنا في المناطق المنبسطة شاهدنا في الأفق قطيع من الغزلان فاستعد الجندى الذي يصاحبنا ببندقيته , بينما قدت السيارة بأسرع ما يمكن كي نظفر بهذا الصيد الثمين , وبالفعل نجحنا في صيد أحد الغزلان وأسرعنا إليه وذبحناه وأخذناه معنا .
وواصلنا السير في خطوط متعرجة إلى اليمين و إلى اليسار حتى وجدنا الاتجاه الصحيح .
قلت لتاربوكس : " أعتقد أننا لن نعرف طريق العودة إذا ما ا ضطررنا لذلك ."
سرت في جسد تاربوكس رعشة فصاح قائلا :" و لكن لحسن الحظ لدينا دليل يساعدنا
على السير ."
و بحلول الساعة السادسة مساءا قاربت الشمس على المغيب فتحولت إلى كرة حمراء اللون .
و بينما كان الظلام يسدل أستاره على الصحراء أدركت أننا قد ضللنا الطريق و لن نجد
بئر أم الريش أبدا وفجأة صاح دليلنا : " أوقف السيارة الآن . . أعتقد أننا وصلنا البئر ."
فهناك رأينا عن بعد أحد التلال تظهر عليه آثار حوافر الخيل بوضوح , و ذهبنا إلى هناك حيث كان البئر على بعد 50 ياردة من التل و لم يكن يزيد عن ثقب في الرمال عرضه ياردة واحدة لا يمكن أن تلحظه من على بعد. ألقيت حجر صغير حتى أتأكد من وجود الماء فيه , فلم تمر ثواني حتى سمعنا صوت سقوط الحجر في البئر, و كم فرحنا بسماع صوت الماء و سرعان
ما أدلونا بالدلو و شربنا جميعا .
لقد كان طعمه فظيعا مالحا به طعم الكبريت , و بالتالي لم يكن يصلح للشرب .
أفرغنا أمتعتنا من السيارة ثم أقمنا الخيمة و بحثث عن صفيحة الماء العذب التى كانت معنا في السيارة ولكن يبدو أنها سقطت أثناء سيرنا دون أن نراها . خيم الظلام على المكان فقمنا بإشعال النار وأعددنا الشاي من ماء مبرد السيارة (الرادياتير) , ثم قمنا بطهي الغزال الذي اصطدناه و أكلنا منه حتى الشبع .
و عندما هممنا بالخلود إلى النوم طلب منا الجندي أن نعين حراسة بالتناوب حتى نتجنب مهاجمة البدو لنا أثناء نومنا . و بالفعل تناوبنا الحراسة كل في دوره , لقد كان الجو كئيبا و مخيفا فقد كان الضباب يلف كل شئ .. لقد كان مثل عالم الأشباح .
و تنفسنا الصعداء عندما أطلت علينا الشمس من الشرق . . . و انقشع الضباب فقمنا بوضع الأمتعة في السيارة و عندما هممنا بالرحيل توقف الجندى قائلا : " لن أواصل الرحلة معكم . . لن أتقدم أكثر من ذلك ." فبادرته قائلا : " و لكنك لا تستطيع العودة سيرا على الأقدام إلى نوفيليا ." فرد قائلا :" سوف أصل إلى هناك الليلة ". فسألته :

" كيف يمكن لنا أن نستدل على الطريق بمفردنا ؟ " فرد بهدوء :" إن ذلك أمر سهل للغاية , فكل ما يجب عليكم عمله هو تتبع الوادى حتى تصلوا إلى بئر ميردوما حيث تجدوا بئرين للماء هناك , و سوف يكون في انتظاركم هناك أحد المرافقين لاصطحابكم ."
و بدأ الجندى رحلة العودة إلى النوفليّة بعد أن أخذ معه ما يكفيه من الطعام . ووجدنا أن بئر ميردوما عبارة عن منطقة ممتدة إلى مسافة مائة ياردة على شكل دائرة و ليس بها آثار حشائش وفي المنتصف كانت هناك هضبتان صغيرتان على قمتهما البئران . لقد كان أحد البئرين بعمق بئر أم الريش و كان أكثر عذوبة من البئر الآخر و لكنه كان يحوي يرقات لبعض الحشرات التى كنا نبعدها عن الماء , و لم يكن هناك مرافق في انتظارنا كما أخبرنا الجندي قبل عودته ولكننا وجدنا آثار حديثة لروث الخيل و بدا أن المرافق قد مل الانتظار فرحل قبل وصولنا .

اشتدت حرارة الشمس مما جعل الجدى الصغير يموء من العطش فأخذناه إلى البئر و أسقيناه بعض الماء . و بينما كنا نستكشف المكان وجدنا على الجانب الأيمن بعض التحصينات و في الجانب الأيسر على تل صغير بعض الخنادق , قلت لتاربوكس :" أعتقد أنه قد دار قتال هنا حول البئر فهناك آثار الرصاص واضحة في الرمال ."
خيم الصمت على المكان .. سوى من اثنين من النسور مزقا ذلك الصمت بين الحين والآخر , و سمعنا حفيف الرياح و هي تدفع الحشائش حولنا و انتابنا شعور غريب باستمرار
وهو أن هناك عيونا تراقبنا عن كثب و توقعنا أن يطلق علينا الرصاص في أي وقت فقد كنا نرتدى الملابس العربية .
أخبرت تاربوكس بأن البدو قد يأتون إلى هنا من أجل الحصول على الماء فأبدى خوفه
قائلا :" عندما يرى البدو السيارة سيظنون أننا إيطاليون و يطلقون علينا الرصاص حتى قبل أن نتحدث إليهم ." أشرت إلى محمد الذي كان يطعم الجدى ببعض الأعشاب الجافة حتى نسرع في الرحيل و قلت له أننا سوف نبحث عن الطريق في الجانب الآخر من بئر ميردوما . و عندئذ صاح محمد فرحا و هو يشير إلى آثار عجلات سيارة : " هذا هو الطريق ."
و على الرغم أننا لم نكن نعرف الطريق إلى أرجيلا التي لم تكن موجودة على الخريطة إلا أننا قررنا تتبع آثار عجلات السيارة آملين أن توصلنا إلى الحصن الذي نقصده .
فتحنا آخر علبة للبرقوق و تقاسمناها ثم ملأنا مبرد السيارة بالماء الذي أحضرناه من بئر ميردوما , و بالرغم من ملوحته إلا أنه كان أفضل ما لدينا .
و بدأنا نستكمل رحلتنا و أصلحنا إطارين للسيارة نتيجة الثقوب الموجودة بها و لم يتبق من اللحام الخاص بالإطارات سوى عشرين قطعة .
تتبعنا الطريق و اضطررنا أن نتوقف عدة مرات لإصلاح الإطارات و التأكد من الطريق ,

وعند الغروب لم يكن أمامنا سوى 20 ميلا تفصلنا عن الحصن و منها نقطع 100 ميل أخرى إلى أرجيلا التى كنا نجهل مكانها .
و بينما كانت الشمس تميل نحو الغروب كنا نقطع سهلا ضخما لا يوجد فيه سوى الحشائش
و الرمال , و على خط الأفق ظهرت تلال من الطباشير يظللها ضوء الشمس الأحمر .
لقد كان من المستحيل قيادة السيارة في الظلام لاختفاء آثار الطريق في الظلام ولم يتبق معنا سوى القليل من الماء لا يكفي احتياجاتنا , لذا قررنا الوقوف و قضاء الليل في الخيمة على أن نواصل سيرنا صباح اليوم التالي الموافق 17 من مارس . و بالفعل قطعنا ما يقرب
من 60 ميلا بصعوبة بين الرمال .
وعند الساعة الثالثة وصلنا إلى سلسلة من التلال المرتفعة فتوقفنا لإصلاح الإطارات .
وصعدت التلة حتى أتبين موقعنا و بالفعل و من هناك شاهدت بعض آثار قبور من الصخر للبدو على أعلى التلة. و استطعت أن أتبين آثار الطريق إلى الجنوب حيث لم يكن أمامنا سوى صحراء ممتدة على مرمى البصر .
كان من الواضح أن الطريق لم يكن يؤدي إلى أرجيلا التى لا يمكن أن تقع في وسط الصحراء الليبية حيث لا يوجد سوى آبار تم ردمها بالأسمنت , و لكنني وجدت آثار أقدام لجمال كثيرة و شاهدت روثها , و عدت إلى حيث يقف محمد و تاربوكس بالسيارة و سألته على عدم التحرك بها من خلال الممر الضيق ففوجئت بتلف الإطارات و عدم وجود ما نصلحها به . قلت لهما :" من الأفضل لنا أن نعود أدراجنا إلى بئر ميردوما فهذا الطريق لا يوصل إلى أرجيلا بل يخترق الصحراء فقط و لايوجد معنا سوى كمية قليلة من الماء ."
ولأول مرة شعر ثلاثتنا أن نهايتنا قد اقتربت فتوقفنا وأعددنا بعض الشاي ثم خلدنا إلى النوم , و لكننا لم ننعم بالراحة فقد كنا نعاني من الدوسنتاريا من جراء شرب الماء من بئر ميردوما .
و في الصباح حاولنا جاهدين إصلاح الإطارات و لم يكن هناك بد من استخدام القماش المصنوع منه ملابسنا , و بالفعل نجحنا أخيرا و قطعنا مسافة 30 ميلا في رحلة العودة و لكن بقى أمامنا حوالى 45 ميلا في الصحراء القاحلة . لم يمض وقت طويل إلا و تلفت الإطارات مرة أخرى فقررنا ترك السيارة بعد أن شربنا من ماء مبرد السيارة(الرادياتير) وأخذنا
ما تبقى منه معنا .
و هكذا تضاءلت فرصة وصولنا إلى بئر ميردوما أحياء . وأخذنا ملابسنا العربية و أخذ تاربوكس بطانية و بعض المكرونة وأخذت أنا الدلو و ما تبقى من ماء الرادياتير بينما أخذ محمد بطانية , ثم قمنا بذبح الجدى و حاولنا شرب دمه لنروي به عطشنا و لكننا لم نستطع ذلك على الرغم مما كنا نعاني منه من شدة العطش . و تركنا ما تبقى من لحم الجدي فلم يكن لدينا

شهية للأكل . و تركنا السيارة في الساعة الواحدة تقريبا و بعد ربع ساعة اختفت عن أنظارنا
وظللنا نشق طريقنا بين الرمال بصعوبة بالغة , و نتيجة الحرارة الشديدة كنا سرعان ما نشعر بالعطش الشديد و روينا ظمأنا بما تبقى من الماء و أصبحنا نواجه الموت عطشا .
وأخذت الرياح تزداد شدة و تلقي في آذاننا و أنوفنا بالرمل الملتهب . واستمر سيرنا لمدة نصف ساعة و فجأة توقف تاربوكس قائلا :" لقد أنهكني التعب فلنقف للراحة ."
و لكنني قلت له بحزم :" لا نستطيع التوقف .. فقد نفذ ما لدينا من الماء و بهبوط الليل فلن نجد طريقنا إلى بئر ميردوما." و اضطر تاربوكس إلى الإذعان لأمري بمواصلة السير .
و في الساعة الرابعة سمعنا أصوات طائرات تقترب منا فوضعنا البطانيتين على الرمال
وأخذنا نلوح بملابسنا في الهواء حتى يرونا و لكن دون جدوى , و سرعان ما اختفت الطائرتان عن الأنظار في اتجاه الغرب ثم إلى الشمال . و أصابنا اليأس مرة أخرى فلزمنا
الصمت و اعترانا حزن شديد على ضياع فرصة إنقاذنا وقال تاربوكس :" إن هذه الطائرات تحاول البحث عنا .. و لكن بعدنا عن البحر سيجعل العثور علينا مسألة صعبة ."
قلت له :" على الأقل إنهم يعرفون أننا ضللنا الطريق مما يجعلنا لا نفقد الأمل ."
بدت الصحراء و كأنها بلا نهاية و أخذت الرياح الجافة الساخنة تلفح وجوهنا دون هوادة ,
و استمر مسيرنا في خط واحد محمد ثم أنا ثم تاربوكس . وفي حوالي الساعة الرابعة
و النصف استدار محمد و صاح بصوت عال :" لقد مات تاربوكس ." فنظرت فوجدته
و قدا نكفأ على وجهه في الرمال فأسرعنا إليه و إذا بي أرى وجهه و شفتاه و قد علتهما الزرقة
و تبينت أنه لم يكن يتنفس و قد توقفت نبضات قلبه , فقال محمد :" لقد مات تاربوكس و ليس
أمامنا سوى أن نواصل السير ." ولكن تاربوكس لم يكن قد مات فقد بذلت ما في وسعي لمدة عشر دقائق محاولا تحريكه , و كأنما عاد إلى الحياة قائلا :" دعوني و شأني .. اتركوني هنا أريد أن أنام ." و أخذته إغماءة حاولت إفاقته منها و لكن يبدو أنه قد أصيب بضربة شمس شديدة لا ينقذه منها سوى الماء . و تحدث بصوت واهن :" استمروا في سيركم وسوف
أبقى هنا ." تركنا له البطانيتين و أخبرته أن يتبع الطريق في الصباح إذا كان في مقدوره
ذلك , و إذا لم يستطع فسوف نحضر له الماء من بئر ميردوما .

وواصلت أنا و محمد مسيرنا و مرت الساعة تلو الأخرى و بدأ الظلام يخيم علينا و لكننا لم نستسلم و قلنا لأنفسنا يجب علينا أن نصل إلى بئر ميردوما كي نحصل على الماء . و مضى الوقت ثقيلا و اعتقدت أن تاربوكس كان قد مات . و في الساعة الثامنة و النصف ضللنا طريقنا تماما و أخذنا نبحث عنه دون جدوى فلم يكن أمامنا سوى الرمال تحيط بنا من كل مكان .

قال محمد :" لابد أن تاربوكس قد مات ." فقلت له :" إن كان قد مات فعلا فإنه أفضل حالا منا ." و لكن محمد قال بثقة :" علينا ألا نفقد ثقتنا بالله فهو القادر على إنقاذنا ."

فسألته عن المسافة التي تفصلنا عن البحر فقال أنها على مسيرة ثلاثة أيام على الأقل , ولكننا لايجب أن نتجه إلى هناك حيث لا يوجد ماء للشرب .

بدأ محمد يرتل سورا من القرآن علمه إياها والده , وبدأنا نشعر ببرد الليل و لما كنا قد تركنا البطانيتين مع تاربوكس , فلم يكن أمامنا سوى أن نلتصق ببعضنا حتى نشعر بالدفء .

و قضينا ما تبقى من الليل و نحن نرتجف من البرد . و في الصباح كانت السماء ملبدة بالغيوم مما يبشر بنزول المطر فصاح محمد :" إن الله معنا و سنظل أحياء بإذنه تعالى ."

و لكنني قلت له :" لا أحب هذه السحب .. فكيف نهتدي إلى طريقنا و قد اختفت الشمس وراءها ؟ " فرد محمد قائلا :" أعتقد أن الشمال من هذا الإتجاه ." و أخذنا نواصل السير في الاتجاه الذي أشار إليه محمد . و أيقنت أنه على صواب , و قل شعورنا بالعطش بعد أن توارت الشمس بحرارتها وراء السحب . و فجأة رأينا شبحا يرتدى الملابس البيضاء و هو يتجه نحونا

بسرعة, صاح محمد :" أعتقد أنه من البدو ." لم يعد يعترينا أى خوف من البدو .. فملابسنا

كانت ممزقة و كنا نعانى من الجوع و العطش .. لقد كنا على استعداد لمواجهة جميع البدو في العالم دون خوف في مقابل شربة ماء . إزداد الشبح اقترابا فلوّحنا له و لوّح لنا وعدونا كل في اتجاه الآخر و بدأت ملامحه تظهر شيئا فشيئا ... لقد كان تاربوكس , يبدو أننا عدنا إلى حيث بدأنا دون أن نشعر . و سرعان ما تعانقنا و دموع الفرح تملأ عيوننا , لقد كنت أشعر أنا

ومحمد بوخز الضمير لأننا تركناه .. و لكننا تركناه كى نحصل على الماء .

و أخبرنا تاربوكس أنه على ما يرام و كل ما حدث أنه استيقظ في اليوم التالي وقد استعاد نشاطه و بدأ في رحلة البحث عن ميردوما متتبعا الآثار التى تؤدي إلى ذلك البئر .

واجتمع ثلاثتنا مرة أخرى يحدونا الأمل في الوصول إلى وجهتنا .

كانت السماء مازالت ملبدة بالغيوم وكان في مقدورنا تتبع الطريق المؤدي بئر ميردوما .

و بالفعل بدأنا المسير و بعد مرور ثلاث ساعات أراد تاربوكس النوم فرفضت ذلك بشدة و عندما أصر على النوم واصلت طريقي أنا و محمد و تركناه مرة أخرى لينام .
عند الظهر تقريبا وصلنا إلى بئر ميردوما .. و لم تسعنا الفرحة .. أدلينا بالدلو في البئر وبدأنا نشرب الماء على الرغم من ملوحته و اليرقات الموجودة فيه .. و لكنه ماء .. إننا يمكن أن نتحمل الجوع لمدة أيام , و لكننا لانستطيع أن نظل ليوم واحد بدون ماء .
جلست أنا و محمد ننتظر تاربوكس دون جدوى , و ملأنا الدلو بالماء و عدنا نبحث عنه مرة أخرى , و إذا بنا نجده على بعد 100 ياردة يغط في سبات عميق .. فألقيت الماء على وجهه ليستيقظ و قد علته الدهشة لما إنهمر عليه من ماء في وسط الصحراء .
شربنا حتى الشبع و تساءلنا .. ما هى الخطوة التالية و ما يجب علينا أن نفعله ؟
واقترح تاربوكس أن نبقى بالقرب من البئر و سوف يأتى من يبحث عنا و لكنني رفضت هذا الاقتراح , فنحن قد نموت من الجوع إذا إنتظرنا لعدة أيام دون طعام , و لم نكن متأكدين أن الطائرات كانت تحلق في السماء بحثا عنا . و لكن تاربوكس أصر على البقاء بجانب بئر الماء على أن يلحق بنا مع أى شخص يصل إلى البئر .
شربنا أنا و محمد و ملأنا بالماء زجاجة قديمة وجدناها, و بدأنا رحلتنا متتبعين آثار السيارة آملين أن نصل بئر أم الريش بحلول المساء . و قبل الغروب بساعة تقريبا فقدنا آثار السيارة لنجد بدلا منها آثار أقدام للخيول ,و كنا قد أحضرنا معنا الدلو و جزء من الحبل و بطانيتين
و تركنا لتاربوكس جزء من الحبل كي يستخدمه في الحصول على الماء من البئر فقد وجدت علبة صغيرة تصلح لذلك . بادرت محمد سائلا : " ما هي المدة التى يستطيع الحصان أن
يتحملها دون ماء ؟" فرد قائلا :" يومين على الأكثر ." فقلت :" لابد أن آثار الخيول هذه توصل إلى البئر حيث الماء ." و سرعان ما فرغ ما في جعبتنا من ماء , لقد كان يوما شديد الحرارة فقد انقشعت السحب وأرسلت الشمس بأشعتها القوية تزيد الجو لهيبا . و في التاسعة مساءا
و في ضوء القمر شاهدنا أحد المنازل الصخرية القديمة , لقد كان مبنيا من الصخر و يبدو أنه كان ملاذا للكثير من الجنود , و لكننا لم نجد أى أثر للبئر .
أحضر محمد بعضا من عيش الغراب الذي وجدناه و سرعان ما التهمناه , و ازداد الليل ظلمة بعد اختفاء القمر خلف سحابة كبيرة و لم يكن هناك ما نفعله سوى الخلود إلى النوم .
و فى صباح اليوم التالي ارتفعت الشمس إلى السماء لترسل بأشعتها القوية , و ازداد الجو حرارة و ازداد عطشنا .. و بدأنا نشعر باليأس , و أخذنا أنا و محمد نلقى باللوم كل على الآخر في فشلنا في الوصول إلى البئر .
قال محمد :" كان يجب علينا البحث داخل المنزل الصخرى فربما لم نره فى ظلام الليل ."

و نظرت إلى زجاجة الماء الفارغة و قلت :" لقد كان تاربوكس على حق , كان يجب علينا الانتظار بجانب بئر ميردوما ." رد محمد قائلا :" لا يمكن أن نواصل السير كل هذه المسافة إلى النوفليّة التى لن نصل إليها أبدا , فهى تقع في وادى .. فلنعد من حيث أتينا ."
و بالفعل بدأنا نعود أدراجنا متتبعين آثارنا نحن , لقد تملكنا الرعب من الصحراء , و ازداد الجو حرارة بحلول الظهيرة و أصبح العطش غير محتمل . سرنا بين الحشائش الجافة
و الشجيرات و التلال , و من على بعد رأينا إحدى التلال و عليها عدد من الصخور تشبه تلك التى تحيط بالآبار . قال محمد :" أعتقد أن ذلك هو بئر أم الريش , و سوف نذهب للتأكد من ذلك ." كان التل على بعد نصف ميل تقريبا , فبدأنا في التوجه إليه و لكن محمد كان قد تملكه التعب و العطش فجلس ليسترح بينما واصلت أنا المسير .
و على بعد ميل صعدت إلى التل فوجدت أن ما رأيناه لم يكن سوى مقبرة قديمة .
و بدأ العطش الشديد يتملكني , بحثت فى المكان عن أى شئ آكله فلم أجد سوى بعض القواقع الصفراء على الحشائش فحاولت أن أتذوقها و لكنها كانت ميتة و جافة من ندرة مياه الأمطار .
عدت إلى محمد ثم بدأنا سيرنا مرة أخرى .. و مرت الساعة تلو الأخرى حتى تملكنا التعب .
أكلنا بعض الحشائش الجافة و بعض أزهار النباتات الشوكية ... ولكن ذلك لم يعطينا أى إحساس بالماء , و أصبحت ألسنتنا سوداء داكنة ومتورمة , و جفت حلوقنا و لم نستطع حتى الكلام . و توقفنا لمدة ساعة , فلم تكن أقدامنا قادرة على حملنا و فجأة وجدنا تاربوكس يقف أمامنا مباشرة !! لم نكن نعرف أننا على بعد 100 ياردة من بئر ميردوما .
قال تاربوكس :" لقد ظننت أنكما من البدو , لذا قررت الاختباء فأنا لا أستطيع أن أتحدث العربية . " كان تاربوكس عمليا للغاية , فعندما تركناه بدأ يفكر فى كيفية الاستقرار بجانب البئر فحفر كهفا صغيرا ليأوى أليه , ثم أحضر لنا من الماء الكثير فشربنا حتى ارتوينا .
و بقينا ذلك اليوم و لم نتناقش فى مسألة الرحيل من المكان فقد كنا نشعر بالسعادة و نحن
بجانب الماء . و فى المساء زحف تاربوكس إلى كهفه الصغير و أشعل بعض النار ثم خلد إلى النوم , أما أنا و محمد فقد لجأنا إلى الأشجار و أشعلنا النار و غرقنا في سبات عميق .

وفى الصباح التالى أردنا أنا و محمد مواصلة المسير و لكن تاربوكس أصر على البقاء , فافترقنا ثانية و ذهبت أنا و محمد متتبعين آثار السيارة و توجهنا إلى الشمال حيث كان

إتجاه البحر , و تذكرنا ما قاله الجندى الذى اصطحبنا عن المسافة فقد أخبرنا أنها حوالى ثلاثة أميال إلى الساحل . و حقيقة الأمر أن النوفليّة لم تكن تقع على الساحل و لكننا من هناك نستطيع
أن نستدل على الطريق بمحازاة الساحل . و لنتجنب ما حدث فى المرة السابقة اقتصدنا فى شرب الماء و كنا فقط نقوم بوضع القليل من الماء على شفاهنا .
و عند الظهر وصلنا إلى وادى جاف ليس به ماء , و لكن به بعض النباتات الخضراء مما يدل على أنه كان هناك ماء منذ فترة ليست بعيدة فى هذا المكان .
ونزعنا بعضا من تلك النباتات و بدأنا في مضغها مما رطب أفواهنا و قلل من عطشنا .
و اعتقدنا من طول المسافة أن الجندى قد أساء تقديراته , فالمسافة أطول مما قاله , و لكننا استمرينا فى السير بالوادى حتى وجدنا آثار أقدام الجمال .. فتتبعناها لمدة نصف الساعة و إذا بنا نرى منزلا أبيض يظهر من على بعد .. و كان من الواضح أنه لم يكن يشبه المقبرة التى شاهدنا مثلها , و لكنه بدا كمنزل حقيقي يعيش فيه الناس .
كانت زجاجة المياه ما زالت ممتلئة حتى منتصفها فقلت لمحمد :" ما الذى يهمنا الآن ؟ "
فرد قائلا :" هنا يوجد منزل وبالطبع لابد أن يكون هناك ماء , لذا يمكن أن نشرب ما لدينا من ماء دون قلق ." و بالفعل شربنا كل ما لدينا من ماء ثم أخرجت من جيبي 500 ليرة
و قلت لمحمد :" سأعطيك 100 ليرة تشترى بها ما تشاء عندما نصل إلى ذلك المنزل ."
فرد بحماس بالغ :" لابد أن فى المنزل دجاج و بيض و قد نجد لحم ضأن مشوى .. إنه لذيذ الطعم ." واندفعنا في حماسنا هذا إلى المبنى الأبيض , و بدا و كأن الباب موصدا ووجدنا روث للأغنام خارجه مما يدل على أن المنزل لم يكن مسكونا .
طرقنا الباب عدة مرات و لكن لم يكن هناك أثر لأى إنسان , فدفعنا الباب بقوة و دلفنا إلى الداخل .
شاهدنا العناكب و قد انتشرت فى المكان , بينما شاهدنا أحد الأبراص يرتفع إلى السطح ,
وكان الظلام شديدا فى الداخل لدرجة أننا لم نستطع أن نتبين أى شئ خاصة و قد كانت أعيننا
معتادة على ضوء الشمس فى الخارج .
شاهدنا شخصا يرقد بلا حراك على الكنبة الصخرية فى نهاية الحجرة و اقتربنا منه فتبينا أنها جثة لرجل عجوز ذو لحية بيضاء و يبدو أن الوفاة قد حدثت منذ فترة طويلة حتى أن الجثة كانت و كأنها محنطة و كانت اليد تتدلى نحو أرضية الحجرة , بينما شاهدنا أحد المصاحف موضوعا على المنضدة ومفتوحا على سورة يس و هى سورة تقرأ للموتى . و بعيدا فى الركن شاهدنا صندوقا خشبيا به بقايا عظام وأجزاء من حشرات و أجنحة للخفافيش و بعض الريش .

أغلقنا الباب وراءنا وخرجنا إلى ضوء الشمس . تحدث محمد بصوت مرتعش :"
لابد أن هناك بئرا ملحقا بهذا المنزل ." و بالفعل وجدنا البئر على بعد 20 ياردة من المنزل ولكن للأسف كان مليئا بالرمال . تملكنا اليأس ولكننا واصلنا المسير , وعلى مسافة قريبة من المنزل شاهدنا قرية وقد تحولت إلى أطلال ووجدنا الآبار الموجودة فيها وقد سدت . وواصلنا المسير لنجد مقبرة وقد وضعت حولها الصخور وهى تشير إلى جهة مكة و لم يكن على القبور
الأخرى أية صخور بل كان هناك بعض البنادق و المحاريث ... كان الموت يخيم على كافة أنحاء المكان , و فجأة قفز حيوان ابن آوى مبتعدا كما لو كان فوجئ بوجودنا .
و تساءلت من أين يحصل هذا الحيوان على ماء للشرب ؟! و نظرت إلى محمد الذى انتابته نوبة من البكاء و النحيب قائلا :" الآن و قد شربنا كل ما لدينا من ماء و لانستطيع أن نعود إلى
بئر ميردوما .. ماذا سنفعل ؟" قلت لمحمد محاولا التخفيف عنه :" سوف نواصل سيرنا حتى نصل إلى البحر , قد نجد الماء هناك ." فرد محمد بيأس :" و لكن الماء سيكون مالحا ."
أمسكت بماسورة بندقية و فكرت مليا فى صنع جهاز لتقطير ماء البحر بإستخدام الدلو , لم أعرف كيف أنفذ الفكرة و لكن كان يجب علينا أن نحاول .
واصلنا المسير تجاه البحر و ازداد الوادى اتساعا و ازداد خصوبة و يبدو أن هذا المكان كان يسكنه الكثير من البشر , فسألت محمد عن سبب وجود منازل مهدمة فأجاب قائلا :" لابد أن الإيطاليين هم الذين قاموا بهدم المنازل ." سألته :" و هل يكونوا قد دمروا الآبار أيضا ؟"
فرد قائلا :" إنهم يفعلون ذلك كما فى القرية التى قتل بها والدى ." سألته :" و لكن ماذا حدث للناس هنا ؟" رد :" سمح لهم الإيطاليون بالذهاب إلى بنى غازى إذا كانوا يرغبون
فى ذلك .. و قد فعلوا خشية إطلاق الرصاص عليهم ." قلت له :" و ماذا عن النساء ؟"
فرد قائلا :" لا يعرف مصيرهم إلا الله , تزوجت أمى من جندى و لكننى لم أر الآخرين , وهذه إرادة الله ."
ازدادت الحشائش طولا , و كان من الواضح أننا اقتربنا من المنطقة التى يلتقى بها الوادى بالبحر , و فجأة قفز حيوان أصفر اللون من أمامنا فسألت محمد بسرعة":ما هذا ؟
فقال :" إنه فهد وهو خطر للغاية .. علينا الابتعاد بسرعة ."
و قبل الغروب وصلنا إلى البحر بلونه الأزرق .. فشعرنا أننا قد نجونا , لم يكن هناك أثر لإنسان أو لآبار .. لم يكن هناك سوى الصحراء القاحلة .
أخذ البحر يقذف بأمواجه على الساحل وقد تلون بأشعة شمس الغروب الحمراء , خلعنا ملابسنا و سبحنا فى البحر و قد قلل هذا إحساسنا بالعطش , ثم جمعنا كمية كبير من الأخشاب الملقاة على الشاطئ , و حاولنا صنع جهاز لتقطير ماء البحر و

ذلك بغلى كمية من الماء فى الدلو و تكثيف البخار على البطانيات ثم عصرها حتى نحصل على ماء عذب , و لكننا فشلنا, فلم يتجمع أى بخار ولم تمتص البطانية بخار الماء .
أكلنا بعض الحلزون و حمدنا الله أننا بجوار البحر ثم خلدنا إلى النوم . وفى صباح اليوم التالى بدأنا جولتنا على الشاطئ ووضعنا أرجلنا بالماء حتى تشفى من الجروح بعد طول هذا المسير لأيام . و فجأة صاح محمد بحماس شديد :" وجدتها .. وجدتها ." و بدأ يشرح لى كيف كانوا
وهم أطفال يحفرون فى الأرض فى طرابلس بالقرب من البحر و يحصلوا على ماء عذب للشرب , و لكننى تشككت فى الأمر ومع ذلك قمنا بالحفر فى الشاطئ فى عدة أماكن و لكن ما حصلنا عليه كان ماء مالح لايصلح للشرب .

قمنا بإصطياد بعضا من سرطان البحر و أكلناه حتى نحصل على قطرات من الماء , و لكنه لم يكفى لرى ظمأنا . و حصلنا على حلزونات صغيرة و قطعناها ثم تناولناها .. و لكن ذلك لم يكن كافيا و تمنينا لواستطعنا اصطياد أخطبوط أومخلوقات بحرية أخرى .
ازددنا عطشا نتيجة ابتلاعنا الكثير من الماء المالح دون قصد , و بحلول منتصف النهار ازداد الأمر سوءا.
و خطرت لنا فكرة قررنا تنفيذها على الفور , أن نبلل ملابسنا تماما بماء البحر ثم نمشى على الشاطئ بملابسنا المرطبة مما قلل من إحساسنا بحرارة الجو . و فى حوالى الساعة الخامسة عثرنا على خمسة آبار منها أربعة غير صالحة للشرب أما الخامس فعلى الرغم من لزوجة الماء و ميله إلى الملوحة فقد شربنا منه قدر ما استطعنا و ملأنا زجاجاتنا بالماء. ثم قضينا الليلة على الشاطئ بعد أن أشعلنا نارا .
فى الصباح بادرنى محمد سائلا :" متى سنبتعد عن البحر و نتجه إلى الداخل نحو اليابسة ؟" فأجبته :" أنا لا أعرف مثلك تماما , كل ما أعرفه أن النوفليّة تقع على بعد 12 ميلا من الشاطئ , لذا أرى أنه من الأفضل لنا أن نظل بمحازاة الشاطئ حتى نصل إلى طريق يوصل إلى النوفليّة ثم نستمر حتى نجد طريقا للسيارات ."
سألنى محمد :" كم تبعد سرت ؟" فقلت له :" أنها تقع عل البحر مباشرة و من الممكن الوصول إليها ." و لكننا لن نستطيع المسير لمسافة طويلة , فلم نتناول أى طعام منذ سبعة أيام ,
و بالتالى لا نستطيع أن نقطع مسافة 250 ميلا أخرى .. إن هذا يحتاج إلى عشرين يوما على الأقل . قلت لمحمد :" إننى أشعر بالجوع الشديد و لكن يجب علينا أن نواصل المسير نهارا ."

ابتسم محمد قائلا :" إننى أتساءل عما يكون قد حدث لصديقنا الأمريكي تاربوكس .. و لكنه محظوظ أنه ظل بجانب بئر ميردوما حيث الماء الوفير ."

واصلنا المسير بمحازاة الشاطئ و فى حوالى الساعة الرابعة وجدنا صاريا مثبت فى الرمال على تل. . اقتربنا منه لنجد لوحة مكتوب عليها " إلى النوفليّة " و تحتها كتب " الفرقة الثانية فرسان " و قلت لمحمد فرحا :" إنها الفرقة التى يرأسها القائد الموجود فى
النوفليّة." و لكن محمد لم يرد فقد علت الدهشة وجهه .. و فجأة صاح قائلا :" لقد وجدت
بئرا .. و ماءه عذب للغاية ." فعدنا فى اتجاه النوفليّة بعد أن شربنا و ارتوينا .
قلت لمحمد :" لا يفصلنا عن النوفليّة سوى 12 ميلا , نستطيع أن نصل إلى هناك قبل الثامنة مساءا ." امتدت أمامنا سلسلة من التلال كنا نصعد الواحدة تلو الأخرى بينما تزداد التلال ارتفاعا . كان من المفروض أن نكون قد وصلنا إلى النوفليّة, أشار الوقت إلى الساعة الثامنة
و لكن لم يكن هناك أثر للنوفليّة. و من على بعد رأيت هضبة مرتفعة , فاقترحت على محمد أن نصعد إليها و من عليها نستطيع أن نرى أضواء النوفليّة, و لكن محمد التزم الصمت و لم يرد بل بدأ فى النحيب معتقدا أن نهايته قد حانت , فقمت بتهدأته قائلا :" لقد وصلنا تقريبا إلى النوفليّة فلا يجب علينا أن نستسلم لليأس ." و بالفعل تشجع محمد و استعاد بأسه قليلا وواصلنا المسير إلى تلك الهضبة المرتفعة آملين أن نرى النوفليّة من ذلك المكان المرتفع . و لكن للأسف لم نر أى شئ على مرمى البصر و لم يكن هناك أى أثر لنار البدو . هبت الرياح الباردة
و اشتدت ظلمة الليل و تلفت ورائى فلم أجد محمد فارتعدت و ناديته بأعلى صوتى و لكنه لم يرد , فلم يكن له أثر فى ظلام الليل . و ياله من شعور انتابنى فى تلك اللحظة .. وحيدا فى طرابلس فى وسط الصحراء و فى ظلمة الليل بلا ماء و لا مأوى .. و بلا أمل . لقد اختفى محمد . لم يكن محمد سوى صبى عادى قد يسميه الأوروبيون شحاذ قذر و لكن شوقى إليه ملأ
قلبى و كيانى لدرجة الجنون , و إذا لم أعثر عليه فسوف أفقد عقلى تماما ... ماذا تبقى منى ؟؟
كنت مثقفا و متمدنا .. و لكن ما فائدة ذلك فى هذه الصحراء الجرداء !! لم يتبق من الثقافة
و المدنية شئ فىّ , أصبحت رجلا وحيدا يناجى الله العلى القدير أن يهبه قلبا بشريا آخر بجانب قلبه حتى يمكنه تحمل ذلك الفراغ اللانهائى .
و بقيت لمدة خمس دقائق جالسا وحيدا على قمة التل , تعلمت خلالها من الحكمة ما لم أكن أستطيع أن أتعلمه من الفلاسفة الأوروبيين طوال حياتى .. لم تكن الحياة و الموت سوى شئ واحد . عدت أبحث عن الصبى فى ضوء القمر , و على بعد رأيته يرقد فى سلام فى الضوء الباهت , و يغط فى نوم عميق . من الواضح أن محمد شعر بالتعب و الإرهاق فجلس يسترد أنفاسه فغلبه النعاس . نمت بجانبه و قضينا ليلتنا على قمة التل .
ظلت الأحلام تراودنى فى نومى تلك الليلة , فقد أصبح الليل حقيقة و أصبح النهار خيالا . لقد كان عقلى و بالرغم من الظلمة يصور لخيالى جنة الليل , فكلما ازداد

الجسم هزالا وضعفا كلما ازدادت الروح سموا وتحررا من الجسد , لقد كانت أحلامى بها شفافية غريبة .
عندما استيقظنا فى صباح اليوم التالى انهارت معنوياتنا و تملكنا اليأس و أيقنا أن نهايتنا قد حانت , لم يكن هناك بعد كل ما قطعناه من مسافة أثر للنوفليّة التى تقع فى هذا الوادى .
عدنا أدراجنا متتبعين آثار أقدامنا إلى البحر فوصلنا عندما كانت الشمس فى كبد السماء .
مشينا بطول الشاطئ , و عندما تغيرت تضاريس الشاطئ اضطررنا للإبتعاد عن البحر , سرنا
على الصخور التى أدمت أقدامنا , كنا نتجنب المسير عليها و اضطررنا إلى التحرك أميالا
داخل الصحراء , كانت المنطقة تملؤها الشجيرات الطويلة و الأشواك .
شاهدنا الضباع و ابن آوى و هى ترقبنا عن كثب تستعد للانقضاض علينا و افتراسنا حال سقوطنا من الإعياء. و فى حوالى الساعة الخامسة قال محمد و كانت أول مرة يتحدث فيها إلي ذلك اليوم : " علينا العثور على مكان نحفر فيه كهفا نحتمى به . " و لما سألته عن السبب فى ذلك أخبرنى أنه لن يستطيع الاستمرار فى المسير بل يحتاج إلى الراحة فسألته : " و لماذا نحفر كهفا إذا ؟ " فرد قائلا : " حتى نموت فى سلام , نستطيع أن نسد فتحة الكهف بصخرة تبعد عنا الضباع و ابن آوى , فإنها سوف تهاجمنا إذا سقطنا على الأرض . " و بكى محمد بشدة و هو يقول : " و الله أنا لا أخشى الموت فقد علمنى والدى أن أكون مسلما قويا , ولكننى مرتعد من تلك الحيوانات حولنا. " حاولت جاهدا أن أستثير شجاعته التى كنت أنا أحوج ما أكون إليها . عثرنا فى المساء على قنفذ بين الأشجار فقذفناه بحجر فقتلناه و أشعلنا نارا طهوناه فيها , ثم نزعنا قشرته و أكلنا من لحمه الطرى على قدر ما استطعنا .. أكلنا كل ما كان يمكن أكله . و طوال اليوم التالى سرنا لبضعة أميال .. وجدنا بئرا للماء و لكن لم يكن هناك أثر
لإنسان .. و فى الساعة الرابعة وجدنا حصنا على منحدر و عليه صارى لعلم , و لكن لم يكن هناك أعلام .. لقد كان مهجورا . كان هناك حوالى ثلاثين قبرا مما يدل على حدوث معركة فى هذا المكان منذ مدة طويلة . كانت العلب الفارغة و الزجاجات مبعثرة هنا و هناك , و بالقرب من المقابركانت توجد بيوت الضباع و ابن آوى.. و على الأرض نمت بعض نباتات الذرة البرى . فأخذ محمد بغلافها و أشعل نارا قمنا بشوى بعض الذرة فيها .
وعند الغروب .. اقتربت منا الضباع و ابن آوى فأشعلنا نارا طوال الليل حتى تبتعد عنا , ولكنها ظلت تحيط بنا و صوت همهمتها يرن فى آذاننا .
كان اليوم العاشر لنا دون طعام ... و فى الصباح اقترحت على محمد أن نملأ أربع زجاجات بالماء ثم نواصل المسير , فإن لم نجد طريقا نستسلم لواقعنا المر , و لكننا على الأقل نكون قد إبتعدنا عن الضباع وابن آوى .. فوافق محمد . و بالفعل واصلنا المسير حتى الساعة العاشرة صباحا عندما وجدنا طريقا تتبعناه و لكن فجأة .. وجدنا

أنفسنا فى مفترق ثلاثة طرق .. و كان علينا أن نختار واحدا , وإخترنا الطريق الأيسر . و بعد حوالى نصف ساعة وصلنا إلى وادى و فجأة ... رأيت ما اعتقدت أنه هلوسة .. رأينا أسلاك لاسلكى عن بعد , فنظرت إلى محمد بقلق شديد و سألته :" هل ترى ذلك الصارى و عليه أسلاك اللاسلكى ؟ "
فرد بالإيجاب .... إنها النوفليّة!! كانت هناك قافلة وصلت لتوها إلى النوفليّة, أخذ البدو ينظرون إلينا بدهشة بالغة و نحن ندخل من بوابة الحصن , و أعتقد أن مظهرنا كان غريبا ,كنا
حفاة .. ملابسنا ممزقة بالية .. و لون بشرتنا قد تحول إلى البرونزى .. كانت لحيتى قد طالت .
لقد كان آخر ميل أصعب ما واجهنا فى الرحلة .
نظر إلينا الحارس و قد تملكه الرعب , كان يعتقد أننا قد فارقنا الحياة منذ فترة طويلة , فسألته عما إذا كان النقيب دى باولى موجودا ؟ و لكنه التزم الصمت و شق طريقه نحو الضباط .
تجمع حولنا الجنود و قد أخذوا يحملقون فينا .. كان الضباط يتناولون طعامهم فى الداخل .
أخيرا نجونا .. و لكننا لم نكن ندرك ذلك بعد .. فلم نكن نشعر بالتعب , بل كنا نظن أن ما نراه
حولنا حلما ظل يراودنا فترة طويلة . ظل الضباط يحملقون فينا و كأننا جئنا من عالم الأموات .
وصل النقيب دى باولى و نظر إلينا مئات الأشخاص و قد تملكتهم الدهشة و الاستغراب .
بادرت النقيب دى باولى قائلا :" إن تاربوكس موجود فى بئر ميردوما .. إنه يتضور جوعا ."
و فجأة لم أشعر بشئ .. فقدت الوعى .
أفقت عندما قاموا بنثر قطرات من الماء البارد على وجهى , فتحت عيناى لأرى الطبيب يفحصنى و جلس محمد أمامى . و كان هناك طبقا ساخنا من المكرونة .. فاستأذنت الطبيب فى أن أتناول القليل منها , فهز رأسه و قال : " لن تتحمل معدتك هضم الطعام بعد كل ذلك الجوع لفترة طويلة ." أحضر لنا أحد الضباط زجاجة براندى و بعض البيض النيئ , و لكن محمد رفض أن يشرب من البراندى قائلا : " تعلم أنه محرم علينا شرب الخمر ."
فرددت عليه قائلا : " هذا هراء .. من الضرورى أن تشربه .. لذلك فإنه غير محرم شربه , إشرب فإن ذلك سوف يفيدك . " شربنا البراندى بالبيض النيئ . كنا نتوق شوقا إلى المكرونة الساخنة , و لكن كل محاولاتنا فى ذلك باءت بالفشل خوفا على حياتنا .
جلس النقيب دى باولى أمامى على رأس المائدة فسألته : " هل يمكن أن أخرج غدا للبحث عن تاربوكس ؟ " فهز رأسه و ابتسم قائلا :" لا تقلق بشأن تاربوكس إنه على ما يرام .. إنه فى أرجيلا الآن , و سوف يصل إلى هنا فى الصباح أو فى المساء . "

سألنى الطبيب عن المدة التى لم نتناول فيها أى طعام فقلت له :" لم نأكل أى شئ طوال عشرة أيام ." نظر إلى بارتياب و قال :" عشرة أيام !! هذا شئ مستحيل و كيف استطعتم مواصلة المسير ؟ " قلت له : " توجهنا نحو بئر ميردوما بعد أن كنا تركنا السيارة فى وسط الصحراء ثم ضللنا طريقنا فعدنا إلى بئر ميردوما .. و سرعان ما رحلنا منها كى نضل طريقنا مرة أخرى و نهيم على وجوهنا فى الصحراء الجرداء دون طعام .. سرنا بمحازاة الشاطئ لفترة ثم توجهنا إلى النوفليّة." نظر الطبيب إلى محمد الذى كان شديد الهزال و سألنى :" و هل استطاع هذا الصبى الشقى أن يتحمل كل هذا الجوع و العطش ؟ " فداعبته قائلا :" لقد تناولنا بعض الحشائش و الحلزونات كما أننا أكلنا قنفذا ." ضحك الآخرون و علق أحدهم قائلا أن لحم القنفذ ليس سيئا .. و أنه قد تذوقه عدة مرات . نظرت إلى ذلك الرجل الذى تكلم عن القنفذ و سألته :" هل أنت قائد فرقة الخيالة الثانية ؟" فرد بالإيجاب , فاستطردت متحدثا عن لوحة الطريق المكتوب عليها
(إلى النوفليّة) و كيف أنها تشير إلى الإتجاه المعاكس . فرد قائلا :" إن هذه اللوحة قديمة .. إنها تحدد الحدود بين طرابلس و طبرق , و لابد أن الهواء قد غير اتجاهها ."
تدخل النقيب دى باولى قائلا :" من الأفضل لكما أن تخلدا إلى النوم و الراحة , و أعتقد أنكما تحتاجان إلى ذلك ." ذهبت أنا و محمد إلى الحجرة المخصصة لنا , و لكننا لم نستطع النوم من شدة التعب .. و الجوع .. فتسللت إلى المقصف و اشتريت علبتين برقوق و سرعان ما تناولناه ... فأصابتنا آلام فى المعدة .
بدأنا نتحسن قليلا عند المساء , ذهب محمد إلى العرب من الجنود و أخذ يسرد لهم كيفية نجاتنا فقد كان يستشعر بطولته اليوم , بينما ذهبت إلى النقيب دى باولى فى مكتبه , و طلب منى الجلوس و أشار إلى مجموعة ضخمة من البرقيات قائلا :" لقد وصلت كل هذه البرقيات بعد اختفائكم , لقد بحثنا عنكم لمدة أسبوع كامل دون جدوى .. لقد إعتقدنا أنكم فى عداد الموتى ."
قلت له :" لقد كدنا نموت فعلا , و لكن ماذا حدث لتاربوكس ؟" رد قائلا :" خرجت دوريه من الفرسان من هنا متجهة إلى بئر ميردوما , و خرجت دورية جمال من أرجيلا متجهة إلى بئر ميردوما أيضا ووصلت الدوريتان فى نفس الوقت ليجدا تاربوكس و هو يشرف على الموت فأخذوه حيا إلى أرجيلا حيث تعهدوه بالرعاية .. " فسألته :" وهل سيأتى إلى هنا؟"
فأجاب :" لقد أرسل الضابط دى رونكو من أرجيلا سيارتين إلى هنا .. إنهما على وشك الوصول , وكانت الفكرة أن يخرجوا بحثا عنك , و لكن الآن و قد وصلت إلى هنا فمن الممكن إحضار سيارتك , ماذا حدث لها ؟" فاجبته أن السبب فى ذلك كان الإطارات و سألته إذا كان من الممكن أن أبتاع بعض الإطارات من هنا ؟ فرد بالإيجاب و سألنى :" ألا تحب أن تعرف كيف عثرنا على تاربوكس ؟ " قلت له :" أننى أتوق لمعرفة قصة العثور عليه ."
دق النقيب دى باولى الجرس و طلب من الجندى أن يذهب لإستدعاء إبراهيم .. ذلك الجندى الأسمر الذى قابلنا عندما كنا فى طريقنا إلى النوفليّة. و عندما دخل إبراهيم

بادره النقيب دى باولى قائلا :" أخبرنا كيف عثرت على ذلك الأمريكى فى بئر ميردوما ." و أخذ إبراهيم يسرد قصة العثور على تاربوكس و أنا أنصت إليه بشغف بالغ . قال :" وصلنا إلى بئر ميردوما
فوجدنا حذائين يبرزان من الرمال .. يا الله .. لقد أصابنا الهلع و اعتقدنا فى بادئ الأمر أن هناك شخصا ميتا , ولكن عندما حرك أحد الجنود الحذاء المدفون فى الرمال خرج الأمريكى من الكهف الذى حفره فى الرمال , لقد كان يشبه المجاذيب .. و قد علا وجهه الرمال , و أخذ ينظر إلينا كما لوكان ينظر إلى جن !! و عندها سألته عن السيارة و عنك و عن محمد و لكنه لم يكن يعرف مصيركما , و عندما سألته عن سبب اختبائه لم أفهم رده , و لكننى فهمت أنه كان يخاف من البدو .. إنه كان يعتقد أننا من البدو , و لم أستطع فهم أيا من تفسيراته و لكننى قمت بإعطائه بعض الطعام يسد بها جوعه , و بعد ساعة وصلت القافلة الحبشية و التى كانت تتكون من الحبش (الإريتريين) فأخذوه معهم إلى أرجيلا .. و بدأنا عملية البحث عنكما . "
سأله دى باولى :" و لكن أين الخطاب الذى أعطاك إياه ذلك الأمريكى ؟ " خرج الجندى الأسمر و عاد بعد فترة وجيزة و معه قطعة من الورق و جورب .. إنه كان إحدى جواربى الممزقة التى ألقيت بها على بعد 12 ميلا من بئر ميردوما .
كان مكتوب على الورقة " اختفى صديقى و الصبى العربى منذ خمسة أيام فى الصحراء .. أرجوكم حاولوا العثور عليهما ." و بعد أن قرأت الخطاب سألته مندهشا :" و لكن من أين
حصلت على هذا الجورب ؟" فرد قائلا :" نعم يا سيدى.. وجدنا هذا الجورب بعد أن توقفنا عن البحث عنكما .. و اختفت كل آثار لكما ."
و بعد حديثى مع دى باولى ذهبت لمشاهدة القافلة البدوية التى كانت قد وصلت لتوها .. و هى
فى طريقها إلى سرت , فدعانى الشيخ لتناول الشاى فى خيمته , وعرفته بنفسى و أننى
حضرت إلى هنا كى أرى كيف كانت القبائل العربية تعيش فى شمال أفريقيا . كان حديثنا باللغة العربية , و عندما عرف أننى اعتنقت الإسلام ازداد إقباله عليّ وترحيبه بى وبادرنى قائلا :" أسأل الله أن يعيننا .. لقد أصبحت الحياة صعبة للغاية , إننى أتمنى أن يتصرف الإيطاليون معنا برفق , و أرجو أن يعاملوننا كبشر ." سألته :" و لكن إلى أين أنتم ذاهبون ؟ "
فرد قائلا : " إلى سرت و من هناك سنتلقى أوامر أخرى عن المكان الذى يجب علينا أن نتجه إليه . ليس لنا قدرة على المقاومة .. إننا نتضور جوعا ." فسألته :" و لكن ما هى بلدتكم ؟"
فرد قائلا :" إننا من داخل الصحراء , من قلب ليبيا .. لقد كنا نعيش فى أمان منذ شهر واحد فقط .. و لكنهم قاموا بسد الآبار بالأسمنت حتى لا نتمكن من رعى جمالنا , لم يكن أمامنا حل سوى التوجه نحو الساحل و الاستسلام ."

استرجعت الصورة التى شاهدت عليها البدو فى المعسكر خارج سرت و حالة الفقر الشديد التى يعانون منها. و سألنى الشيخ :" ما هى وجهتك ؟" وعندما قلت له أنها طبرق ابتسم
قائلا :" الأمر يمكن احتماله هنا, و لكن هناك فى طبرق حاكم اسمه الجنرال جرازيانى .. البدو
هناك إما يتعرضون لإطلاق الرصاص و إما للشنق ."

و عندما سألته عن السبب إكتفى بهز كتفيه .. ثم صمت برهة و قال :" إنها حرب شديدة هناك , و لكننى أقسم بالله العظيم أنهم سينعمون بهدوء أكثر إذا تركونا نعيش فى سلام , و لكننى لن أحكى لك .. سوف ترى كل شئ بنفسك ." نهضت و مددت له يدى مصافحا , فشد عليها
قائلا :" السلام عليكم .. نشكرك على حضورك لرؤيتنا , أسأل الله أن يحميك من كل شر ."
غادرت معسكر القافلة و قد تملكنى الإحباط و اليأس و أدركت كم كان البدو يحبون النقيب دى باولى و جنوده و كيف كانوا يمدحونهم . لم يكن النقيب دى باولى مجرد جندى لكنه كان إنسانا بكل معنى الكلمة , لقد كان يبذل كل ما فى وسعه حتى يتفهم الناس من حوله
و يتعرف على طريقة تفكيرهم .
وعندما رجعت إلى الحصن قابلت دى باولى و سألته عن المكان الذى سيتجه إليه البدو ,
وعندما عرفت أنهم سيتجهون إلى سرت سألته إن كان هناك حرب فى طبرق ؟ فرد بالإيجاب و لكنه أوضح لي أن تلك الحرب ليس لها علاقة بطرابلس , حيث يعم السلام فيها .
وأوضح كيف أن طبرق وطرابلس مستعمرتان مختلفتان , و أضاف قائلا : " لقد كان السلام يعم هناك لسنوات عديدة و لكن بدأت المشاكل تظهر مرة أخرى .. و يبدو أن السبب هو أنه ليس هناك من يريد أن يتفهم الليبيين ." و فجأة دوى صوت صفارة الإنذار .. فخرج دى باولى و خرجت معه لنطالع الطريق القادم من بئر ميردوما .
سألنى دى باولى :" هل ترى أى شئ من هذا الاتجاه ؟" حملقت فى اتجاه بئر ميردوما .. و رأيت ضوء ا خافتا يأتى من على بعد .
بادرنى دى باولى :" إنه صديقك .. لقد وصل أخيرا ."

اقتربت الأضواء لنتبين أنها ثلاثة سيارات و سرعان ما أضيئت كشافات الحصن حتى تستدل السيارات على الطريق إليها . وصلت السيارات بعد حوالى نصف ساعة .. كان تاربوكس يجلس على المقعد الأمامى و بجانبه ضابط إيطالى و معهم مجموعة من الجنود الإريتريين.
توقفت السيارات و نزل تاربوكس و تهلل وجهه فرحا عندما رآنى و بادرنى بالسؤال عن محمد و عندما رآه تنفس الصعداء قائلا :" لقد كنت أتخيل أن الموت قد قضى

عليكما .. و لكن الآن أشكر السماء على أننا تجمعنا مرة أخرى ." و عندما حضر الضابط الإيطالى الذى كان تاربوكس برفقته أخبرنى بأن تاربوكس أراد أن يخرج للبحث عنكما مباشرة .. و هذا سر إعجابى به . أخبرت تاربوكس بما حدث لنا فى الصحراء و ما عانيناه , و كيف أشرفنا على الموت , فرد قائلا :" لقد كانت ظروفا مريرة لكلينا , لقد كنت أجلس فى انتظار أن يأتى أحد دون جدوى , حتى أول أمس عندما وصلت الدورية و أخذتنى إلى أرجيلا على ظهر جمل ."
تعجبت لذلك فلم يركب تاربوكس جملا فى حياته من قبل , و عندما سألته :" هل وجدت ركوب الجمل ممتعا ؟ " رد بضيق :" لا .. لقد كان فظيعا لقد كدت أموت على ظهر ذلك الجمل ,
و أصبت بدوار البحر .. فقد كان ركوب الجمل مثل ركوب سفينة فى بحر هائج , لم يكن هناك سوى جنود أريتريين , لم أتبادل معهم و لا حتى كلمة واحدة !! و لكن كل شئ انتهى الآن , نحن على ما يرام ما دمنا سويا ." ذهبنا إلى داخل مقصف الضباط . سألنى الضابط :" هل
لديك مانع إذا بدأنا رحلتنا فى الصباح الباكر ؟" فرددت عليه قائلا :" و لماذا الانتظار حتى
الصباح ؟ إننا نريد أن نبدأ رحلتنا بأسرع ما يمكن ." وسألته :"كيف كانت رحلتكم ؟ "
رد قائلا :" لقد كان الطريق رهيبا ." و أضاف دى باولى قائلا :" آخر مرة وصلت سيارة إلى هنا قادمة من أرجيلا كان منذ خمس سنوات ." قال الضابط :" سوف نحاول العثور على السيارة .. و لكننى أعتقد أن البدو قد أحرقوها , على أية حال سوف نرى بأنفسنا ."
قررنا قضاء الليلة فى الحصن .. و لكننى لم أنعم بنوم هادئ فقد اعترانى القلق , و على الرغم من أننى كنت أنام على سرير مريح و لدى من الطعام و الشراب ما يكفينى لكن بمجرد أن أغمض عيناى تراودنى الأحلام بأننى تائه فى الصحراء الحارقة .. و قد أصابنى العطش .
لقد كانت أحلامى أشد مما عانيت فى الحقيقة , فاستيقظت من أحلامى كى أنعم بشربة ماء
و أعاود النوم و لكن استمرت تلك الأحلام المزعجة .
استيقظنا فى الصباح و سرعان ما ركبنا السيارات مع الجنود الأريتريين المسلحين بالمدافع الرشاشة و بدأنا رحلتنا فى نفس الطريق الذى سلكناه منذ عشرة أيام . جلس بجانبى رقيب يدعى مصطفى يتحدث العربية بوضوح و لكن يبدو أن الأريتريين لم يفهموا ما كان يقوله .
نظر إلىّ قائلا : " لاشئ يخيفنى سوى هؤلاء البدو القذرين ." سأله أحد الجنود :" و هل قابلت أحد منهم يا مصطفى ؟" فرد مصطفى قائلا :" لقد قابلت منهم الكثير .. و قد أخبرتك بذلك عدة مرات , يبدو أنك لا تنصت إلا لأصوات النساء فى أرجيلا ."
ضحك الآخرون و استطرد مصطفى قائلا :" لقد حاربت ضد السنوسيين عندما كان

الإنجليز يقاتلون إلى جانبنا .. تلك كانت الحرب الحقيقية , أما الآن فلا وجه للمقارنة .
إننى أتذكر معركة دارت بيننا و بين بعض
البدو , لقد شاهدتهم و هم يقتربون و يرفعون بنادقهم فى الهواء .. صوبت بندقيتى و أصبت قائدهم فى مقتل فسقط من على جواده .. و صوبت مرة أخرى .. " عندئذ
صاح أحد الجنود
محذرا : " بدو .... بدو .. " فوجئت أن مصطفى قد شحب وجهه و تملكه الخوف الشديد , رفع الضابط نظارة الميدان ونظر فى الصحراء ليتبين أن البدو لم يكونوا
سوى قطيع من
الغزلان .. ! استرد مصطفى أنفاسه و لم يقص علينا أية حكايات أخرى من بطولاته الزائفة .
وصلنا إلى بئر ميردوما عند الغروب , كانت الآبار مهجورة كما تركناها , ووجدنا دلو و قطعة من الحبل كنا قد تركناها لتاربوكس . أضأنا مصباحا ووضعنا مدفعا رشاشا فوق التل ثم خلدنا إلى النوم . وفى الصباح بدأنا عملية البحث عن السيارة متتبعين الطريق و عمره ثمان سنوات و هو يؤدى إلى واحة مهجورة فى الصحراء الليبية . سألت الضابط :" كم تبعد هذه الواحة عن بئر ميردوما ؟ " رد قائلا :"
حوالى 300 ميل ." لقد حالفنا الحظ فعلا عندما قررت أنا
و محمد العودة منذ عشرة أيام , فلم يكن لدينا وقودا كافيا لقطع هذه المسافة .
قال الضابط :" إذا كان البدو قد عثروا على السيارة فسوف يقومون بحرقها ." و لكن تاربوكس كان أول من رأى السيارة من على بعد .. لقد كانت سليمة !! كانت على نفس الحالة التى تركناها عليها . قمنا بإصلاح الإطارات و ركبت أنا و محمد السيارة و اتجهنا إلى بئر ميردوما و منه توجهنا إلى أرجيلا . و فى الساعة العاشرة مساءا وصلنا إلى أرجيلا , و قد كانت حصنا يشبه حصن النوفليّة, و يتولى قيادتها المقدم دى رونكو , لقد استقبلوا الضابط الصغير الذى كان يقود القافلة استقبال الأبطال فقد كانت المنطقة التى اخترقناها فى طريقنا من النوفليّة إلى أرجيلا من أخطر المناطق على الإطلاق . و لكننا ضللنا طريقنا فيها أنا و محمد و لمدة أحد عشر يوما و لم نر أثناءها أى أثر لبدوى .. كان هذا الأمر صعب الفهم .
كان الفرق واضحا هنا فى أرجيلا عنه فى النوفليّة.. لم يكن هنا أى جنود من العرب , كان الجنود من مستعمرة إريتريا الإيطالية .
سألت المقدم دى رونكو عن سبب عدم استخدامهم جنود عرب و استبدالهم بجنود من أريتريا , فرد قائلا :" لا نستطيع أن نثق فى الجنود العرب .. الذين يؤمنون بدين
محمد
و لكننا نعتمد على الإريتريين و هم من المسيحيين الذين يمكن الاعتماد عليهم
و هم لا يحبون الجنود العرب ." فقلت له معقبا :" أعتقد أن العرب هنا لايحبون
العمل
كجنود إذاّ." رد قائلا : " الأمر مختلف عن طرابلس .. هناك كراهية شديدة بين
العرب

و الإريتريين .. إننى أتذكر قصة حدثت منذ ثلاث سنوات عندما أمسك الإريتريون بثلاث من البدو و أحرقوهم و هم أحياء." اقشعر بدنى لما سمعت و سألته :"
أحرقوهم وهم أحياء ؟!"
قال : " نعم .. أشعلوا نارا فى الهواء الطلق ثم وضعوا البدو فيها و هم أحياء. "
فسألته : " و لكن ألم يعاقب الإريتريون على ذلك ؟ " فرد قائلا :" لا لم يعاقبوا على ذلك .. إن الإريتريين هم أشجع جنودنا .. ليس هناك أخلاقيات فى هذه الحرب , لا يمكن أن تكون رحيما مع أعدائك . " و كان ذلك هو أسوأ انطباع لى .
لقد ظل تاربوكس يعانى المتاعب فى جهازه الهضمى من جراء الإقامة فى بئر ميردوما , لذا قررنا تركه عندما نصل إلى بنى غازى حتى يمكن علاجه .

أقمنا فى أرجيلا يوماً واحداً و حصلنا على احتياجاتنا من الوقود و الطعام , ثم بدأنا رحلتنا إلى أجدابيا على بعد 200 ميل من أرجيلا .. و قد كان الطريق مشابها للطريق الذى سلكناه من قبل , لذا كان من الصعب أن نضل طريقنا مرة أخرى .
وفى صباح يوم 29 مارس كنا على أهبة الاستعداد .. و معظم الضباط فى راحة , و لكن استيقظ المقدم دى رونكو خصيصا حتى يكون فى وداعنا .
و عندما بدأنا فى السير بالسيارة لحق بنا أحد العرب و هو يلتقط أنفاسه بصعوبة قائلا :" هل ممكن أن تصحبوني في السيارة ؟ " نظرت إلى السيارة .. كم كانت محملة بالمؤن
و الوقود !! , لم يكن هناك موضع لقدم فيها , فقلت له : " أنظر بنفسك .. ليس هناك أى مكان لك فى السيارة . " عرض محمد أن يفسح مكانا و يركب إلى جانب تاربوكس فى المقعد الأمامى , فاعترضت قائلا : " لن نتمكن من السير بسرعة .. و الإطارات غير سليمة ,
و ليس لدينا إطار احتياطى .. لقد كانت حالة الإطارات سيئة للغاية ."
قال الأعرابى : " و لكننى أستطيع أن أساعدكم إذا دعت الضرورة ." وافقت على أن يركب السيارة معنا و بدأنا رحلتنا نحو أجدابيا على أن نصل إليها عند المساء .
كانت المنطقة منبسطة تغطيها شجيرات كثيفة .. كانت هناك بعض البحيرات الجافة تعلوها حبوب الملح المتبلرة الجافة . قطعنا حوالى 60 ميلا فى ساعتين , كان لدينا من الماء حوالى خمسة جالونات . قال الأعرابى :" من المستحيل الحصول على الماء فى هذه المناطق , لقد تم ردم كل الآبار هنا .. غير مسموح للبدو بالإقامة هنا , إنهم فى حالة حرب مع الإيطاليين هنا ."
سألت الأعرابى عن القرية المهجورة التى مررنا عليها فى طريقنا و عن سكانها و أين ذهبوا
فرد قائلا : " لا يعلم مصيرهم إلا الله .. قد يكونوا فى سرت و قد يكونوا فى عداد الأموات إذا كانوا أصروا على عدم الاستسلام ."
تحدث محمد إلى الأعرابى و أخبره عن تلك الجثة التى وجدناها فى المنزل المهجور القريب من الساحل . فرد قائلا : " لابد أنه من الأولياء .. لقد آثر البقاء إلى جانب القبور الموجودة هناك , و عندما سدت الآبار .. مات من شدة العطش . " بادرت

الأعرابى بسؤال : " و لكن ما سبب ذهابك إلى أجدابيا ؟ " فرد قائلا : " إن لى متجرين فى كل من أرجيلا و أجيدابيا ..
و باقى أربعة أيام على تحرك أول سيارة إلى هناك , لذا قررت أن ألتحق بكم فى رحلتكم توفيرا للوقت , و لكن هل أنت إنجليزى ؟ " أخبرته عن بلدى و من أين أتيت .
و عندما حان وقت العشاء أوقفت السيارة و نزلت لألقى نظرة على الإطار الأمامى .. لم يكن مظهرها الخارجى يوحى بالاطمئنان .. فقد كان من الممكن أن تنفجر فى أى لحظة .
ذهب التاجر الأعرابى لأداء صلاة الظهر و تبعته فى ذلك و بعد انقضاء الصلاة نظر إلى و قد علت وجهه الدهشة : " لم أكن أعرف أنك مسلما .. و لكنك تشبه المسيحيين ".
فقلت له مبتسما : " تستطيع أن تحكم بنفسك الآن .. لقد قضيت عشرة أيام فى الصحراء أحسست أن كل يوم فيها هو آخر يوم فى حياتى .. لقد ترسخت فى نفسى حقيقة الإسلام
كما هى عندك الآن . " فرد سائلا : " و لكن هل كنت مسيحيا قبل ذلك ؟ "
قلت له : " نعم .. و لكن المسيحيين فى تدهور مستمر فى بلادى الآن , لقد فقد الكثير من
الناس إيمانهم ." رد قائلا : " و هل ينكرون وجود الله ؟ " فأجبته قائلا : " نعم. "
فسألنى : " و لكن ما هى قصة اعتناقك الإسلام ؟ " فرددت عليه بثقة : " بدأت أتعرف على
الإسلام عندما بدأت أتعلم اللغة العربية .. ثم ازداد اقتناعى أكثر و أكثر و ازددت تعمقا فى معرفة الإسلام حتى اقتنعت بهذا الدين تماما ." فسألنى : " و لكن ما الذى زاد من اقتناعك
به ؟" قلت له : " إن الإسلام هو دين الوضوح و الشفافية .. فإذا عملت بتعاليمه فإنك تزداد
قربا من الله .. ليست هناك ديانة أخرى بهذا الوضوح . " أومأ الأعرابى برأسه موافقا على
كل ما قلته , ثم قال : " أنا سنوسى , هل تعرف هذه الطائفة ؟ " و عندما أجبته بالنفى رد قائلا :" سوف تعرف الكثير عن السنوسيين هنا فى برقة , لقد أنشأ سيدى أحمد السنوسى طائفة السنوسيين و هو أحد تلاميذ سيدى أحمد إدريس و هو من مكناس بالمغرب , إننا نتبع كلمات المسيح عندما سئل " أين تعلمت الحكمة ؟ " فقد ابتسم المسيح و رد قائلا " لم يعلمنى أحد الحكمة و لكن الله علمنى إياها .. و لكننى تعلمت أيضا أن أطهر نفسى مما أراه فى الآخرين " إن هذه الكلمات هى تعاليم السنوسى .. إنك تقترب من الله وتسمو روحك و ترتقى بأن تجعل الشعر و الفن يسموان بروحك و ينقياها .. فتصبح قادرة على الإحساس
و رؤية الله ."

قلت له : " إن هذا ما تردده الصوفية ." رد قائلا : " لقد كان سيدى أحمد السنوسى صوفيا أيضا ." سألته : " و لكن هل نشر بعضاً من تعاليمه هنا ؟ " فأجاب بسرعة : " بالطبع لقد فعل ذلك , إن الكثيرين هنا يعتبرون السنوسى أستاذا لهم, و لكن القليل منهم يتبعه ."
و تنهد مضيفا :" من الصعب أن تتبعه هنا, الإيطاليون يقضون على كل ما هو سنوسى هنا. "
تناولنا طعام الغداء وواصلنا الرحلة و فى الساعة الثانية انفجر الإطار الأمامى و لم يمكن إصلاحه , لذا كان يجب أن نواصل المسير حتى إجدابيا .. وضعنا فى الإطار حشائش حتى نستطيع السير . و بالفعل تحركنا ببطء نحو أجيدابيا و لكن بقى أمامنا حوالى 60 ميلا إلى هناك عندما قاربت الشمس على المغيب , فقررنا التوقف و إعداد الخيمة للمبيت , فقد كان لدينا ما يكفينا من الماء و المؤونة . ذبحنا دجاجتين ووضعناهما فى وعاء لصنع الحساء , و عند الغروب تماما لمح محمد ثلاث رجال يركبون الجمال و هم يتجهون نحونا .. لم نتبين ملامحهم بسهولة , و لكن عرفنا من بنادقهم الطويلة أنهم من البدو .. كانت العادة أن يضعوا المناديل حول وجوههم . وعندما وصلوا ترجلوا من على الجمال و أخذوا يتحدثون مع بعضهم البعض .
خرج التاجر الأعرابى لملاقاة البدو قائلا : " من الأفضل أن أذهب وأتحدث إليهم . " تقدم نحو البدو و هو رافعا يديه و سرعان ما اقترب منهم وأخذ يتحدث إليهم . و علق تاربوكس قائلا : " لقد حالفنا الحظ أن أحضرنا ذلك الأعرابى معنا .. وإلا كان موقفنا فى وضع سئ . "
قضى الأعرابى مع البدو بعض الوقت ثم عاد واستدعانى حتى أتحدث إليهم . كان قائدهم
طويل القامة ذا عيون سوداء .. نظر إلي متفحصا و سألنى : " هل أنت مسلم فعلا ؟ "
فرددت عليه قائلا : " أقسم بالله أننى مسلم . " ففاجأنى بسؤال آخر مشيرا إلى تاربوكس : " و ماذا عن الأجنبى الآخر الموجود معكم ؟ " قلت له :" ربما يكون مسيحيا ."
قال : " و لكن هل هو إيطالى ؟ " فأجبته : " قطعا لا ." سألنى :" و هل أنت متأكد أنه لن يتحدث عن مقابلتنا هذه ؟ " قلت له :" إننى أعتبر نفسى مسئولا عن ذلك .. لن يتحدث لأى شخص عن هذه المقابلة ." نظر إلي الأعرابى قائلا : " من الضرورى الاحتفاظ بهذا الأمر سرا عندما نصل إلى أجدابيا و إلا خرج الإيطاليون بطائراتهم بحثا عن البدو . "
أومأت موافقا و نظرت إلى القائد قائلا : " أستحلفكم بالله أن تأكلوا معنا .. إن طعامنا جاهز."
ربطوا الجمال بجانب الخيمة , و تركوا البنادق على ظهورها .. طلبت من محمد أن ينتظرنا على مائدة الطعام , و كان سعيدا جدا بذلك . أشعل نارا للمعسكر .. و سرعان ما جلسنا حولها .. أخيرا . سنحت لى الفرصة أن أتفحص ضيوفى عن قرب , كان قائدهم عربى أصيل يبلغ حوالى 30 عاما , كان وجهه و عيونه يعلوهما الهدوء

الذى تكسبه الصحراء لقاطنيها .. كان طويل القامة قوى البنيان , بينما ظهر الآخران و كان بهما مسحة من السود . سألنى :"من أين أتيت؟ " أخبرته عن رحلتى بالسيارة عبر أفريقيا ابتداءا من مراكش .. وأخبرته عن قتال
عبد الكريم البطولى , و الإشاعات التى تحيط به فأظهر بعض الاهتمام و بادرنى سائلا :" فى مراكش .. عبد الكريم يقاتل قتال الأبطال .. ما هى أخباره ؟" أخبرته عن هزيمة عبد الكريم ووقوعه فى الأسر . فرد بحماس :" الله هو العادل .. هذا هو الحال في كل مكان, لقد أوشك الإسلام أن يمحي من الوجود. " قلت له محاولا تهدئة ثورته :" ليس الأمر بهذا السوء , و لكن الإسلام سوف يخرج منتصرا من كل هذه الظروف .. لقد بدأ ينتشر فى الهند
و الصين و أوروبا . "
رد البدوى قائلا : " و لكن الأمر هنا سئ للغاية .. إن أعدادنا تقل يوما بعد يوم , قرانا تدمر , نساؤنا تؤسرن , لا نملك ما نفعله أمام آلات الإيطاليين الشيطانية . " سكت لبرهة ثم استطرد قائلا : " لقد قبضوا على اثنين من رجالنا و سوف يقومون بشنقهما .. الله هو العادل . "
سألته : " من أين أتيت ؟ " رد قائلا : " من الكفرة إنها أكبر واحة فى الصحراء الليبية وهى ما زالت تنعم بالحرية .. و لكننا جميعا نحمل السلاح لحماية أنفسنا ضد الإيطاليين .. إننا نتوقع وصولهم إلى هناك فى كل وقت , لقد كنا مجموعة من المقاتلين و لكن أعدادنا تقلصت , فمنا من قتل و منا من شنق . "
خرج محمد وهو يحمل إناء به ماء كى نغتسل منه .. و عندما رآه القائد نظر إلي متسائلا : " و لكن هذا من البدو .. من أين أتى ؟ " حكيت له قصة محمد كما حكاها لى فنظر إليه القائد سائلا : " من هو والدك ؟ " رد محمد : " حامد بن عبد العزيز من المروك ."
نظر البدوى إلى محمد قائلا : " لقد كان والدك مسلما صالحا .. حاول أن تسير على خطاه
و سوف يكون الله معك ." ابتسم محمد و امتلأ زهوا بما سمع .
سأل البدوى محمدا : " و لكن ما هى وجهتك الآن .؟ " رد محمد قائلا : " سوف أذهب إلى
بنى غازى .. لى عم هناك و سوف أقيم معه . " تناولنا العشاء و شربنا أكواب الشاى , ثم خلدنا إلى النوم داخل الخيمة .. بينما نام البدو الثلاثة خارجها بعد أن التحفوا بالبطانيات فوق الرمال . وفى الصباح و قبل شروق الشمس صلينا الصبح فى جماعة , أمّنا فيها قائد البدو
و بعد نصف ساعة ركبوا جمالهم و سرعان ما اختفوا عن الأنظار .
تحركنا بالسيارة ببطء ووصلنا إلى أجدابيا فى المساء و هناك دعانا الأعرابى للإقامة فى منزله لبضعة أيام . لم تكن أجدابيا سوى مدينة صغيرة تسيطر عليها القلعة المحاطة بالأسلاك الشائكة من كل جانب . و فى اليوم التالى لوصولنا كانت المشانق قد نصبت فى منتصف الميدان كنوع من التحذير و الردع لكل السكان العرب , فقد كانت عمليات الإعدام تتم علنا .

كان من المقرر إعدام اثنين من البدو شنقا .. و بالفعل و فى الصباح وقبل الشروق اصطفت مجموعة من الجنود الإريتريين فى الميدان حول المشانق .. كانوا يرتدون الزى العسكرى
و الطرابيش الطويلة الحمراء بينما وضعوا صلبانا من الفضة حول أعناقهم , وقفوا ببنادقهم يعلوها السونكى .. لم يكن هناك أثر للعرب , لقد آثروا البقاء فى بيوتهم .
أحضروا البدويين .. كانا نحيلا الجسم يبدو عليهما البؤس الشديد و كانا مقيدين بالسلاسل , لم يبدو عليهما أى خوف من الموت , لقد كانا متماسكين تماما .. و عندما وقفا أسفل المشانق أخرج أحد الضباط ورقة مكتوبة و أخذ يقرأ صحيفة الاتهام قائلا :" نظرا لخروجكما عن النظام و اشتراككما فى تمرد , قررت المحكمة إعدامكما شنقا . "
بعد أن تلا الضابط صحيفة الاتهام .. قرعت الطبول .. تصافح الرجلان فى هدوء و اتجها كل إلى مشنقته .. و التفت الحبال حول أعناقهما , لم يبديا أى نوع من المقاومة .. سرعان ما تدلت جثتاهما فى الهواء .. و لم نر سوى بعض التشنجات .. ثم انتهى الأمر .
وقف أحد الجنود الإيطاليين وهو يشاهد عملية الإعدام وهو يدخن سيجارته .. قائلا : " لا روح فى هؤلاء البدو .. هؤلاء الكلاب .. لم يأبهوا الموت. " إنسحبت فرقة الإعدام على أصوات الموسيقى .
وفى صباح اليوم التالى ركبنا السيارة وواصلنا رحلتنا مرة أخرى بعد أن اشترينا إطارا جديدا .
كان الطريق رائعا .. و بعد 6 ساعات وصلنا إلى بنغازى و هى عاصمة طبرق .. لقد إنتهت رحلتنا عبر الصحراء الليبية . كانت بنغازى وطرابلس متشابهتين فى كثير من الجوانب .. فقد كان يتوسط كل منهما ميدان كبير .. تعلوه الحداثة التى أحضرها الإيطاليون , كانت الأحياء العربية فيها متميزة , ترى صور موسولينى فى كل مكان فيها . تنتشر فى كل منهما الفنادق الفخمة التى تضاهى فنادق أوروبا فى فخامتها .
هناك حقيقة لايمكن إنكارها .. و هى أن الإيطاليين قد ساهموا فى إضفاء لمسة الحضارة
على بنى غازى .. فقد كانت فرقة الأوركسترا تعزف الموسيقى فى الحى الإيطالى كل مساء
فى تمام الساعة الرابعة بعد الظهر .
كان الإيطاليون يجلسون فى المطاعم الممتدة على الأرصفة و هم يرتدون الملابس الإيطالية و قد علت أزرتها علامات الفاشية, كان معظم رواد المطاعم من الضباط على عكس ما فى طرابلس .. فالضباط ينتشرون فى كل مكان و هم يرتدون أحذيتهم الطويلة , و تعلو صدورهم النياشين , وسيوفهم تلمع فى ضوء الشمس . كان الجنود الإريتريون يندفعون بينهم و هم يحملون البرقيات و الخطابات .عندما توجهنا نحو الحى الإيطالى كانت الساعة تشير إلى الرابعة.

كانت سيارتنا شبه محطمة , لقد كانت تحتاج إلى عملية إصلاح شاملة .. الأبواب ..
الرادياتير .. الشاسيه .. لقد كان يبدو علينا آثار السفر, فملابسنا العربية و التى أثارت دهشة
الإيطاليين .. لم تكن نظيفة , رؤوسنا يعلوها الرمال و الغبار , كانت وجوهنا تكسوها
حمرة شمس الصحراء . كان الضباط ينظرون إلينا من خلال نظاراتهم باهتمام بالغ ,
واجهنا بعض الصعوبة فى استئجار غرفة نستريح فيها بعد كل هذه المعاناة فى
الصحراء . كان علينا أن نأخذ قسطا من الراحة قبل أن نخترق الجبال نحو برقة .
بدأ الحال يتغير قليلا .. فتاربوكس كان يود العودة إلى أوروبا خاصة بعد المتاعب
التى شعر بها فى جهازه الهضمى , أما محمد فلم يكن متأكدا إذا ما كان سيبقى مع
عمه فى بنغازى
أم لا .. و بمجرد دخولنا بنغازى اتفقنا على أن أواصل رحلتى بمفردى .
اغتسلنا وحلقنا وبدّلنا ملابسنا وجلسنا فى أحد المطاعم المنتشرة على الأرصفة ..
عندما وصل السنيور بومباردى .. كان السنيور بومباردى من البندقية .. و بالطبع لم
يكن كالعسكريين الإيطاليين الفاشيين . و كان نادرا ما يتحدث فى السياسة .. أحسست
أن فى هذا الرجل قلب طفل .. لقد كان يحبس نفسه فى حجرته حتى لايشهد أى
عمليات إعدام للبدو كما كان يفعل معظم الإيطاليون .. لقد كانوا يسجلون لحظات
الإعدام بكاميراتهم . تلك العمليات التى كانت تتم بصورة شبه يومية فى بنغازى , لم
يكن السنيور بومباردى يعرف سببا أو مبررا لتلك العمليات, لقد انفرد بطبيعته الطيبة
عن بقية الإيطاليين فى بنغازى .. لقد كان يؤمن بأن العرب من البشر الذين يجب
احترامهم ,لم يكونوا يستحقون الشنق .
بينما كنت أناقش ذلك الأمر مع السنيور بومباردى قال لى : " إننى من البندقية وأثناء
الحرب

إستولى النمساويون على المدينة .. و لك أن تتخيل لو كانوا قد قاموا بشنق كل من
يعارضهم ..
لقد كنا جميعا نحاربهم ."
كان السنيور بومباردى طويل القامة ممتلئ الجسم .. أتى إلى حيث نجلس وأعطانى
بطاقته
" إنريكو بومباردى .. ممثل شركة شيفروليه فى بنغازى" سألنى : " من أين أتيتم ؟
"
حكيت له كيف انتقلنا بالسيارة فى الصحراء الليبية , وكم كانت دهشته و حماسه
لسماع القصة كلها .. و علق قائلا : " إنكم قمتم بأكبر دعاية لشركة شيفروليه .. هلا
سمحتم لى بإصلاح سيارتكم ؟ .. سوف أصلحها بأقل التكاليف . " أخذوا السيارة إلى
الجراج لإصلاحها بعد استئذانى , بينما استكملت سرد قصتنا للسنيور بومباردى الذى
أبدى دهشته الشديدة وعلق

قائلا : " إن هذا شئ مرعب .. إن هذه القصة لم تحدث من قبل وسوف أقوم بتقديمك إلى محرر جريدة طبرق هنا فى بنغازى وأعتقد أنه سيرحب بكتابة قصتكم فى جريدته ."

و بالمصادفة وصل المحرر فى تلك اللحظة و بدأت أعيد سرد تلك المغامرة فى الصحراء الليبية عليه مرة أخرى . و فى المساء بدأت آثار الرحلة تظهر علينا و حل بنا التعب الشديد

ذهب محمد إلى منزل عمه بينما خلدت أنا و تاربوكس للنوم .

ظهرت الجريدة فى صباح اليوم التالى و منشور بصفحتها الأولى قصة رحلتنا فى الصحراء الليبية .. لقد أصبح محمد مشهورا .

أتى إلي محمد فى الفندق و هو يدخن سيجارا و قال لى : " لن أسافر معكم ثانية ."

فسألته و قد تملكتنى الدهشة : " و لم لا ؟ " رد محمد قائلا :" لقد حصلت على وظيفة ممتازة

وبمرتب مائتى ليرة فى الشهر , أما عن الإقامة فسوف أقيم مع عمى . "

لم أستطع أن أقنع محمد بأن يظل معنا فى رحلتنا .. فقد حزم أمره .. فودعته و كان هذا آخر لقاء لنا .. فلم أره ثانية .

بعد ساعة صعد مدير الفندق السنيور مالفسيني إلى حجرتى يستدعيني لمقابلة رئيس الشرطة .

و بالفعل ذهبت إلى مقر الشرطة و هناك طلبوا منى الانتظار حيث كان هناك الكثير من الناس

كانت هناك نساء محجبات يجلسن مع أبنائهن فى حجرة الانتظار و قد أحضرن طعامهن معهن مما يدل على طول فترة الانتظار . كان هناك تجاراً من اليهود يجلسون على الأرائك , و عندما طالت فترة إنتظارى لأكثر من نصف ساعة .. نفذ صبرى و عبرت عن ضيقى للمسئولين ولكنهم أخبرونى بأن عليّ أن أنتظر حتى يحين دورى لمقابلة مدير الشرطة .

مر الوقت ثقيلا .. الساعة تلو الساعة .. و لم أتناول طعام الغذاء , كان الشرطى ينظر إليّ كما لو كنت مجرما خطيرا . . فلم أكن أتحدث باللغة الإيطالية كما هى العادة .

وصل مدير الشرطة فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر .. يحمل نياشينه على صدره و يتبعه مساعده الصقلى .. كان المفروض أن يقوم المساعد بترجمة الفرنسية إلى الإيطالية , و لكننى اكتشفت أن هذا المترجم لم يكن يفهم الفرنسية على الإطلاق .. مما جعل التحقيق فى الشرطة صعبا للغاية . سألنى مساعد مدير الشرطة : " من أين أتيت ؟ " قلت له : " من طرابلس. "

رد بحدة : " و لكنك لم يكن لديك تصريح بالتنقل بالسيارة . " لم أفهم ما قاله لى فقد كان حديثه خليطا من الفرنسية و الإيطالية , وطلبت منه أن يكرر ما قاله و لكنه غضب غضبا شديدا .

قال لى : " إنك أخطأت بحضورك إلى هنا دون أن تتحدث الإيطالية . " و كرر ما قاله بالنسبة للتصريح . أخرجت له جواز سفرى وعليه التصريح المطلوب .. قرأه و أعطاه إلى مدير الشرطة ليطلع عليه . وضع مدير الشرطة نظارته على عينيه و أخذ يتفحص التصريح , هز كتفيه ووضع جواز السفر على المنضدة و نظر إلى قائلا : " لماذا لم توافينا هنا فى الشرطة بمجرد وصولك إلى بنغازى ؟ " قلت له : " لم أكن أعرف أن ذلك أمر مطلوب . "
رد متحديا : " سوف أمنعك من الاستمرار فى رحلتك . "
رددت عليه بهدوء : " ليس فى نيتى أن أرحل من هنا دون تصريح . "
قال مدير الشرطة : " إننا نراقبك منذ وصولك .. لماذا تتحدث العربية ؟ "
قلت له : " إننى مهتم بالثقافة العربية ."
رد متهكما : " ثقافة .. أى ثقافة تلك التى تتحدث عنها ؟ .. ليس للعرب ثقافة ,أنظر إلينا نحن ماذا بنينا هنا فى بنى غازى .. أنظر ثقافتنا نحن .. لن تجنى أى فائدة من التنقل فى ليبيا . "
رددت عليه قائلا : " و لكننى أرغب فى الحصول على تصريح للسفر إلى مصر . "
فأجاب:" سوف يصعب عليك استخراج تصريح بذلك ." قلت له : " و هل هناك اضطرابات ؟"
رد مساعده الصقلى :" ليس الأمر هكذا , ولكن ليس هناك طرق ممهدة ."
قلت له :" سوف أتقدم بطلب للحكومة هنا حتى استخرج ذلك التصريح ."
ابتسم مساعده و قال :" تستخرج هذه الأوراق من هنا .. ولكننا لن نسمح لك بالسفر من هنا ."
جرى هذا الحديث وترجم مدير الشرطة بعضه إلي, وغادرت المكان وقد اقتنعت أن السفر من
طرابلس أسهل من طبرق .
وعند عودتى إلى الفندق سألت السنيور مالفيسينى مدير الفندق عن إمكانية مقابلة محافظ المدينة فهز كتفيه قائلا :" من الممكن أن تقابل الجنرال جرازيانى .. و لكنه جندى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى .. فهو عسكرى من الطراز الأول وأخلاقه فظة للغاية."
سألت السنيور مالفيسينى :" ما المدة التى قضاها الجنرال جرازيانى هنا ؟"
رد قائلا :" حوالى شهر الآن وذلك بعد أن تقدموا بشكوى فى الحاكم السابق من أنه لم يحقق النتائج المرجوة منه .. فقد كان هناك الكثير من التساهل فى تناول الأمور .. لذا تولى
الجنرال جرازيانى القيادة .. و قاد حملتين ضد الليبيين فى كل من فزان ومرزوق .. إنه جندى يتعامل مع الأمور بصرامة شديدة ."
لم يكن ذلك مشجعا لى على الإطلاق فتناولت غذائى و خرجت لتنظيف حذائى . كان فى

بنغازى أربعة ينظفون الأحذية .. كانوا يرتدون ملابس من الحرير أثناء العمل ,وأخيرا استطعت أن أقنع أحدهم بتلميع حذائى . مضى بعض الوقت ثم سألنى :"هل ستواصل رحلتك بالسيارة ؟ " أجبته قائلا : " أتمنى ذلك فأنا مسافر إلى مصر ."
رد علي قائلا : " لا أنصحك بالاستمرار فى رحلتك ." سألته بدهشة : " و لكن لماذا ؟"
رد قائلا :" إن البلد كلها تعيش حالة من الثورة .. إن هناك المحفديون يطلقون النار على كل من يمر فى الطرق .. حتى العرب يطلقون عليهم الرصاص ."
سألته مستغربا : " من هم المحفديون ؟
نظر حوله بحذر كمن يريد أن يخفى ما يقوله :" إنهم الثوار الذين يعملون تحت قيادة الشيخ عمر المختار .. هناك الآلاف منهم يسكنون الجبال و يتحكمون فيها تماما. "
سألته :" و هل رأيت أحدا منهم ؟"
هز رأسه و قال :" لا .. إن الله حفظنى .. و إلا لما كنت حيا الآن ."
سألته مستفسرا :" و هل هم موجودون بالقرب من بنغازى ؟"
رد مؤكدا :" نعم إنهم قريبون جدا فى الجبال بالقرب من المرج أو كما يسميها الإيطاليون "بارس" وهى على بعد 60 ميلا من هنا .. لقد ازدادوا قسوة هذه الأيام ."
سألته :" و لكن لماذا هذه الأيام ؟"
رد قائلا :" إن الإيطاليين يقومون بشنق كل من يقع فى أسرهم منهم .. أو يطلقون عليه الرصاص , حتى إذا ارتابوا فى أى أعرابى فإنه يعدم على الفور .. على العموم لن ينقضى وقت طويل حتى ترى كل ذلك بنفسك ."
عندما انتهيت من تنظيف حذائى …كانت الساعة حوالى الرابعة و كانت الشمس ترسل أشعتها الدافئة و هى سمة من سمات بنغازى .
رأيت تاربوكس لأول مرة فى ذلك اليوم و قد بدا عليه الاكتئاب و بادرنى قائلا :" إننى أشعر بالملل الشديد ." ثم سألنى :" هل تعتقد أننى أستطيع الحصول على بعض الكتب باللغة الإنجليزية هنا ؟ لا يوجد من يتحدث الإنجليزية هنا سواك وأنا لا أراك طوال اليوم . "
سرنا سويا فوجدنا مكتبة صغيرة يملكها يهودى وسألناه إن كان لديه بعض الكتب باللغة الإنجليزية .. و ياللغرابة , وجدنا لديه بعض الطبعات القديمة .. و تحدث إلي اليهودى قائلا : " لقد قرأت مقالا عنك فى الجريدة .. لابد أن رحلتك كانت شاقة .. و قد كتبوا أيضا أنك اعتنقت الإسلام ." شعرت بالضيق قليلا و قلت له :" لقد سئلت عن ذلك آلاف المرات ."
بدا على اليهودى الإحراج وقال :" أعلم ذلك و لكن السبب فى سؤالى هذا هو أننى شخصيا مهتم بالإسلام و لى صديق عربى يعمل مدرسا وهو فيلسوف عظيم , إنه يعرف كل شئ متعلق بالإسلام و أنا أود منك أن تقابله ." رددت بسرعة :" بالطبع أحب أن أقابله."
رد اليهودى :" عادة ما يأتى إلى هنا يوم الجمعة للصلاة فى المسجد وهو غالبا ما يأتى فى الصباح ." قلت له :" أرجو منك أن تخبره أننى أرغب فى مقابلته .. و سوف أكون هنا فى الساعة العاشرة من صباح الغد."

عثر تاربوكس على الكتب التى يريدها و سرعان ما عدنا إلى الفندق . و قررت أن أذهب فى جولة فى الحى العربى بينما فضل تاربوكس البقاء فى الفندق ليقضى الأمسية فى القراءة .
كانت مدينة بنغازى تشبه مدينة طرابلس إلى حد كبير .. كانت المنازل بيضاء الواحد تلو الآخر, وفى كل شارع كانت المقاهى مفتوحة يدوى منها صوت الجرامفون بالموسيقى العربية.
كان عبد الله هو صاحب المقهى الذى ذهبت إليه .. كان المكان يعج بالناس وجلس الزبائن يلعبون الدومينو و يحتسون القهوة ويدخنون الأرجيلة ويستمعون إلى الموسيقى التى كان يديرها عبد الله ذلك الرجل المسن .
عندما دخلت إلى القهوة تركزت كل العيون علي وسمعت من يهمس قائلا: "مسلم."
لم أندهش أن دخولى إلى القهوة قد أثار بعض الحساسية لدى الحاضرين خاصة و قد كنت أرتدى ملابس أوروبية .. و كان الإيطاليون يعتبرون زيارتهم لمثل هذه الأماكن أمرا مهينا.
طلبت قهوة وأرجيلة أدخنها و جلست بمفردى و لكننى فوجئت برجل يجلس بجانبى متحدثا بالعربية : " إذا أنت ذلك الرجل الذى عبر الصحراء بسيارته ." قال ذلك وكل من فى القهوة يتابعون ما قاله . رددت عليه بالعربية أيضا .. و لكننى فوجئت به يتحول إلى الإنجليزية
قائلا : " إسمى اليونانى وأنا إنجليزى الجنسية ." صحت مندهشا : " إنجليزى ؟! "
قال: " نعم إننى من مالطة .. وربما أستطيع أن أعطيك أى معلومات هامة تريدها فأنا أعيش هنا منذ عشرين عاما ." قلت له :" هل أتيت هنا قبل مجئ الإيطاليين ؟"
قال: " نعم .. قبلهم بثلاث سنوات , لقد احتلوا بنغازى عام 1912 واحتلوا طرابلس فى نفس الوقت .. إننى ما زلت أذكر الأتراك عندما كانوا هنا ."
بادرته مستفسرا :" هل الأمر سئ فى الجبال كما أخبرونى ؟ "
رد دون تردد : " إن الأمر سئ للغاية .. لم تتوقف الحرب بل أصبحت أكثر ضراوة ".
قلت له :" إذا هناك حرب حقيقية ."
ابتسم بدهاء قائلا : " نعم .. أستطيع أن أؤكد لك أن هناك حرب حقيقية , لم تهدأ خلال 18 عاما سوى عام واحد عم فيه السلام . إن سكان الجبال هم الذين يحاربون الآن ولكن فرصتهم قليلة للغاية ." سألته : " و لكن لماذا توقفت الحرب لمدة سنة واحدة ؟ "
رد قائلا :" لقد كان هناك حاكما متعقلا فى تلك الفترة ...أعطى العرب السيادة فى بلدهم
ولكنه طلب بعض التنازلات للإيطاليين وأخيرا أقصوا هذا الحاكم من منصبه وغزوا ليبيا
وحاولوا استدراج عمر المختار إلى بنغازى حتى يتمكنوا من القبض عليه ولكنه كان متمرسا بحرب الصحراء لذا فقد آثر البقاء فى المناطق الجبلية مما جعل من الصعب

القبض عليه." فسألته : " ولكن لماذا كانوا يريدون القبض عليه وقد كان هناك سلام بينهم ."
رد قائلا :" كان السلام ستاراً يختبئون وراءه من أجل تحقيق الغزو, لقد كانت طبرق منطقة خصبة اعتقد الإيطاليون أنها لا يجب أن تظل فى يد العرب .. ولذلك اعتبروا أن القبض على عمر المختار وأسره سوف يؤدى إلى هزيمة سكان الجبال من العرب ."
قلت له : " ولكن ما هوالوضع الآن ؟ "
قال : " يقاتل الإيطاليون الآن بضراوة شديدة ودون هوادة منذ وصول الجنرال جرازيانى .. إنهم يقتلون الأسرى بالرصاص أو يقومون بشنقهم .. وإذا ما حاول أحد مساعدتهم أو حتى أبدى تعاطفه مع المتمردين كما كانوا يسمونهم فإنه يلقى نفس المصير."
سألته مستفسرا : " وهل يعرفون فى أوروبا ما يحدث هنا ؟"
رد باستغراب :" وكيف يعرفون ذلك هناك والرقابة مفروضة على جميع البرقيات .. والحكومة تخفى كل شئ . "
سألته مرة أخرى :" ولكن لماذا تختلف الأمور هنا عن طرابلس حيث الأمور أكثر هدوءا ؟"
رد بسرعة :" إن الموتى لا يتكلمون .. إن البدو الذين كانوا يقاتلون فى طرابلس إما قد قتلوا
أو هربوا إلى أماكن أخرى منذ زمن بعيد .. أما سكان المدن فهم يميلون إلى المادية , أما البدو
فهم على استعداد للقتال فى سبيل قضاياهم حتى آخر قطرة فى دمائهم . " واستطرد قائلا :" أنا لا أعرف أى شئ عن بلدك .. ولكن تخيل لو أن هناك من احتلها وأخذ يعامل الناس فيها وكأنهم حيوانات .. بل ويقتلون أى شخص يقاومهم .. ماذا كنت ستفعل ؟ ! "
أجبته دون تردد : " بالطبع كنت سأقاومهم ."
رد بسرعة : " هذا ما يحدث هنا الآن .. يقاتل الشعب هنا من أجل استقلال بلدهم .. ولكن الأمل ضعيف .. ماذا لديهم من سلاح يواجهون به الغازات السامة والمدافع الرشاشة ؟ هل هذا ما يسمونه بالمدنية ؟ .. إن ذلك عار عليها . "
شرب اليونانى قهوته واستطرد قائلا :" من الممكن أن يسمحوا لك بالسفر عبر الجبال ولكنهم سوف يراقبونك دائما .. فعندما أذهب إلى هناك .. يحيط بى الجواسيس فى كل مكان ولكن نظرا لأننى بريطانى الجنسية فلن يضرونى فى شئ ... بالمناسبة أود أن أذكرك بأن الضابط الإيطالى قائد منطقة الجبال هو شخص لطيف للغاية وهو لايفرق بين العربى و الإيطالى .. إنه يتعامل مع الجميع على أنهم بشر متساوون .. إن سكان الجبال يحبونه جدا .. إنهم لا يحبون أن يسببون له أى أذى .. ولكن للأسف إنه واحد فقط ضد كثيرين ."
سألته : " ولكن لماذا لا ينتهج الإيطاليون نهجا إنسانيا ؟"

رد بسرعة : " لقد جن جنونهم بعد أن تحولوا إلى الفاشية .. إنهم يتخيلون أنهم أفضل أجناس الأرض .. إنهم يشعرون أنهم أحفاد الرومان, إن الكثيرين منهم يعتقد أن الحرب التى سيشنوها على فرنسا أصبحت وشيكة .. ألا يدركون أن أوروبا قد نالت منها الحروب مبلغها ؟ "
سألته : " ولكن هل أصلحت الفاشية الكثير من الأوضاع فى إيطاليا ؟ "
رد قائلا : " ربما يكون ذلك قد حدث فعلا فى إيطاليا ولكن الأمر مختلف هنا كثيرا , فعمليات الإعدام تحدث كل يوم تقريبا والتهم الموجهة لهم تافهة ."
وتنهد اليونانى قائلا : " من الممكن أن تتحسن الأمور هنا .. فالسكان هنا ممتازون ويحبون العمل ولكننى أؤكد لك أنه يغرر بهم . "
لم يستطع أحد أن يفهم ما كنا نتحدث عنه .. حاولت أن أتحدث مع أى من الموجودين من سكان بنغازى ولكنهم أجمعوا على أن الأمور لم تكن أفضل حالا من ذى قبل .. .. لم يملك أحد الجرأة فى أن يتحدث عن ظروف المعيشة , لقد كانوا يعيشون فى طبرق فى ظروف صعبة .
وعدت أخيرا إلى الفندق فى وقت متأخر من الليل . فى صباح اليوم التالى قابلت المعلم
أحمد على فى المكتبة , كان صغير السن وجهه شاحب , لم تظهر عليه آثار الحداثة فى الملبس مثل معظم سكان بنغازى من أقرانه .. فقد كان يرتدى البرنس القديم . قابلنى باحترام وعبر لى عن سروره البالغ لمعرفته أننى مسلم. كان لدى صاحب المكتبة اليهودى بعض الكتب بالعربية , أخذ أحمد علي كتابا منها وسألنى :" هل تعرف أى شئ عن الصوفية ؟" أجبته : "معلوماتى عن الصوفية قليلة ."
رد قائلا : "عليك أن تزيد معلوماتك عن الصوفية .. فبها تستطيع أن تفهم ما يدور هنا وكيف تطور الإسلام .. ها هو كتاب عن الصوفية كتبه أحد المصريين واسمه عمر بن الفارض كان موجودا منذ 600 سنة , إنه يحوى أفضل القصائد الشعرية فى تاريخ الإسلام . "
وبدأ أحمد علي يقرأ لى بعضا من الأبيات , ثم توقف قائلا : " هذا الكتاب لابن الفارض يعرض لك الصوفية عرضا شيقا , إن الصوفية هى أعلى صورة للإسلام .. إنها تجعل روح الإنسان تذوب فى الذات الإلهية. "
سألته : " ولكن كيف يتحقق ذلك ؟ "
رد قائلا : " إذا تعمق إنسان فى اللاشعور وتوقف عن التفكير فى الماديات ولم يفكر إلا فى الذات الإلهية, قد ينال قطرة من حب الله له وهنا لن يتوقف عن حب الله أبدا فى كل لحظات حياته . . عندئذ كل الملذات الجسدية والحسية و المادية سوف تتضاءل بجانب حب الله .. وفى هذه الحالة سوف يكون قد حقق المرحلة الأولى من الصوفية .. فإذا كان مسيحيا فإنه يجد الله فى الثالوث المقدس (الآب والإبن والروح القدس) .. وإذا كان من عبدة الأصنام فإنه سيتعرف على الله فى الصنم الذى يعبده ."
وأخذ أحمد علي يقرأ ترجمة نيكلسون لكتاب ابن الفارض .. وقرأ آخر بيت فيه الذى يقول فيه ابن الفارض أن الله يهب رحمته للجميع .. ذلك فى جميع الأديان . قلت له : " لكن الصوفيين يعتقدون أن الإسلام هو الديانة الصحيحة أليس كذلك ؟"

إبتسم أحمد على قائلا : " إن الإسلام هو دين الحق .. إن اتباع تعاليم الإسلام تجعل المسلم يستشعر عظمة الله .. إن الإسلام يعنى طريق الله .. الديانات الأخرى بها الكثير من العقائد .. ولكن الإسلام ذو عقيدة واحدة .. إنك تؤمن بالله الواحد الأحد وتؤمن بالقرآن الذى يعرفك الطريق إلى الله . " قلت له معقبا : " لقد شعرت أنا شخصيا مدى قيمة اتباع تعاليم الإسلام
واعتناق مفاهيمه .. فمنذ اعتناقى الإسلام أشعر بالسعادة والسرور فى حياتى كما لم أشعر
من قبل .. بدأت أنظر إلى الطبيعة فأرى فيها جمالا لم أره من قبل .. بدأت أسمع الموسيقى فأحس بمشاعر رقيقة لم أشعر بها من قبل , لقد كنت بدون ديانة على الإطلاق .. أما الآن فأنا أحمد الله على هذه النعمة."
رد أحمد على قائلا : " هذا هو الفرق بين الإسلام والمسيحية .. فالكثيرون من معتنقى المسيحية يتبعون طريق الله أكثر مما يفعل بعض المسلمين , ولكن المسيحية تعمق مفهوم الإيمان والخلاص .. أفكار لا نعرفها نحن المسلمين . تغفل المسيحية العمل وهو الشئ الوحيد فى العالم الذى يدلك على الله الواحد ."
توقف قليلا ثم بدأ يسرد لنا قصة كتبها الغزالى وهومن الصوفيين الفرس عن السيد المسيح .. وفيها يروى أن المسيح مر ببعض الناس وهم يجلسون على شفا حفرة وقد بدا عليهم البؤس ,
سألهم المسيح " ما خطبكم ؟ " فردوا عليه قائلين " إننا نجلس هكذا خوفا من جهنم."
فرد عليهم المسيح " إن الله سيخلصكم من هذا الخوف" وسار المسيح مرة أخرى ليجد أناسا على نفس حال المجموعة الأولى و بنفس القدر من البؤس فسألهم نفس السؤال فردوا قائلين " إننا نجلس هنا طمعا فى جنة الله." فرد عليهم المسيح " لقد أصبح حقا على الله أن يعطيكم ما تريدون ." وسار المسيح ليجد مجموعة ثالثة أكثر بؤسا ولكن وجوههم كانت تشع نورا كالشمس , فسألهم المسيح نفس السؤال " ما الذى أجلسكم هكذا ؟ " ردوا عليه
قائلين " روح الله . لقد أخذنا نفكر فى روح الله فنسينا أى شئ آخر." رد عليهم المسيح " ستكونون قرب الله فى يوم الحساب .. إنكم من آثرتم فرحة الرب ."
هذه القصة تبين لنا الفرق بين من يتبع تعاليم دينه خشية ضميره .. أو طمعا فى الجنة .. ولكن الصوفى أرقى من ذلك بكثير , فهو يتحرك دائما بحب الله .. فى الجمال .. فى الموسيقى .. فى أرقى الأخلاقيات .. إنه يتأمل كل شئ جميل فيرى فيه الله وهوبهذا ينسى ويغفل عن أى شئ آخر . "
نظر أحمد علي إلى ساعته وقال : " الساعة الآن الحادية عشرة والنصف وقت الذهاب إلى المسجد , لقد قلت لك كل هذا حتى تفهم طبرق .. إن جميع المقاتلين فى الجبال لديهم هذه العقيدة الراسخة .. كل واحد منهم على الرغم من ملبسه البسيط إلا أنه يتبع تعاليم الإسلام ومبادئ الصوفية ولهذا السبب يحاربون ."
سألته : " ولكن من الذى علمهم مبادئ الصوفية ؟ "

رد قائلا : " سيدى أحمد السنوسي .. والآن هيا بنا إلى المسجد وسوف أحدثك عنه فيما بعد."
كان المسجد يبعد قليلا عن المكتبة, كان عند مدخل السوق , وفى الطريق بدأ أحمد علي
يحكى لى : " ولد سيدى أحمد السنوسي في مستغانم منذ حوالى 200 سنة .. ازداد ورعه منذ نعومة أظفاره ..ولكنه صدم كثيرا لما عانى منه الإسلام من تدهور فى شمال أفريقيا التى لا نزال نراها حتى الآن .. لقد رأى الكثير من الأولياء وهم يُعبدون كالقديسين بالرغم من أن
النبى محمد قد حرم علينا عبادة البشر من دون الله .. رأى سيدى أحمد السنوسى كيف أن
الصلوات الخمس أصبحت مجرد ثرثرة .. وعندما بلغ منتصف العمر تقريبا ذهب إلى مكة وهناك قابل سيدى أحمد إدريس الذى ترك فيه أثرا كبيرا .. وأدى السنوسي فريضة الحج
وتلك كانت خطوة هامة فى تطور الإسلام فى شمال أفريقيا .. لقد ظل يعلم الناس أن الصلاة يجب أن يؤديها المسلم ويعمل بها .. يجب على المسلم أن يأتمر بما أمرنا به رسولنا
محمد صلى الله عليه وسلم وأن ننتهى عما نهانا عنه كى نسعد فى الدنيا .. وتكون بالنسبة لنا جنة الله فى الأرض , إن المسلم الذى يتمسك بتعاليم الدين يزيد حب الله فى قلبه .. وبهذا
ازداد عدد مريديه فى الجبال وبين القبائل فى طبرق وفى واحة الكفرة ."
قلت له : " نعم لقد سمعت عن الكفرة ."
رد قائلا : " إنها فى الجزء الجنوبى من طبرق .. وهى واحة فى وسط الصحراء وقد أصبح السنوسي ملكا هنا فى بنغازى وطبرق ومنذ ذلك الوقت وأسرته تحكم الكفرة وطبرق .. وجاء الإيطاليون وطردوا السنوسي وهوالأحق بحكم طبرق .. إن سيدى إدريس يعيش فى المنفى فى الإسكندرية الآن."
وصلنا إلى المسجد مع وقت الآذان .. كان المسجد مليئا بالمصلين , وعندما قضيت الصلاة ذهب كل فى طريقه وعدت أنا إلى الفندق حيث كان السنيور مالفيسينى فى استقبالى
قائلا : " هناك حوالة نقدية باسمك فى مكتب البريد."
كانت الحوالة النقدية من الدنمارك بمبلغ 1000 ليرة فذهبت مباشرة إلى مكتب البريد لصرف المبلغ . استقبلنى موظف صقلى كمساعد الشرطة فأعطيته الحوالة البريدية فأخذ يقلب فيها عدة مرات ثم قال : " يجب أن أطلع على جواز سفرك ." أعطيته جواز السفر فأخذ يقلب فى صفحاته .. نظر إلى صورتى وقرأ اسمى وكل المعلومات المكتوبة .. وعندما وصل إلى المهنة

وكانت مكتوبة بالدنماركية والفرنسية والألمانية والإنجليزية , قال : " لا أستطيع أن أصرف

لك النقود ." فرددت عليه بدهشة : " ولكن لم لا ؟ ! "
رد بضيق :" إن جواز سفرك مخالف للإجراءات هنا ." قلت له :" ماذا تقصد بذلك ؟ "
قال لى :" إن جواز سفرك يخلو من اللغة الإيطالية ومكتب البريد هنا مكتب بريد إيطالى رسمى , يجب أن تترجم جواز السفر إلى الإيطالية حتى أستطيع أن أقرأه .. ولن تحصل على النقود حتى تقوم بذلك ." كان هذا الموظف الفاشستى يضع العراقيل أمامى .. لم أقدر على
التحمل أكثر من ذلك فقلت له بغضب :" أرجو أن تتكرم بإعطائى النقود فى الحال .. إنها مالى وقد استخرجت جواز سفرى حسب القوانين الدولية ."
هز الموظف البيروقراطى رأسه وقال :" إننى أحذرك من أن تقول شيئا تندم عليه .. هنا إيطاليا .. احذر ما تقول . " قلت له بحزم شديد :" إننى أعى ذلك تماما وأشكرك على ذلك ولكننى أحتج على الطريقة التى تعاملنى بها ."
رد محذرا :" إذا لم تلتزم الصمت فسوف أقوم بإبلاغ الشرطة عنك ."
قلت له :" هذا شئ رائع .. فلنذهب سويا إلى الشرطة ."
وعند وصولنا إلى الشرطة قابلنى الشرطى الذى تحدثت إليه بالفرنسية وأدركت أنه يحمل لى بعض الكراهية منذ ذلك الوقت .. وأيقنت أنه سيحبسنى , أعطيته بطاقتى ليسلمها إلى مساعد مدير الشرطة ودخلنا إلى مكتبه وأخذ موظف مكتب البريد يحكى كيف أن أوراقى ليست مرتبة ولا تتفق مع النظام المعمول به .. فلا توجد كلمة مكتوبة بالإيطالية فى أوراقه ,وأنه مقتنع أننى

مجرم خطير يحاول الإستيلاء على مبلغ 1000 ليرة .
أخذ مساعد مدير الشرطة يتفحصنى ثم قال لى :" من فضلك أعطنى جواز سفرك ." أعطيته له فأخذ يقلب صفحاته ثم نظر إلى موظف البريد قائلا :" ربما يكون قد كتب جواز السفر بخط يده . " نظر إلي موظف البريد وقد تهللت أساريره فرحا بما سمع أما أنا فقد تملكنى الغضب الشديد وأمسكت ببطاقة الزيارة ومزقتها قطعا صغيرة .
نظر إلي مساعد الشرطة بغضب وقال : " ماذا تفعل ؟ ! "
قلت له بحزم شديد : " لن تحصل على بطاقتى .. لقد ادعيت أننى كتبت جواز سفرى بيدى . "
ازداد غضبه ونظر إلي قائلا :" أنت مقبوض عليك ." واستدعى الشرطى الموجود فى الخارج وقال له : " عليك بحراسته .. إنه رهن الاعتقال . "
سحبنى الشرطى من ملابسى ووضعونى فى حجرة جانبية , ولم يسمحوا لى بالجلوس ومنعونى من التدخين .. لقد أصبحت سجينا .
وبعد ساعتين وصل مدير الشرطة واستدعونى إلى حجرته , وشرح مساعد مدير الشرطة الأمر للمدير .. قال المدير :" إن هذا أمر خطير للغاية ."
قلت له : " لقد ادّعى عليّ أننى كتبت جواز السفر بنفسى . "
رفع يده مشيرا إليّ بالصمت وقال :" بهدوء .. يجب أن تكون جميع الأوراق هنا محررة باللغة الإيطالية .. لو كنت إيطالى الجنسية لكنت وضعتك فى السجن بتهمة

إهانة موظف حكومى أثناء تأدية عمله .. ولكن نظرا لأنك أجنبى فسوف أتغاضى عن هذا الأمر .. وأعتقد أنك ستكون
ممتنا لى ." التزمت الصمت وجلست أترقب ما يحدث ...
قام مدير الشرطة باستدعاء أحد الجنود وقال له : " اذهب مع هذا السنيور إلى مكتب البريد وأطلب منهم تسليمه النقود الخاصة به .. هذا أمر منى . "
انتهى الأمر عند ذلك الحد وشعرت أن مدير الشرطة قد أسدى لى معروفا بتسليمى نقودى التى حصلت عليها أخيرا . ..
استقبلنى مدير الفندق السنيور مالفيسينى وحكيت له القصة كاملة .. فقال لى : " ليست هذه هى المرة الأولى .. ولكن عليك بتوخى الحذر الآن .. فإنهم سوف يراقبونك ."
جنّب تاربوكس نفسه كل هذه المتاعب والمشكلات فقد كانت النزلة المعوية التى أصابته كافية لأن تشغله , وإتفقنا على أن نبقى فى بنى غازى حتى يشفى تماما ثم نقرر الخطوة التالية بعد ذلك . وفى صباح السبت ظهرت الصحيفة الفاشية طبرق وقد ملأت صفحتها الأولى المكتوبة بالسواد صورة قسيس ممتلئ الجسم . فمنذ أن اتفق كل من الفاشيست والبابا على عقد سلام مع كل القوى الروحانية والوطنية ازدادت الصداقة بين كل هذه الأطراف .. يمكن أن نلمس ذلك فى جميع المجالات , فالفاشيست أصبحوا من الروم الكاثوليك .. لقد قاموا بترحيل أحد الأيطاليين فورا إلى إيطاليا لأنه بدأ يتجه نحو الإسلام . . لم يعد هناك حرية دينية وهذا واضح تماما فى عدد يوم السبت من جريدة طبرق .. لقد مات أسقف بنغازى الليلة الماضية ..
وامتلأت الصحيفة بالتعازى والرثاء للفقيد .. كان العنوان الرئيسى " طبرق فى حداد " .
خرجت فى الصباح كعادتى كل يوم .. كانت كل المقاهى مغلقة وكانت الملصقات المكتوب
عليها بالإيطالية موضوعة على جميع الأبواب باللونين الأبيض والأسود .
سألت عبد الله صاحب المقهى عن السر فى ذلك فرد قائلا : " هذه أوامر الشرطة .. يجب إغلاق المقاهى والحانات ويجب وضع هذه الملصقات ... لقد أصبحت بنغازى مدينة كاثوليكية تغرق فى الحداد . "

الفصل الخامس
الكفرة ... لغز الصحراء الكبرى

عندما عدت كان وقت الغداء قد حان .. جلست على المنضدة المخصصة لى .. وكان تاربوكس قد بدأ تناول غدائه بالفعل , حضر السنيور مالفسينى وأشار إلى ضابطين إيطاليين يجلسان على منضدة قريبة قائلا :" الضابط الجالس هناك هو النقيب الدرو فورنارى .. عليك بمقابلته .. لقد كان سجينا فى الكفرة .. كان أول من شاهد الكفرة من الأوروبين ."
قلت له :" ولكننى لم يسبق لى أن رأيته هنا فى بنغازى من قبل ."
رد قائلا :" إنه متمركز فى المرج ."
قلت له :" لقد سمعت أن هناك قائدا ممتازا هناك ."
رد موافقا :" نعم .. إنه دايودايس .. إنه محل حب واحترام الجميع هناك. "
رحل السنيور مالفسينى .. وبهذا سنحت لى فرصة أن أرقب فورنارى عن كثب .. كان قليل الجسم .. حليق الذقن .. وجهه مستدير كالقمر فى ليلة البدر .. كان كثير الكلام .. كثير الضحك كمن لايوجد لديه ما يقلقه فى هذا العالم .. كان يتحدث بينما يأكل المكرونة بمهارة فائقة
وعندما انتهى من تناول طعامه , توجهت إليه وقدمت له نفسى .. وطلبت منه أن يقص عليّ
ما حدث له فى الكفرة .. أبدى موافقته وجلسنا سويا نحتسى القهوة ونتسامر .
قلت له :" لقد أخبرنى السنيور مالفسينى أنك كنت سجينا فى أيدى العرب فى الكفرة .. فهل
هذا صحيح؟ "
قال فورنارى وهو يضحك ملئ شدقيه :" نعم .. هذا صحيح .. إن من حسن حظى أن الأمر قد

انتهى الآن.. وأتمنى ألاّ لاتعود هذه الأشهر الأربعة فى حياتى مرة أخرى .. إن ما أنقذنى هو اللغة العربية .. ولكننى أؤكد لك أنها كانت تجربة مريرة أن تعيش على لبن النوق والتمر لمدة أربعة أشهر .. لعلك تفهم الآن لماذا أنا فى هذا القالب النفسى ".
سألته :" وأين تقع الكفرة ؟"
طلب فورنارى قلم رصاص وبعض الأوراق وبدأ يرسم قائلا :" تقع الكفرة على بعد 600 ميل جنوب بنغازى وعلى بعد 300 ميل إلى الغرب من واحة الخارجة فى مصر .. إن هيئة الأركان الإيطالية أيقنت أن هذه الواحة هى مصدر القلاقل فى برقة .. لقد كنت متفقا مع قائدى القومندان دايودايس أن نحاول أن نتصالح دائما مع العرب وإذا نجحنا فى التفاهم مع أمير الكفرة محمد السنوسى فإن ذلك يعتبر إنجازا ."
قاطعت فورنارى قائلا :" ولكن من هو محمد السنوسى ؟ لقد علمت أن سيدى إدريس السنوسى الذى يعيش فى الإسكندرية هو الذى يدير الحملة كلها ."

رد قائلا :" هذا صحيح تماما ولكن محمد السنوسى يعتبر وكيلا لسيدى إدريس فى الكفرة .. لعائلة السنوسى فرعان .. الفرع الأبيض الذى ينتمى إليه سيدى إدريس والفرع الأسود الذى تنحدر سلالته من إحدى السود .. وهذه هى التى ينتمى إليها سيدى محمد السنوسى ."

توقف برهة ثم أضاف قائلا :" إن سيدى محمد السنوسى أكثر ميلا للإيطاليين عن سيدى إدريس الذى يطالب بحكم ذاتى للعرب بالكامل .. لذا كان من الطبيعى أن نميل نحن
نحو محمد السنوسى ."

فسألته مستفسرا :" وهل كان يعرف سيدى إدريس أى شئ عن ذلك ؟"

رد فورنارى قائلا :" لا أعتقد ذلك .. ولكن بدأت المتاعب عندما تنامى ذلك إلى علمه , لذلك فقد أمرت أن أقود حملة إلى الكفرة , ولكن المسألة كانت صعبة التنفيذ .. فبعد حوالى 120 ميلا من الواحة تمتد الصحراء فى منطقة شاسعة .. كلها رمال ناعمة .. تكونت منها الكثبان الرملية هنا وهناك .. هذا الحزام الذى يحيط بالكفرة يجعل من المستحيل على السيارات اجتياز هذه المنطقة .. حتى الجمال تجد صعوبة فى اختراقها .. إن طريق القوافل الذى يوصل إلى الكفرة تملؤه العظام النخرة ." سكت برهة ثم أضاف قائلا :" لم يسبق أن وصل أوروبى إلى الكفرة , ولكن إحدى النساء وصلت إلى هناك قبل ذلك ."[1]

استرسل فى روايته قائلا :" سنحت لى أول فرصة لأن ألتقى مع محمد السنوسى بالصدفة البحتة .. كان أحد أبنائه مريضا وكانت حالته تستدعى عناية طبية سريعة لإنقاذه , لذا طلب الأمير بطريقة غير رسمية طبيبا للذهاب إلى الكفرة .. ثم بعد ذلك نناقش مسألة المعاهدة .. وبالطبع قررت الحكومة فى برقة الاستفادة من هذه الفرصة السانحة .. كان ذلك قبل وصول الجنرال جرازيانى . وأرسلوا حملة صغيرة تتكون من طبيب وعامل لاسلكى وأنا نظرا لأننى
كنت أتحدث العربية . وفى نهاية ديسمبر عام 1928 بدأنا الرحلة بمفردنا من بنغازى على
ظهور الجمال حتى وصلنا إلى آخر موقع إيطالى فى الجنوب – على بعد حوالى 125 ميلا من بنغازى – وهناك انتظرنا القافلة التى أرسلها إلينا الأمير من الكفرة . وصلت القافلة بعد
عدة أيام ومعها محمد السنوسى بنفسه وولداه .. أحدهما الذى كان مريضا .. وقد تم وضعه تحت الرعاية الطبية بمجرد وصوله وتلقى العلاج اللازم ."

استرسل فورنارى فى حديثه قائلا :" وبعد ذلك رحلنا على ظهور الجمال ثانية ومعنا كل أمتعتنا .. كنا نقطع مسافات قصيرة نظرا لوعورة وصعوبة الطريق .. حتى الجمال لم تكن قادرة على السير فيه . وازداد الأمر سوءا عندما وصلنا إلى منطقة الكثبان الرملية .. ورفضت الجمال مواصلة السير إلا بعد ضربها بالسياط ."

---

[1] كان فورنارى مخطئا فى ذلك . أول من وصل إلى الكفرة المستكشف الألمانى رولفز , وكان ذلك فى عام 1879, وفي عام 1916 أسروا أحد الفرنسيين هناك ثم أطلقوا سراحه, وفي عام 1921 وهو نفس العام الذي ذهبت فيه روزيتا فوريز , وصل أحد الضباط الفرنسيين من الجنوب . (تصحيح من المترجم)

أخذ فورنارى بضعة أنفاس من سيجارته كمن كان يسترجع صورة الصحراء الضخمة أمام عينيه ثانية .. ثم استطرد قائلا :" إن الجمل يتمتع بغريزة تمكنه من مساعدة راكبه .. ياله من حيوان غريب .. إنه يتنبأ بقدوم العواصف الرملية قبل حدوثها بساعات طويلة .. فيبدو مضطربا ويبدأ فى استنشاق الهواء بطريقة عصبية ..وتتسع فتحتى أنفه . كان الجمل عندما يلمح شيئا غير عادي فى الأفق يحرك فمه بطريقة كوميدية ويرفع أذنيه إلى أعلى فهو حاد البصرويرى أشياء لا تستطيع العين البشرية أن تتبينها .. وهكذا يعرف الراكب أن هناك
خطب ما ."
سألته :"وما الفترة التى يستطيع الجمل فيها تحمل السير فى الصحراء دون حاجة لشرب الماء؟"
رد واثقا :" أسبوع على الأقل .. ولكن دعونى أكمل لكم القصة , فى الطريق صادفتنا عدة
عواصف رملية ولكننا واصلنا المسير .. وبعد حوالى ثلاثة أسابيع وصلنا إلى أصعب جزء فى الصحراء .. حاجز رملى عال يمتد كالجدار ليفصل بين الجزء الشمالى من الصحراء والكفرة .. وهنا حدث ما حدث .. كادت كل آمالنا تتبخر .. كنا نشق طريقنا بصعوبة بالغة عبر تلال الرمال الشاسعة .. كانت كمية الماء شحيحة .. فقد كان لابد للجمال أن تشرب هى الأخرى .
ذات مساء بدأت الجمال يصيبها الاضطراب .. ربما تكون قد شاهدت شيئا فى الأفق لم نكن قد تبيناه بعد .. طال ترقبنا .. ولكننا لم نشعر بالخوف .. لقد كان معنا الأمير ونجليه . وبعد حوالى نصف الساعة ظهرت عصابة كبيرة تركب الجمال .. كان يتقدمها قائدها وهو يحمل علما .. كان عددهم يربو على المائة وكان من الواضح أنهم قادمون من جهة الجنوب مما جعل الأمير يعتقد أنها قوات قدمت من الكفرة للترحيب بنا . لم يكن ترحيبا بأى حال من الأحوال .. أحاطوا بنا فى شبه دائرة وصوبوا بنادقهم نحونا طالبين منا الاستسلام .. كانت نواياهم واضحة .. لم يكن هناك مجال للمقاومة .. ولم يكن هناك بد سوى الاستسلام . وسرعان ما كان الأمير ونجليه أسرى فى خيمة تحت الحراسة , بينما نحن ملقون على الرمال ومقيدون . وسرعان ما اكتشفنا أنه قد اندلعت ثورة فى الكفرة .. ثار الناس على محمد السنوسى .. كانوا يمقتون موالاته للإيطاليين, بينما سيدى إدريس ليس لديه علم بما يجرى . وعندما تنامى إلى علم سكان الكفرة أن الضباط الإيطاليين فى طريقهم إلى الكفرة.. قرروا تنحية سيدى محمد السنوسى . كان من الممكن ألا يحدث كل ذلك إذا كان الأمير قد بقى فى الكفرة ولم يحضر لمقابلتنا .. ولكنه ابتعد لعدة أشهر مما أجج مشاعر الكراهية ضده .. وكانت النتيجة هى الهجوم على قافلتنا .
وبعد عدة ساعات من أسرنا قاموا باستجوابنا .. كان الأمير مازال فى خيمته . . لم نره مرة ثانية حتى وصلنا إلى الكفرة .. لم تستغرق عملية الاستجواب وقتا طويلا . سألونا إن كان الهدف من حضورنا هو ترسيخ الاحتلال الإيطالى للكفرة ؟ وبالطبع أنكرنا ذلك , وعندئذ سألونا عن الأموال التى كانت لدينا .. كنت أجيب على جميع الأسئلة .. فقد كنت الوحيد الذى يتحدث بالعربية . قلت لهم لم تكن لدينا أموال غير

التى أخذوها منا .. ولم يصدقنا أحد .. استمرت عملية الاستجواب .. كانوا يظنون أننا خبأنا مبلغا كبيرا من المال فى مكان ما .. لم يكن هناك ما نخفيه عنهم. وأخيرا صدر الحكم بإعدامنا رميا بالرصاص عند الفجر . أخذونا إلى الصحراء وطلبوا منا حفر قبورنا فى الرمال .. ثم وضعونا صفا واحدا ووقف أمامنا صف من الجنود وهم يصوبون علينا بالبنادق .. رفع القائد يده استعدادا لإعطاء الأمر بإطلاق النار . سألنا القائد أين خبأتم المال ؟ قلت له ليس لدينا أية أموال .. إذا كان لدينا مال كنا أعطيناكم المال فى مقابل الإبقاء على حياتنا .. وعندئذ تأجل تنفيذ الحكم بالإعدام .. على أن يتم استجوابنا مرة أخرى عند العودة إلى الكفرة ."

توقف فورنارى لبرهة كمن يستجمع أفكاره ويستحضر ذكرياته ثم استطرد قائلا :" اضطررنا للسير لمسافة 125 ميلا فى الرمال بجانب الجمال .. وعندما اشتكى الطبيب , قال له قائد المجموعة: ألا تعتقد أنكم تستحقون ما هو أكثر من ذلك ؟ لقد قامت قواتكم بشنق أخى .

وأثناء الرحلة لم يكن هناك طعام سوى التمر .. فلم يحضر البدو سواه .. لم يكن طعمه لذيذا

و كان ملتصقا ببعضه .. ولكن تحت الجوع الشديد لم يكن أمامنا وسيلة سوى ابتلاعه .

مر اليوم تلو الآخر .. وبعد حوالى أسبوعين من أسرنا رأينا الكفرة من على بعد . كانت الكفرة تبدو كجزيرة فى بحر من الرمال .. كانت كجزيرة معزولة فى المحيط .. على الجنوب الغربى منها كانت هناك جبال تيبيستى وهى مأهولة ولكن لم يسبق لأوروبى الوصول إليها . إذا اتجهت نحو الشرق تصل إلى مصر فى خلال شهر , وإلى الجنوب تتجه نحو السودان .

كان استقبالنا فى الكفرة استقبالا فاترا .. لم نلق أى ترحيب من البدو .. وكان الاستقبال الأسوأ من جانب النساء والأولاد .. فلم يسبق أن شاهدوا أوروبيا من قبل . . كانوا ينظرون إلينا كمن ينظر إلى حيوانات بغيضة .. أما لباسنا الأوروبى فقد أثار الكثير من السخرية .. كانوا يقذفوننا بالحجارة .. ثم وضعونا فى بيت من الحجارة كان يستحيل الهرب منه .

وفى صباح اليوم التالى جرى استجوابنا للمرة الثانية فى إحدى المنازل الفسيحة .. وقد حضر جميع شيوخ العائلات .. وجرى احتجازنا خلف المنزل بينما كانوا يحاكمون الأمير .

قام قائد الكفرة (القاضى) باستجوابنا وقد أعلن صراحة أن الأمير المخلوع كان ينوى بيع البلاد للمسيحين الإيطاليين .. وبهذا يكون قد خرج عن قوانين الإسلام السمحة . ولقد أنكر الأمير ذلك .. قائلا أنه كان يريد طبيب فى الكفرة فقط . قال القاضى موجها كلامه للأمير :لا .. هذا غير صحيح .. إننا لا نصدق ذلك .. لقد كنت تنوى بيع الواحة مثلما بيعت الكثير من البلدان فى شمال أفريقيا إلى الفرنسيين .. لذا لايمكن أن تظل أميرا علينا .. لن يلحقك منا أى أذى إكراما لجدك سيدى أحمد السنوسى رحمه الله, ولكن عليك مغادرة الكفرة فى خلال أسبوع واحد

استسلم الأمير للقرار وبدأ استعداداته للرحيل من الكفرة . أما عن استجوابنا نحن فقد كان قصيرا للغاية وطوال الأسبوع الأول كانوا يخبروننا أننا سنعدم عند الفجر .. ويتم عمل الاستعدادات لذلك .. ولسبب أو لآخر يتم تأجيل تنفيذ عملية الإعدام . وطوال النهار كان الجميع يشاهدوننا كما لو كنا فى معرض .. كان يسمح لأى واحد أن يتلمس ملابسنا ليتأكد أننا من البشر .. وكانت النساء ينظرن إلينا وقد كشفن عن وجوههن .. كانوا لايعتبروننا من الرجال .

وبعد مرور الأسبوع الأول وما عانيناه من ألم .. بدأنا نشعر بقليل من السلام والاطمئنان .. فقد رحل الأمير إلى السودان وقد علمت فيما بعد أن الفرنسيين قبضوا عليه لأنه سبق وأن حاربهم .

كانت مسألة الحكم علينا موضع مناقشة فى الواحة .. كان هناك مجموعة كبيرة تؤيد عملية إعدامنا .. فقد قتل الكثير من العرب على أيدى الإيطاليين , بينما كانت هناك مجموعة تطالب ببيعنا فى سوق العبيد والذى يقام كل خميس . كان يمكن لمن يشترينا أن يبيعنا فى السودان .. حيث يزدهر سوق العبيد هناك إلى اليوم . كنا نتمنى أن تنتصر المجموعة التى تنادى ببيعنا فى سوق العبيد .. وإذا وصلنا إلى السودان فسوف نجد الأمان . أما المجموعة الثالثة فقد كانت تحاول إقناعنا نحن باعتناق الإسلام .. وفى هذه الحالة تسقط الأحكام بالإعدام ونعيش فى الكفرة كأحرار . فى الحقيقة لم نكن سوى عبيد .. كان يوكل إلينا أشق المهام والأعمال .. كان الطعام متوفرا .. ولكننا كالجميع لم يكن هناك أمامنا سوى التمر ولبن النوق .. كنا نأكل لحم الضأن بين فترة وأخرى ولكننا لم نتذوق الخبز .. فلم يكن معروفا فى الكفرة على الإطلاق .

وذات يوم توقفت كل تلك المناقشات بشأننا عندما سمعناهم يتشاجرون بشأننا ,حتى وقت متأخر

وعندما خلد الجميع إلى النوم .. استدعانا أحد العرب وطلب منا ارتداء ملابسنا ونصحبه , لم يكن أمامنا سوى الطاعة لأوامره .. فتبعناه .

قادونا إلى الصحراء وركبنا الجمال .. وكان معنا حوالى 50 أو 60 رجلا مسلحا .. وتوجهنا نحو الجنوب .. سرعان ما اتضح أنه تم اختطافنا . انتصرت المجموعة التى تنادى ببيعنا فى سوق العبيد .. ويبدو أنهم قرروا فيما بينهم حل المشكلة بطريقة حاسمة .. قرروا بيعنا فى سوق العبيد فى السودان .. اعتقدوا أنهم يستطيعون الحصول على مقابل مادى مجز .. فقد كنا من الأطباء البيض .. ولكن هذه المغامرة لم تستمر سوى ساعات قليلة .. فسرعان ما اكتشفوا ذلك فى الكفرة وأرسلوا وراءنا قوة كبيرة .. وعند شروق الشمس دارت معركة عنيفة سقط خلالها اثنا عشرة شخصا من كل جانب .. ثم توقفا عن القتال وعقدا اتفاق سلام وعدنا إلى الكفرة مرة أخرى .

وهنا قررت أن أقدم اقتراحا من جانبى .. قلت لقادتهم : بدلا من قتلنا أطلقوا سراحنا مقابل فدية تأخذونها . ناقشوا اقتراحى لهم .. وفى النهاية وافقوا على إطلاق سراحنا فى حالة دفع فدية قدرها 2 مليون ليرة .

كان من المستحيل التفكير فى كيفية توفير 2 مليون ليرة .. وفضلنا أن تظل الحكومات بعيدة عن موضوع اختفائنا . حاولت أن أظهر لهم بعض الضيق وسألتهم :

هل لديكم فكرة عن معنى 2 مليون ليرة ؟ وبالطبع لم أتلق إجابة عن سؤالى , فلم يكن هناك من يعرف .. هناك من خمن إجابة .. ولكننا لم نصل إلى نتيجة .. ناقشنا المسالة ثم واجهتنا مشكلة كيفية الحصول على المال اقترح بعض البدو أن أقوم بكتابة ذلك .. على أن يتم إحضار النقود من مصر .. ولكن هذا
الاقتراح لم يلق ترحيبا . قلت لهم إنه ليس من الممكن إحضار النقود بهذه الطريقة .. اقترحت أن يذهب واحد منا إلى بنغازى لإحضار النقود بينما يظل الآخرون رهائن . ولكنهم لم يوافقوا على هذا الاقتراح .. واستمرت المناقشات .
تغير صوت فورنارى وطلب مشروبا ثم قال :" لا يمكن أن تتخيل متعة شرب الماء العذب النقى .. لم يكن الماء فى الكفرة عذبا ."
ثم استرسل فورنارى فى سرد قصته فى الكفرة , قال :" ومرت الأيام ونحن سجناء .. سمحوا لنا ببناء أعشاش من البوص والقش .. بدأت ملابسنا تبلى وبدأنا نعانى من الحشرات .. إلى أن حدث ما أدى إلى إنقاذنا . قرروا فيما بينهم شن هجوم ضخم على الإيطاليين فى برقة .. كانوا يقومون بالمناورات يوميا .. كان هناك ما يربوا على ألف جندى .. جميعهم مسلحون .. كانوا يظنون أنهم بذلك يستطيعون الاستيلاء على بنغازى بأسرها .
نصحتهم بعدم الهجوم على بنغازى .. وقلت لهم أن المدافع الرشاشة لدى الإيطاليين ستحصدهم حصدا .. ولكن لم يأبه أحد لنصيحتى . قالوا لى : إنك إيطالى وتتحدث نيابة عنهم .. إن العرب يتسمون بالشجاعة .. يستطيع عربى واحد أن يقاتل خمسة إيطاليين .
وهكذا خططوا لحملتهم على هذا الافتراض , وفى بداية هذا العام بدأ ألف من الرجال فى مهاجمة الإيطاليين .. وعندئذ سنحت الفرصة لنا .. بعد أن رحل المقاتلون .. جمعت جميع الشيوخ وأقنعتهم أن يطلقوا سراحنا مقابل مائتى ألف ليرة .. وافقوا ولكن بقيت مشكلة الحصول على المال . استملت أحد الشيوخ إلى جانبى .. وقام هو باقناع الآخرين .. قررنا أن أذهب أنا
إلى مصر ثم بنغازى , وعندما يتم ايداع المبلغ فى مصر .. يتم اطلاق سراح باقى الأسرى .
قمت بتجهيز قافلة على سبيل القرض .. اشتريت حمالا واستأجرت بعض البدو على وعد أن أسدد لهم أجرهم فى نهاية الرحلة .. وهنا أعترف أن العرب وضعوا ثقتهم فيّ تماما .
بدأنا الرحلة إلى مصر .. كانت رحلة رهيبة .. استغرقت أكثر من شهر ونفذ منا الماء .. وهنا أود أن أسجل عظمة البدو .. كانوا يطلبون منى أن أشرب ما بقى من الماء حفاظا على حياتى , أما هم فقد كانوا معتادين على البقاء بدون ماء لفترة طويلة .
وصلنا إلى القاهرة وتم عمل الترتيبات بسرعة .. قابلت المفوض السامى البريطانى اللورد لويد الذى قال لى : إنك من المحظوظين حقا .. إنك أول أوروبى يغادر الكفرة حيا ."
توقف فورنارى قليلا عن الحديث فانتهزت الفرصة وسألته : " وماذا عن العبيد فى الكفرة ؟"

قال فورنارى :" إن العبيد يعاملون معاملة حسنة .. ومعظمهم من السود الذين لم يعتنقوا الإسلام .. يأتون بهم من السودان لأداء الأعمال الشاقة .. ولكن إذا أنجب أحد العرب من إحدى الإماء فإن الولد والأم يصبحان أحرارا ."
سألته ثانية :" وكيف تتم عملية بيع وشراء العبيد ؟"
قال فورنارى :" كل يوم خميس .. يقام سوق للعبيد .. يصل ثمن العبد إلى ألف ليرة . ولكن دعنى أكمل لك قصتى .. فلم تكن نهايتها سعيدة .
ذهبت من القاهرة إلى بنغازى , ونجحت فى توفير مبلغ الفدية .. وذهبت إلى واحة الخارجة حيث تتم عملية التبادل , المال مقابل بقية السجناء , وانتظرت فى الخارجة لمدة شهرين قبل
وصولهم .. ويالهول القصة التىحدثت لهم .. قالوا لى أن الحملة التى كانت تتكون من ألف رجل , فشلت ولم يعد سوى أربعمائة رجل إلى الكفرة , وبمجرد عودتهم طالبوا بقتلنا فى الحال, انتقاما لقتل زملائهم الذين حصدتهم المدافع الرشاشة .. ولكنهم فضلوا الحصول على المال مقابل الإبقاء على حياة زملائى .. وهكذا انتهت القصة .
إن واحة الكفرة واحة غريبة .. لايوجد فيها شئ إلا المصنوع محليا .. لم يكن بها أى شئ مصنوع فى أوروبا .. لم تنفتح هذه الكفرة على العالم الخارجى على الإطلاق ."
أنهى فورنارى قصته وهويتنهد قائلا :" لقد كنت مولعا بحب واحترام هؤلاء الرجال ".
سألته مباشرة :" و ما رأيك فيما يحدث فى برقة ؟"
رد قائلا :" ليس لدى رأى ثابت أقوله فى هذا الصدد ولكننى أعتقد أنه يجب علينا أن نتفاهم مع العرب .. إننا من خلال الحوار الودى والتعاون والتفاهم بين المدنية الأوروبية والثقافة العربية نستطيع أن نحقق نتائج طيبة ." سألته : "وهل يعتنق الكثيرون هذا الفكر ؟"
رد قائلا :" لا ... إنهم قليلون للغاية من يفكر مثلى فى هذا الصدد , إن الكثيرين الذين يحضرون إلى هنا , يعتقدون أن العرب حيوانات ويتعاملون معهم بطريقة لا إنسانية .. ولكن ماذا تتوقع من أناس لا يتحدثون العربية ويعيشون تحت وهم المدنية على أنها ثقافة؟ أعتذر منكم الآن .. فإن عليّ الذهاب الآن .. سأنتظر زيارتك لى إذا حضرت إلى المرج ."
اكتشفت فيما بعد أن رئيس النقيب فورنارى وهو القومندان دايوديس له نفس الفكر والرأى .. لذا كانا بالفعل محبوبان ويتمتعان بشعبية كبيرة .

الفصل السادس

الجنرال جرازيانى يعترض

فى اليوم التالى ظهرت بنغازى فى أبهى حللها .. كان العلم الإيطالى بألوانه الثلاثة يرفرف فوق جميع المبانى العامة .. امتلأت الشوارع بالجنود الإريتريين فى ملابسهم الاستعراضية الجديدة .. كان يوم الأحد , وهو اليوم المحدد لانخراط الأولاد الفاشيست من سن 16 – 18 عاما فى الجندية , ومن ثم لهم الحق فى حمل البنادق . كان الجميع يرتدون القمصان السوداء , وفى العاشرة بدأوا الاستعراض من أمام مبنى الحكومة فى الميدان الكبير أمام الفندق . حملوا بنادقهم واصطفوا فى انتظار المحافظ .. بدأت الموسيقى فى عزف المارش الفاشى .. هتف الأولاد جميعا عندما ظهر الجنرال جرازيانى فى الشرفة .. كان رجلا طويل القامة .. حاد الملامح .. كان عسكريا حتى النخاع .. لم يكن يجيد الخطابة .. كان كمن ينبح فى ساحة العرض, قال :" أيها الأولاد .. لقد تسلمتم بنادقكم اليوم .. ستسخدمونها للدفاع عن إيطاليا التى نحبها جميعا .. ستستخدمونها فى رفع شأنها والمحافظة على كرامتها . تذكروا فى كل وقت وفى كل محفل أنكم إيطاليون .. ورومان .. وتذكروا أن أجدادكم كانوا هنا من قبل .. إنكم رومان تقاتلون البربر .. عليكم بالرفق بهم ولكن اجعلوهم يشعرون دائما أنكم الأفضل والأرقى .. تذكروا أنكم رومان."

رفع الجنرال يده ونظر إلى العلم الإيطالى .. واستطرد فى خطبته قائلا :" مرة أخرى ترفرف أعلامنا هنا فى هذا البلد .. لن تزول أعلامنا مرة أخرى .. عاشت إيطاليا! "

وردد وراءه الأولاد :" عاشت "

بدأت الموسيقى مرة أخرى وغنى الأولاد النشيد الفاشى .. وخرجوا من أرض الاستعراض .

تمركزت كتيبة من الجنود الإريتريين خارج مبنى الحكومة , وخاطبهم الجنرال جرازيانى من خلال مترجم قائلا :" أيها الجنود الشجعان .. لقد حاربنا سويا فى طرابلس أمام مرزوق وفزان من أجل أن يحلق النسر الإيطالى بجناحين فوق ليبيا الرومانية .. إننى أتقدم لكم بعظيم شكرى على ذلك .. إن أمامكم معارك جديدة .. وأعلم أنكم ستحققون النصر مع الإيطاليين الذين يعتنقون نفس ديانتكم .. ولنردد سويا :" عاشت إيطاليا ومستعمرتها إريتريا."

رفع الجنرال يده .. وترددت الهتافات التى يقودها الضباط الإيطاليون بين الجنود السود .. كانت أصواتهم كأصوات الغربان . ثم بدأت القوات الإريترية فى الغناء والرقص فى الشوارع .. تكونت منهم مجموعات .. كل مجموعة تتكون من عشرة جنود وقد تماسكوا بالأذرع وأخذوا يرقصون فى دوائر ويغنون بلغتهم .

كان العرب يرقبون ما يحدث دون مشاركة .. كانت الغالبية العظمى من السكان قد لزموا منازلهم حتى ينتهى ذلك الاستعراض العسكرى .

جلست أنا وتاربوكس فى شرفة الفندق بعد أن تناولنا طعامنا .. حضر بومباردى بعد فترة قصيرة وتوجه إلينا مباشرة قائلا :" إن السيارة جاهزة الآن .. تستطيع أن تسافر فى أى وقت , عندما تحصل على التصريح بالسفر ."
سألته :" وماذا فعلت فى مبرد السيارة ؟"
رد قائلا :" لقد استبدلنا اللحام بمادة أخرى .. ستوصلك إلى مصر ."
سألته ثانية :" وماذا كان فيه ؟"

قال :" قمنا بلحامه من أعلى إلى أسفل .. تستطيع أن تختبره الآن ."
قمت بقيادة السيارة حتى إحدى البوابات وهناك اعترضنا أحد الجنود الإريتريين قائلا :" غير مسموح لك بقيادة السيارة وراء هذه البوابات ."
سألته :" لماذا ؟"
رد بحزم :" لدى أوامر بمنعك من المرور ."
رد بومباردى :" ولكنك تسمح لجميع السيارات الأخرى بالمرور. "
أصر الجندى على موقفه قائلا :" ممنوع مرور هذه السيارة بالتحديد .. هذه هى الأوامر."
أرسلت مذكرة إلى مساعد الشرطة وعدنا إلى الجراج .. وبمجرد وصولى إلى هناك لاحظت أن الماء يندفع بشدة من مبرد السيارة .. كانت الفتحة التى يتسرب منها الماء عالية نسبيا .
نظرت إلى بومباردى حتى ينتبه إلى المشكلة , فرد دون تردد :" عليك بالحصول على مبرد سيارة جديد ." لم يكن أمامنا وسيلة أخرى .. اشتريت مبردا جديدا للسيارة على أن يتم تركيبه على الفور . وعندما عدت إلى الفندق قلت لتاربوكس :" إذا سمحوا لى بالسفر غدا هل سترافقني؟ "
هز رأسه قائلا : " لا أعتقد ذلك .. إذا بقينا هنا فترة شهر قد أستطيع السفر معك .. ولكنني أريد أن أسترد عافيتي تماما قبل مواصلة سفري .. كان بودي أن اصطحبك ولكن ...."
سألته : " وماذا ستفعل ؟ "
رد قائلا : "حسنا .. تستطيع أن تصل إلى مصر فى خلال أسبوعين .. وعند وصولك .. أرسل

إليّ برقية وسوف آخذ الباخرة إلى الإسكندرية حتى نلتقى ثانية .. ولكن أرى أنه من الأفضل أن أنتظر هنا لمدة أخرى . "
حددوا لى موعدا من الجنرال جرازيانى صباح الاثنين .. استقبلنى مساعده وهو يرتدى القفازات البيضاء.. ويضع شريطا حول صدره .. كان عليّ الانتظار حتى يستقبلنى الجنرال .
دخلت إلى مكتبه الخاص , فوجدته يجلس إلى مكتب كبير,أشار إليّ بالجلوس على مقعد أمامه.

كان الجنرال جرازيانى حليق الذقن .. وجهه أحمر .. يغلب على شعره اللون الرمادى .. عيناه سوداء .. تحدث إليّ بلغة فرنسية رصينة :" إذا أنت الذى حضرت من المغرب بالسيارة ؟"
قلت له :" نعم " رد قائلا :" ولكنك لاتستطيع أن تسافر أبعد من هنا ."
قلت له :" ولكننى هنا قريب من مصر .. وإذا سمحتم لى بالسفر فسوف أكون أول شخص فى العالم يقود سيارة من غرب أفريقيا إلى شرقها ."
رد سائلا :" وهل هذا هو السبب الوحيد لسفرك ؟"
قلت له :" لا .. ولكننى مهتم جدا بالثقافة العربية ."
قال :" وما رأيك فى إنجازاتنا هنا ؟"
قلت له :" أما من ناحية المدنية والحضارة فإنجازاتكم هنا رائعة .. ولكننى لن أكتب عن ذلك ."
رد قائلا :" وعن ماذا ستكتب إذا ؟"
قلت له :" إن ما أراه فى إيطاليا أراه هنا أيضا , وقد أرى أفضل منه .. ولكن ما يهمنى هو
ما لا أستطيع رؤيته هناك فى أوروبا ."

قال لى :" إذا تحملت المسئولية بنفسك .. قد نمنحك تصريحا بالسفر .. عليك بالاتصال بمساعدى فيما بعد ."
وقف الجنرال وانحنى محييا , ثم بدأ يملى بعض الخطابات على السكرتير الذى دلف إلى الحجرة أثناء لقائنا .
كانت السيارة جاهزة .. أحضرتها وأوقفتها خارج الفندق ووضعت فيها كل أمتعتى استعدادا للرحيل بعد حصولى على التصريح بذلك . طلبنى مساعد الشرطة وعندما التقيت به
سألنى :" لماذا أوقفت سيارتك هنا؟"
قلت :" لأننى على وشك السفر ."
قال :" ولكنك ليس لديك تصريح بالسفر ."
قلت له :" هذا صحيح .. ولكننى سوف أحصل عليه ."
سألنى :" وهل سترحل دون هذا التصريح ؟"
قلت له :" بالطبع لا ."
قال :" إنك لن تستطيع أن تبتعد كثيرا إذا حاولت فعل ذلك ."
قال ذلك ثم أمر شرطيا بمراقبتى .. وقد سمعت فيما بعد أنه أرسل برقيات إلى جميع مراكز الشرطة للقبض عليّ فى حالة محاولة عبورى . كان من الواضح ،أنهم غير مطمئنين .. وفى الواقع ما كنت لأسافر بدون هذا التصريح .
وفى حوالى الساعة الثالثة , ذهبت لمقابلة المقدم مافالديا .. الذى أخبرنى أنهم وافقوا على منحى

التصريح بعد مناقشات طويلة .. وأخبرني أيضا أن الحكومة الإيطالية غير مسئولة إذا ألم بى مكروها أو فقدت حياتى .. ولذا كان عليّ أن أوقع تعهدا بهذا المعنى .. ووضع مدير الشرطة التصريح بنفسه فى جواز سفرى .
عدت إلى الفندق وقد بلغ بى الفرح مبلغه .. وهناك وجدت أحد العرب الشبان فى انتظارى .. قابلنى قائلا :" اسمى حامد .. هل أستطيع السفر معك إلى مصر ؟"
سألته :" وكم عمرك ؟"
قال :" تسعة عشرة عاما .. وأستطيع قيادة السيارة ."
لم أبد حماسا لما قاله بشأن القيادة .. فقد كنت أفضل قيادة السيارة بنفسى .. ولكن من الناحية الأخرى وجدت أنه من الحكمة أن تكون معى صحبة .. فوافقت .
أعد حامد مكانا مريحا له فى السيارة , يقضى الليل فيه , وأعددت العدة للسفر فى الرابعة صباحا . كان الليل مازال يخيم على بنغازى عندما استيقظت .. ارتديت ملابسى على عجل .. كان كل شئ معد ولم يكن أمامى ما أفعله سوى الذهاب إلى حجرة تاربوكس ووداعه .
نزلت إلى السيارة فوجدت حامد وقد نام على المقعد الخلفى .. أيقظته ثم أدرنا المحرك .. وتوجهنا نحو البوابة .. وهناك خرج إلينا الرقيب الإثيوبى قائلا :" لقد سبق وقلت لك إننى لدى أوامر صارمة بعدم السماح لك بالسفر .. خاصة هذا الصباح ".
سألته عن السبب فقال :" هناك عملية إعدام لثلاثة من المتمردين فى قلعة على بعد سبعة أميال من هنا ."

قلت له :" ولكننى لدى تصريح بالسفر " قلت له ذلك وأعطيته جواز سفرى .. أخذ يقلب في صفحاته , ثم أعطاه لى قائلا :" أنا لاأعرف شيئا عن ذلك .. لدى أوامر بعدم السماح لك بالمرور ."
وبعد مناقشات وافق تحت إلحاح على الاتصال بمدير الشرطة هاتفيا , عاد بعدها وهو مقضب الجبين قائلا :" أنا لاأفهم ماذا يحدث .. لقد سمحوا لك بالسفر الآن."
فتح البوابة .. وانطلقت شمالا نحو المرج وكانت تبعد حوالى ثمانين ميلا .. كان أول خمسين ميلا منها فى سهل منبسط ضخم .. بدون تلال .. ثم بدأت سلسلة الجبال والتى تمتد لمسافة ثلاثمائة ميل بعد المرج وحتى درنة .. هناك كانت تدور المعارك الطاحنة بين القوافل وسكان الجبال . وبعد حوالى عشر دقائق شاهدنا حصنا إلى الجانب الأيسر من الطريق ..
قلت لحامد :" هنا ستتم عملية الإعدام .. هل نتوقف هنا ؟"
أومأ حامد برأسه موافقا .. ولكنه قال :" لن أشاهد عملية الإعدام ." وبقى فى السيارة بينما ذهبت أنا . كانت عملية الإعدام ستتم عند الفجر .. كانوا مشغولين بعمل التجهيزات اللازمة .. فقد بدأ الضوء يتسلل إلى ظلام الليل من جهة الشرق . وصلت مجموعة من الجنود الإريتريين – حوالى عشرة منهم – ومشوا بمحازاة الجدار .. لم يكن هناك أثر للعرب الذين سيتم إعدامهم .

وصلت سيارة نقل من بنغازى .. وبالرغم من انبلاج ضوء الصبح إلا أن السيارة كانت تضئ كشافاتها بقوة .. كانت مؤخرة السيارة مغطاة .. وقفت السيارة فى الجهة المقابلة لسيارتى حيث كان الجنود الإريتريون مصطفين .

وقفت على بعد حوالى خمسين ياردة من الجنود .. وانطلق صوت البوق .. حضر أحد الضباط من البوابة وهو يبدو عليه النعاس ويضع مسدسا فى حزامه ويرتدى حذاءا طويلا .. وأخذ موقعه بجانب الجنود السود .. حيوه تحية عسكرية بالسلاح ثم وقفوا فى الوضع استرح.
أحضروا السجناء الثلاثة .. كانوا ثلاثة من العرب الأقوياء .. قامتهم طويلة .. مقيدين بالسلاسل مع بعضهم البعض .. حملقوا فى الجنود للحظة كما لو كان أصابهم الارتباك .. ثم توقفوا لثوان واصلوا بعدها السير وصوت سلاسلهم يرتفع . اقتربت كثيرا حتى أتبين كل ما يحدث . نزل قائد السيارة النقل واقترب من حيث كنت أقف , وفجأة صاح أحد السجناء قائلا :"أهذا أنت يا أحمد؟"
لم يرد السائق ولكنه نظر حوله بعصبية خشية أن يجلب عيه ذلك عواقب وخيمة .. هز كتفيه وتوجه نحو السجين وصافحه بابتهاج قائلا :" صباح الخير ياعمى .. والله لم أتوقع أن أجدك هنا ." رد العم قائلا :" ولا أنا .. لم أتوقع أن أجدك هنا .. كيف حالك ؟"
رد أحمد قائلا :" الحمد لله .. وأنت؟"
حضر أحد الضباط ومعه لفافة من الورق وبدأ يقرأ منها بصوت عال .. بينما استمر العم فى الحديث مع أحمد مستفسرا عن أحوال العائلة . توقف الضابط وطلب منه الصمت .
قال العم :" بالله عليك .. لماذا أصمت الآن .. ما هى إلا لحظات وينتهى كل شئ .. وعلى أية حال .. إننى أعرف كل ما تقرأ ." هز الضابط كتفيه واستمر فى القراءة .
وعندما انتهى الضابط من قراءته .. طلب أحد السجناء وكان يقف بجانب العم سيجارة .. أعطيت إليه ولكن العم قال له :" أرجوك لا تدخن الآن .. إننا على وشك أن نفارق هذه الحياة ."

وافق السجين الاخر على ما قاله العم وهز رأسه . دفعوا السائق أحمد جانبا .. ارتفعت البنادق وصدر الأمر .. ودوت عشر طلقات فى وقت واحد .. سقط بعدها الثلاثة بلا حراك .. وبعد ثوان وضعوا الجثث فى السيارة النقل .. وعاد بهم أحمد إلى بنغازى .
أشرقت الشمس وبدأت أشعتها تلمع على حبيبات الصقيع فى كل مكان . عدت إلى السيارة وقد اعترانى شعور غريب بعدم الارتياح من برقة التى كنت على وشك اجتيازها .
ظل حامد نائما فى السيارة .. أيقظته فنظر إليّ قائلا :" لماذا أردت أن تشهد عملية الإعدام ؟"
قلت له :" لا أعرف السبب الذى دفعنى لذلك ."

قال :" ليس من المسموح لنا مشاهدة ذلك .. لم يقترفوا أى شئ يستحقون عليه الإعدام ".
لم أجبه واكتفيت بتشغيل السيارة . سارت الأمور على ما يرام .. وعلى بعد حوالى 45 ميلا من بنغازى .. كنت أسير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة عندما انكسر ذراع توجيه السيارة .. أخذت السيارة تتأرجح بين جانبى الطريق ثم وقعت فى حفرة .. ثم اتجهت نحو أحد الحقول .. وأخيرا نجحت فى إيقافها . كان القضيب الذى يربط بين العجلتين الأماميتين وذراع التوجيه قد انفلت .. وافرط الرولمان بلى .. كان لابد من استبداله بقضيب جديد .
شعرت بالغضب الشديد من السنيور بومباردى الذى كان قد أكد لى أن كل شئ سيكون على ما يرام . لم يكن هناك بديل عن الرجوع إلى بنغازى وبأسرع ما يمكن .. ولكن كيف ؟؟
كان هناك مخاطرة فى محاولة العودة بالسيارة . ويشاء القدر أن تمر بنا إحدى السيارات العسكرية .

ركبت السيارة وعدت إلى بنغازى وانتظر حامد بجوار السيارة بعد أن وعدنى ألا يلمس
أى شئ . وعندما عدت إلى بنغازى قابلت بومباردى وشرحت له الموقف .
أخبرنى أنه لن يدخر وسعا فى مساعدتى إلى أقصى حد قائلا :" خذ سيارتى النقل وسوف يصطحبك السائق إلى حيث سيارتك وهناك لن يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة لإصلاح العطل ." ركب معى السائق وقدت السيارة بأسرع ما يمكن إلى حيث كانت سيارتى .. كنت أشعر بالسرور .. فقد كان الوقت مازال مبكرا ونستطيع أن نستعد لمواصلة الرحلة عند الظهر.
كان من الممكن أن نصل إلى المرج فى المساء .. وبذلك لن يكون هناك وقت ضائع .
وبعد أن قطعنا حوالى أربعين ميلا بدأنا نبحث عن السيارة .. كان الطريق مليئا بالمنحنيات .. كنت أتوقع رؤية سيارتى فى أى لحظة .. قلت للسائق :" لقد طلبت من حامد أن يحرس السيارة .. لم يرد السائق .. لم تكن بنغازى مدينة كبيرة وكان الجميع يعرف بعضهم بعضا .. لم يكن هناك أى أثر للسيارة . قلت للسائق وقد بدأ القلق يساورنى :" إننى متأكد أن هذا هو المكان الذى تركت فيه السيارة . وبعد حوالى ثمانية أميال توقفنا .. كانت السيارة قد اختفت تماما.
سألنى السائق :" هل أنت متأكد أنك كنت على بعد خمس وأربعين ميلا من بنغازى "؟
قلت له :" إننى متأكد تماما .. هذا ما أظهره عداد المسافات فى السيارة ."
قال :" فى هذه الحالة إذا تكون السيارة قد سرقت."
هززت رأسى قائلا :" أولا السيارة كانت معطلة .. ثانيا لقد طلبت من حامد أن يحرسها ."
قال السائق :" لايمكن أن يكون قد عاد إلى بنغازى وإلا كنا قابلناه فى الطريق ."
تتبعنا الآثار على الطريق , ولكن لم يكن هناك أى أثر لسيارتى .

قلت له :" فلنعد إلى المكان الذى توقفت فيه السيارة وسوف يكون من السهل معرفة الاتجاه الذى اتخذته ." عدنا إلى حيث تعطلت السيارة وحددنا المكان الذى وقعت السيارة فى حفرة فيه .. ومن هناك كانت كل الآثار تشير إلى بنغازى . لم يكن هناك أى أثر يدل على تقدم السيارة فى اتجاه المرج .
قال السائق :" والله إن هذا شئ عجيب فعلا .. لقد عادت السيارة إلى بنغازى ."
عدنا إلى سيارة بومباردى وبدأنا رحلة العودة إلى بنغازى مرة أخرى . مررنا بخمس مراكز عسكرية .
توقفنا عند أول مركز وسألت الجندى المعين للحراسة :" هل رأيت سيارة مليئة بالأمتعة ؟"
قال الجندى :" نعم رأيت سيارة مليئة بالأمتعة .. كان ذلك منذ ساعة تقريبا .. كانت تسير بسرعة جنونية ." سألته :" وكم فرد كان فيها ؟" قال :" راكب واحد ."
نظرت إلى السائق وقد تملكتنى الدهشة وقلت له :" إنه حامد .. ولكن كيف مر بنا دون أن نراه .. وكيف استطاع قيادة السيارة وقد أصاب العطل العجلة الأمامية تماما .. إن هذا لغز من الألغاز ." توقفنا عند بقية المراكز وتلقينا نفس الإجابات .. سيارة براكب واحد وتسير بسرع جنونية .. وكان ذلك منذ ساعة . وعندما وصلنا إلى جراج بومباردى وجدنا السيارة هناك .. وحامد يقف بجانبها والبراءة فى عينيه .
سألته وقد استبد بى الحنق :" لماذا عدت بالسيارة إلى هنا ؟"
قال حامد :" لقد أخبرنى أحدهم أننى لا أستطيع أن أقف بالسيارة فى الطريق ."
قلت له :" هذا غير صحيح .. لقد طلبت منك أن تظل بجوار السيارة هناك .. وكيف عدت إلى بنغازى ولم نراك فى الطريق ؟"
قال حامد :" لقد عدت إلى هنا بعد دقيقتين فقط من رحيلكما ."
قلت له :" وكيف قدت السيارة وقضيب التوجيه مكسور ؟"
قال حامد :" لقد ربطته بقطعة من الخيط ."
بالطبع طردت حامد .. وفضلت السفر بمفردى .. كان ذلك أفضل من أن أفقد السيارة بين فترة وأخرى .. وبقى حامد فى بنغازى. وفى حوالى الساعة الثالثة بدأت رحلتى ثانية إلى
المرج , لم أواجه أى مصاعب حتى وصلت إلى حصن باكور وهو يقع عند سفح الجبل على بعد حوالى خمس وعشرون ميلا من المرج.
كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء" , وبدا الليل يسدل أستاره .. وعزمت أن أواصل السفر إلى المرج, ولكن قائد باكور منعنى من ذلك .. فحص أوراقى وقال لى :" إنك تخاطر بحياتك لو سافرت ليلا إلى المرج." سألت النقيب :" ولماذا ؟"
قال لى :" إن المتمردين يستطيعون رؤية أضواء سيارتك من على بعد .. وأؤكد لك أن الجبال تقاتل معهم .. عليك بالانتظار هنا الليلة والسفر غدا فى الحادية عشرة ."
سألته :" ولماذا لا أسافر فى الصباح الباكر ؟"
رد قائلا :" سوف تمر من هنا ثلاث سيارات نقل تحمل المؤن وهى متجهة إلى المرج وهى
عادة ترافقها حراسة قوية .. فإذا التحقت بهم غدا تستطيع أن تصل المرج سالما ."

قلت له :" ولكننى لا أخاف العرب ."
قال :" ولكنك لا تعرفهم .. إننى لا أبالغ إذا قلت لك أنهم كالشياطين .. إذا صادفت أحد منهم فإنهم يبادرون بإطلاق الرصاص عليك ."
سألته :" هل أستطيع إعداد خيمتى هنا ؟"
نظر إليّ النقيب فى دهشة :" هذا أمر خطير .. إننا نتعرض للهجوم من جانب المتمردين بين فترة وأخرى أثناء الليل .. عليك بإقامة خيمتك داخل الحصن ."
اتفقت معه على إعداد الخيمة داخل الحصن .. وكلّف الضابط جنديين إريتريين للحراسة حول الخيمة استمرت طوال الليل . وفى صباح اليوم التالى وصلت سيارات المؤن ومعها الحراسة الخاصة بها .. كانت عبارة عن سيارة مدرعة من طراز فورد يمكن أن تسير بسرعة ستين
ميلا فى الساعة .. وعليها أحد الجنود الإريتريين يمسك بمدفع رشاش فى المقعد الخلفى .
كانت الرحلة إلى المرج هادئة للغاية .. لم نقابل فيها إنسانا . تقدمنا ببطء .. بينما كان الطريق من بنغازى إلى باكور ممتازا .. إلا أن الطريق أصبح الآن سيئا للغاية .. لم يكن طريقا بالمعنى المعروف .. كان عبارة عن ممر يخترق الجبال .. وعلى كلا الجانبين لم يكن هناك سوى أشجار الصنوبر الضخمة .. بينما كانت تحلق النسور فى الفضاء . كان الطريق متعرجا بطول المسافة إلى المرج.. يرتفع تارة وينخفض تارة أخرى . كانت الحياة البرية غنية للغاية .. كانت هناك سحلية اللجوان العملاقة .. طولها ياردة ونصف تقف فى وسط الطريق .
أما حيوان ابن آوى فقد كان يختفى بين جذوع الأشجار .. كان ينظر إلى السيارة .. محاولا استطلاع الأمر . وفى الساعة الواحدة وصلنا إلى ميرج .
كان أول من قابلته .. النقيب فورنارى .. كان قد وصل أول أمس وقد اندهش لرؤيتى مثلما اندهشت تماما .
قال لى النقيب فورنارى :" لقد تلقيت برقية بإيقافك فور وصولك إلى المرج واليوم تلقيت
برقية منذ ساعة فقط بالسماح لك بمواصلة رحلتك ."
سألته :" وهل أستطيع أن أسافر فى الحال ؟"
قال :" يمكنك أن تناقش هذا الأمر مع رئيسى الكومندان دايوديس , وسوف أعرفك به بعد أن تضع السيارة فى الجراج .. أين ستقيم ؟" قلت له :" فى خيمتى ."
رد قائلا :" هذا غير مسموح .. إن ذلك سيكون خطيرا جدا .. من الأفضل أن تقيم فى الفندق .. إنها ليلة واحدة ."   فتوجهت بالسيارة إلى الفندق لقضاء الليلة .
ذهبت فى الساعة الثالثة إلى مكتب الحكومة . كانت المرج مركز قيادة الإدارة الإيطالية فى المنطقة الجبلية .. وكانت تحت قيادة الكومندان دايوديس .. كانت آرائه السلمية وطريقة التفاهم بينه وبين العرب تصطدم بالمعوقات التى تثيرها الدكتاتورية التىتحكم برقة تحت قيادة
الجنرال جرازيانى , كان من الطبيعى ألاّ يصرح بأرائه الانسانية هذه من قبيل الحرص , ولكن أعدادا كبيرة من العرب من الذين تناقشت معهم أجمعت على

إعجابها بأسلوب هذا الرجل على العكس من الجنرال جرازيانى الذى كان موضع كراهية العرب على كافة طوائفهم .
كانت هناك مقولة يتناقلها العرب " أن الجنرال جرازيانى يحاول أن يغرقنا فى بحر من الدماء بينما كان الجنرال دايوديايس يمد يده مصافحا لمن حوله فيعم السلام ."
وحقيقة الأمر أن الإيطاليين كانوا يحاولون إخضاع الملايين فى برقة بالقوة الوحشية .. مثلما كان يحدث أيام الثورة الفرنسية حين كان يتم إعدام ثلاثة أشخاص على الأقل كل يوم .. أى حوالى ألف ومائتى فى العام , فعندما كنت فى برقة جرى إعدام ما يزيد على الثلاثين شخصا يوميا.. مما يعنى أنه كان يتم إعدام ما يزيد على اثنى عشر ألف عربى سنويا .. هذا دون حساب القتلى من الجانب الإيطالى .. كانت الصحراء تطفو على بحر من الدماء .
كان الكومندان دايودايس طويل القامة .. أشيب الشعر مثل محافظ برقة الجنرال جرازيانى .. كانت عيناه تميل إلى اللون البنى .. وملامحه غريبة. كان الكومندان دايوديايس يتحدث ببطء وثقة كمن كان ينتقى كلماته .. كان يعطى انطباعا لدى من يقابله لأول مرة أنه شخصية باردة متحفظة .. ولكن بمجرد التعامل معه تتغير هذه الصورة تماما .. كان طيب القلب .. محب لمن حوله .. يحب العدل .. كان يبذل قصارى جهده فى إراحة ضميره مع كونه يمثل نظام عسكرى وحشى .. كانت المسألة صعبة للغاية .. لم يتحدث عنها مطلقا .. كان يشير إلى العرب وقد غلبته الشفقة عليهم .. لم أسمعه قط ينعتهم بكلمات كالكلاب أو الحيوانات .. كيف ذلك وهم أصحاب الأرض؟ كان الاستعمار الإيطالى لبرقة مشينا لأوروبا ولأى فرد ينتمى إليها .. لقد قامت إيطاليا بشن حرب وحشية تقشعر لها البدان .. حرب تجعل كل من ينتمى للجنس الأبيض يتوارى خجلا من تلك الفظائع التى ترتكب . أما الكومندان دايودايس فقد كان نموذجا فريدا ..
كان يمتلك ثقافة متحضرة .. ثقافة تدرك معنى الانسان وقيمته .
ذهبت إلى مكتب الكومندان دايودايس وهناك قابلت مساعده النقيب فورنارى الذى كان يعمل مترجما فى المرج.. لقد تعلم العربية عندما وقع أسيرا فى يد البدو فى الكفرة . أخذنى النقيب فورنارى إلى حيث يجلس الكومندان .. وعندما دخلت وقف مرحبا بى ومصافحا .
قال الكومندان :" إننى أعتذر بشدة , إننى لاأستطيع التصريح لك بالسفر فى الصباح الباكر .. إنها مخاطرة كبيرة .. عليك بالانتظار إلى بعد غد عند الشروق .. سوف تصحبك فرقة إلى سيرين ومن هناك ستتشكل فرقة أخرى تصحبك إلى درنة .
سألته :" وهل هذه منطقة خطرة ؟"
قال :" ليست خطيرة من هنا إلى قورين(شحات) ولكن المسافة بينها وبين درنة خطيرة للغاية .. كل السيارات والقوافل تهاجم فى هذه المنطقة ."
سألته :" وماذا عن المنطقة من درنة إلى مصر ؟"
قال :" هذه ليست خطيرة .. عليك بالذهاب نحو طبرق أولا ثم تتوجه من هناك نحو السلوم فى الأراضى المصرية , ولكن عليك بمناقشة هذه الأمور مع الكومندان فى درنة ."

سألته :" وما هى الأماكن التى أستطيع زيارتها هنا فى المرج ؟"
قال :" ليس هناك الكثير من الأماكن التى يمكنك زيارتها .. هذا المبنى الذى أنت فيه الآن يرجع تاريخه إلى الأتراك .. بمقدورك أن ترى مدافع الأتراك خارج المبنى إلى الآن .. عدا ذلك فإن المدينة تعتبر حديثة .. تستطيع أن ترى المدينة غدا إذا كنت ترغب فى ذلك .. تستطيع أن تزور
أحد معسكرات اعتقال البدو ويقع خارج المدينة . على أية حال نستطيع أن ننسق زيارتك الليلة .. أنت مدعو لتناول طعام العشاء معى الليلة .. إذا حضرت إلى هنا الساعة السادسة فسوف يدلك النقيب فورنارى على منزلى . وعدته بالحضور فى الموعد واستأذنته فى الرحيل .
وفى الطابق الأرضى كانت هناك بعض التصريحات المكتوبة والصادرة من حكومة برقة .. وها هو إحداها :

إلى جميع سكان المرج

فى يوم 28 من أبريل صدر الحكم بإعدام التاجر كامد بن محمد الشرهدى رميا بالرصاص .. وقد صدر الأمر بتخفيف حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .. وليكن معلوما للجميع أن من يرتكب نفس الجريمة مستقبلا .. وهى مساعدة المتمردين من سكان الجبال .. فسوف يصدر الحكم بإعدامه .

القيادة العليا لبرقة بنغازى
أول مايو 1930

وفى الساعة السادسة ذهبت إلى مكتب الكومندان حيث التقيت مع النقيب فورنارى وتوجهنا من فورنا إلى منزل دايودايس . لم يتكلم مضيفنا كثيرا على مائدة العشاء ونحن نجلس ثلاثتنا , ولكن بعد العشاء دعانى إلى دخول المكتبة .. كانت تضم مجموعة رائعة من الكتب .. خاصة الكتب التى تتحدث عن الشرق , لمحت أحد الكتب عن زيارة قام بها الكاتب, وهو صحفى فرنسى إلى عبد الكريم أثناء الحرب فى منطقة الريف. أخذت الكتاب وبدأت أقلب فى صفحاته.
سألنى دايودايس :" ما رأيك فى عبد الكريم ؟"
قلت له :" فى الحقيقة أنا أحب هذا الرجل .. إننى معجب به أيما إعجاب ."
رد قائلا :" على المستوى الاستراتيجى يعتبر عبد الكريم من العباقرة , لقد هاجم مع حفنة من رجاله إحدى القلاع الأسبانية واستولى على ما بها من مدافع وبنادق , ثم بدأ فى شن حرب شاملة ومجابهة الحلفاء من الفرنسيين والأسبان لمدة أربع سنوات كاملة .. أنا أعتبر ذلك إنجازا رائعا ." واستطرد دايودايس قائلا :" إنه لأمر مثير للدهشة .. إننا نواجه متاعب مع المتمردين فى الجبال هنا .. هل أرض المعارك هنا أصعب من مناطق جبال الريف ؟"
قلت له :" لا .. كلتاهما متشابهتان .. بل ربما كانت الجبال فى منطقة برقة تملؤها الغابات والأحراش أكثر من جبال منطقة الريف ."
سألنى :" وهل هناك سلام الآن فى مراكش ؟"
قلت له :" إن الفرنسيين فى حالة حرب فى منطقة التفليلات .. هناك حوالى ربع مليون مقاتل عربى تحت السلاح .. ولكن مراكش نفسها هادئة ."

تنهد دايودايس قائلا :" لقد أعجبت دائما بنظام الاحتلال الفرنسى .. إنهم يعرفون كيف
يتعاملون مع المواطنين ."
قلت له :" لقد حضر الأوروبيون إلى الشرق ومعهم حضارتهم وحاولوا تطبيقها فى الشرق وتجاهلوا الحضارة الموجودة . إن الحضارة بمدنيتها ومصانعها تجلب
وراءها بؤرها السرطانية .. إن الصانع الماهر الوطنى هنا يتقن صنعته ويقنع بالقليل ولكنه يبدأ فى الميل إلى
المادية .. مثله كمثل الغالبية العظمى من سكان أوروبا .. وسرعان ما يصبح ساخطا ومنحطا وشاربا للخمر ويبدأ فى البعد عن دينه وتعاليمه والذى ساهم فى جعله إنسانا له قيمة ."
ابتسم دايودايس قائلا :" ربما هناك شئ من الصحة فيما تقول , ولكننى أرى من الحكمة أن نتوقف عن مناقشة هذا الموضوع .. إنك تعلم أننا لن نتفق أبدا ."
وفى صباح اليوم التالى ركبت مع الكومندان سيارته وتوجهنا فى زيارة إلى معسكر اعتقال البدو .. كان يبعد حوالى ميلين من المرج .
كان يحيط بالمرج سهلا عظيما .. وعلى مسافة قصيرة من المدينة يمتد داخل الجبال متجها نحو درنة .. وهنا بالتحديد تحت سفح الجبل يقع معسكر البدو .
كان المعسكر ضخما .. كان يضم حوالى ألف وخمسمائة خيمة.. وبه حوالى من ستة إلى
ثمانية آلاف نسمة .. كان يحيط به الأسلاك الشائكة .. وعند كل مدخل وقف الحراس المسلحون بالمدافع الرشاشة . قدنا السيارة بين الخيام .. كان الأطفال يندفعون نحونا .. كانوا جوعى وملابسهم مهلهلة .. كانوا معتادين على أخذ النقود من الكومندان أثناء زيارته .. كانوا يمدون أيديهم ويتكلمون بالإيطالية طالبين القليل من المال .
أوقف دايودايس السيارة وأخرج من جيبه نقودا أعطاها للأطفال . تجمع البدو حولنا .. كان منظرهم يثير الشفقة فقد كانت ملابسهم مهلهلة .. وأقدامهم شبه حافية ويرتدون العباءات الممزقة .. كان يبدو على الكثير منهم المرض وقد انحنت ظهورهم .. وتشوهت أطرافهم .
سألهم دايودايس بالعربية عن أحوالهم .. تقدم أحدهم الصفوف قائلا :" إن الأمور سيئة للغاية
ياسيدى .. ماذا نفعل والحرب دائرة .. إن البدو يهبطون علينا من الجبال ويستولون على الأغنام والخيول .. ولم يعد هناك مكان يصلح لرعى أغنامنا .. نتمنى أن يسمح لنا بالخروج للرعى فى السهول وبين الجبال ."
هدأ دايودايس من روعه قائلا :" سوف ترى .. لقد اقتربت الحرب من نهايتها ."
رد الرجل :" فليرحمنا الله .. وإلا سنموت جوعا ."
لم يرد دايودايس على الرجل وبدأنا رحلة العودة , وفى الطريق نظر إليّ قائلا :" إنهم يستحقون كل شفقة .. إننا نقوم بتوزيع معلبات الغذاء .. ولكن هل هذا يكفى .. وإلى أى أمد ستظل ؟ إن البدو يهاجمونهم من الجبال ويعنفونهم لاستسلامهم .. وهم فى نفس الوقت

لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم .. إننى أتمنى أن نضع حدا لهذه المعاناة بأسرع ما يمكن ."

الفصل السابع

الوقوع فى يد البدو

فى صباح اليوم التالى وعند الشروق استعدت الكتيبة للحركة وقد ودعت دايوايس فى الليلة السابقة .. ثم وضعت سيارتى فى الصف خلف السيارة التى كان يجلس فيها المقدم متجها إلى درنة .
كانت الكتيبة تتكون من ثلاث سيارات نقل مملوءة بالجنود الإريتريين هذا بالإضافة إلى سيارتين مدرعتين مثبت على كل منهما ثلاثة مدافع رشاشة . صاح الرقيب الإيطالى المسئول بصوت عالى :" عليك بالالتزام دائما بالصف ولا تحاول القيادة بسرعة إذا أطلق علينا الرصاص . " شعرت بالاكتئاب عندما سمعته يطلب منى ذلك ولكننى وعدته بتنفيذ ما يطلب .
ملأت السحب الكثيفة خط الأفق من جهة الشرق .. وكان الظلام مازال مخيما فقد اختفت الشمس وراء هذه السحب وبدأنا رحلتنا عبر الجبال . . اخترقنا السهل الذى يوجد فيه معسكر البدو , وعندما بدأنا نقترب من الجبال بدأت السحب تنقشع تدريجيا , وسرعان ما أصبحت السماء من الشرق كبحر من النيران .
هبت علينا الريح وهى تحمل لنا عبق الأزهار فى الجبال .. حلقت النسور الضخمة فوق رؤوسنا وهى تطلق أصواتها المخيفة .. لم يكن هناك أصوات أخرى سوى صوت المحركات وهمهمة الجنود الإريتريين . كنا نواجه صعوبة كبيرة ونحن نتحرك بالسيارات إلى أعلى الجبل

خاصة وأن الطريق كان وعرا ومنحدرا تملؤه الصخور حتى لقد كدت أخشى أن تتوقف بنا السيارة عند المنحنيات على الرغم من كمية الوقود التى كنت أدفعها فى المحرك من خلال
دواسة السرعة . وعندما سرنا فى هذا الطريق لمدة نصف ساعة وصلنا فىأعلى التل إلى حافة الجبل التى كانت تطل على وديان فى كلا الجانبين . كانت تلك الوديان تقع فى ظل الجبل الذى كان ما زال يحجب ضوء الشمس وراءه .. بينما توهجت جوانبه وارتفعت الشبورة بلونها الأبيض من سفوح الوديان .
شققنا طريقنا طوال اليوم بصعوبة ولم نر أثرا للبدو .. لم نر أثرا لهم وكأنهم قد اختفوا من الوجود . وفى الساعة الخامسة وبعد عدة وقفات لإصلاح الإطارات وصلنا إلى سلسلة كبيرة من الجبال . كان وادى الموت جهة اليمين حيث دارت معارك كثيرة تركت وراءها الكثير من عظام البشر بين الضباع وابن آوى .
كان على قمة الجبل قلعة .. بدت وكأنها صندوق مربع .. وعندما اقتربنا منها شاهدنا أنها محصنة بالمدافع الرشاشة والمدافع الثقيلة , بينما كان العلم الإيطالى بألوانه

الثلاثة يرفرف أعلى الصارى . كانت هذه هى قلعة المروة , كانت هناك الخيام ممتدة على مرمى البصر.
هنا كان الكثير من البدو الذين استسلموا , وبعيداً فى الأفق وفى وسط الغابات كانت تتصاعد أعمدة الدخان الأزرق إلى السماء , تلك الأعمدة كانت ترتفع من نيران معسكرات البدو الأحرار الذين كان الإيطاليون يسمونهم بالمتمردين .
كان العقيد بياتى فى استقبالنا .. كان عملاقا أشقر الشعر .. كانت كل ملامحه إسكندنافية ,

وعندما طلبت منه أن يسمح لى بإعداد خيمتى للمبيت , أخذ يقهقه حتى احمر وجهه .. وقال لى:" ليس هذا محل مناقشة .. أنت هنا فى المروة .. يجب أن تنام داخل القلعة . "
وبالفعل خصصوا لى حجرة فى الثكنات المخصصة للجنود وأعطونى بطانية أتدفأ بها .
وبعد الغروب أشعلوا النار فى معسكر البدو خارج الأسلاك الشائكة . كان الرجال والأولاد من البدو أنظف وأكثر هنداما من البدو الذين شاهدتهم فى المرج .
أخذت جولة حول المعسكر قبل أن أخلد إلى النوم .. كانت الحياة والحركة تدبان فى كل مكان .. فالشباب كانوا منشغلين بالرقص واللعب بالكرة , سألت أحد البدو قائلا :" وأين عمر المختار؟"
رد وهويشير إلى الجبال بكلتا يديه :" عمر المختار موجود هناك فى كل مكان.. فى الجبال والوديان ."
ألقت النارضوءها على الرجال والحيوانات فظهرت ظلالهم طويلة على الأرض ..قرعت الأجراس لاستدعاء الجميع .. فعدت إلى القلعة . أدى الحرس تحية العلم فى المساء .. وتم توجيه ماسورة المدفع الرشاش تجاه المعسكر .. كان هناك خوف من روح عمر المختار
التى كانت تحلق فى كل مكان .
وفى صباح اليوم التالى تناولت بالكاد فنجان قهوة لنبدأ رحلتنا .. التى كانت قصيرة هذه المرة .. حيث توجهنا إلى أسفل التل إلى سيرين حيث كان من المفترض الوصول إليها وقت الظهر, هذا إذا سارت الأمور على ما يرام .. وإذا لم يكن هناك معارك .

انتهزت الفرصة وتجاذبت أطراف الحديث مع المقدم الذى تم تشكيل القافلة خصيصا لاصطحابه . كان طويل القامة .. مثقفاً .. من شمال إيطاليا .. و كان يتحدث الفرنسية بطلاقة وإتقان تامين, ولكنه كان يضمر كراهية شديدة لفرنسا .
سألته :" ما سبب وجود قوات كبيرة من إريتريا فى برقة؟ "
رد قائلا :" إننا نعتمد كثيرا على تلك القوات .. فالعرب كسالى ولايمكن الإعتماد عليهم .. كما

أنهم يولون الأدبار مع أول اشتباك . إن الإريتريين يتميزون بالولاء لإيطاليا والإيطاليين , لقد عشت شخصيا فى إريتريا ولم أر أى قلاقل أو تمرد هناك .
لقد فهم الناس هناك فى إريتريا كم من الفوائد ستعم عليهم بمقدم الإيطاليين إلى مدينتهم .. أما هنا فالأمر مختلف تماما .. هنا لابد من قتل السكان جميعا حتى يفهموا أننا الأقوى والأحدث تسليحا . "
توقفنا عن الحديث عند هذا الحد بالرغم من أنه كان هناك الكثير الذى كان من الممكن أن أقوله.
استمر سيرنا بالسيارات إلى أسفل التل ولكن الطريق كان مليئا بالأشجار والأحجار والحفر حتى كادت السيارة أن تتعطل .. وبالفعل وعلى بعد حوالى 6 أميال من سيرين انكسر جزء
من الإطار الأمامى واضطررت إلى مواصلة السير بالسيارة على الرغم من ذلك الكسر .
تقع قورين (شحات) على بعد حوالى 120 ميلا من البحر الأبيض المتوسط وحولها تلال من كل ناحية .. وبين هذه التلال نشأت تلك المدينة الرومانية ففيها يستطيع المرء أن يرى صفوف من الأعمدة حول الساحة و بعض المعابد.... وفي وسط المعابد أعددت خيمة لقضاء الليل .

كان منظر السيارة فظيعا....لم يمكننا إصلاح الإطار الأمامى لذا قررت نزعه من مكانه ولكن لم يكن هناك بديل له . كان من الممكن أن أنتظر لمدة أسبوعين حتى يرسلوا لى قطعة الغيارمن
بنغازى ولكن الإنتظار فى مدينة صغيرة كقورين لم يمثل لى أى متعة .. هذا بالإضافة إلى عدم وجود قوافل أخرى إلى درنة قبل شهر على الأقل .
أخيرا وبعد تقديم بعض المال وطيب الكلام .. حصلت على قطعة الغيار من سيارة نقل قديمة , وفى الواقع كانت تختلف عن القطعة الأصلية ولكنها كانت أفضل من لاشئ . وبالفعل قمت بتثبيتها باستخدام سلك سميك .. وعندما انتهيت كان الظلام قد حل فأغلقت الخيمة عليّ
ورحت فى سبات عميق .
وفى صباح اليوم التالى كان التعب قد بلغ بى مبلغه .. فاستيقظت متأخرا لأجد فوق رأسى جنديين إريتريين يحملون مصباحا , وقال لى أحدهما : " عليك بالإسراع فهم على
وشك الرحيل . " قال ذلك وهو يلقى بأشيائى برفق فى السيارة .
كانت عقارب الساعة عندئذ تشير إلى الرابعة صباحا .. وكان الظلام مازال منتشرا .
واستطرد أحد الجنديين قائلا : " أمامنا حولى 125 ميلا يجب أن نقطعها قبل حلول الظلام .. هذا هو أخطر جزء من الرحلة ."
انتهيت من حزم أمتعتى وأسرعت إلى حيث القافلة لأجد المقدم وقد جلس فى السيارة عابسا وأعطى أوامره ببدء التحرك . سرنا لمدة ساعات فى سهول منبسطة , ثم دخلنا

فى المناطق الجبلية . سرنا فى وديان صغيرة شديدة الانحدار حيث الأشجار الكثيفة على الجانبين .

كنا نتحرك بطول حافة الجبل..وكانت السيارات مكشوفة بحيث يمكن رؤيتها من على بعد
عدة أميال.
وفي حوالي الساعة السابعة صباحا بدأت الأعطال تصيب سيارتي نتيجة وضع قطعة الغيار
في الإطار الأمامي.. وبدأت أفقد قدرتي على التحكم في السيارة.. فبدأت تتأرجح يمينا و يسارا ولم يكن هناك مفر من إيقاف السيارة تماما.
مرت بي السيارات الأخرى.. السيارة المدرعة.. ثم سيارة الجنود الأريتريين..
وأخيرا سيارة نقل تحمل بعض الأجولة بها أربعة جنود أريتريين مسلحين بمدفع رشاش .
وعندما شاهدني سائق السيارة الأخيرة وقد توقفت.. أوقف سيارته وأشار إليّ بعصبية..
"عليك أن تسرع..لا يجب أن تنتظر هنا بمفردك..المنطقة هنا خطرة للغاية ".
أدركت أنني لن أستطيع التحرك قبل ساعة فشرحت له ذلك حيث عجلة القيادة تحتاج إلى إصلاح .. ولكنه التزم الصمت وعندما سمع صوت العربة المدرعة وهى تبتعد صاح
قائلا :" عليّ أن أتابع المسير .. وأنت عليك الرجوع إلى قورين حالما تستطيع السير فإن
هذا المكان مملوء بالبدو .. وليساعدك الله إذا وقعت فى قبضتهم ."
وتوقفنا عن الحديث .. فقد بدأ الجنود الإريتريين ينظرون حولهم بترقب وهم يستعدون
بمدفعهم الرشاش .. ثم بدأوا يحدثون جلبة بأرجلهم فى السيارة , فلم يجد السائق بدا غير
أن يودعنى ويذهب فى طريقه .. وسرعان ما توارت السيارة عن الأنظار .
أصبحت وحيدا تماما .. كان كل ما حولى يوحى بالسلام والهدوء .. مالت الهضبة نحو
الأراضى المنخفضة .. كنت أسمع طنين النحل وهو ينتقل من زهرة إلى أخرى .
لم أجد سببا للعجلة .. فجلست بجانب السيارة وبدأت أمضغ عود قش .. وبعد بضع ثوانى
تنبهت على بعض الأصوات فوقفت محاولا أن أكتشف مصدر الصوت .. ولكننى لم أر شيئا
وتعجبت لاستمرار الصوت .. نظرت على بعد فشاهدت قطيعا من الغنم .. وصلت إلى القطيع بعد حوالى ربع ساعة . شاهدت طفلين يرعون القطيع وقد لفحت وجهيهما الشمس , وعندما شاهدانى حاول الصغير أن يهرب ولكن الأكبر سنا وكان فى حوالى

الرابعة عشرة من عمره نهره قائلا :" ياللعار يا نظمى !! كيف تهرب والمفروض أن ترعى هذه الأغنام ؟ "
أمسك بعصا طويلة فى يده وتوجه نحوى وهو يهدد ويتوعد .. قلت له بسرعة :" ليس فى نيتى أن أستولى على أى من أغنامكما ولكننى أريد شراء بعض الحليب . "
رد الولد قائلا :" أنت إيطالى .. إذا كنت تريد حليب عد إلى بلدك لتحصل عليه ."
فشرحت له أننى لست إيطاليا .. بل جئت من بلد آخر , فنظر إليّ نظرة يكسوها الشك قائلا : " وهل تعمل لحساب الإيطاليين ؟ " قلت له :" لا .. لقد أتيت من مراكش ."
رد وقد اعترته الدهشة :" مراكش ؟ أنا لا أعرف مكانا بهذا الإسم ."
رددت بسرعة : " إنها فى أقصى الغرب ." فقال :" أعلم ذلك والله , أنت من طرابلس ."
قلت له :" لا .. إن مراكش أبعد من طرابلس ."
يبدو وكأنه أراد أن يحصل على أى تفسير آخر فسلم بما قلت , وأحضر إناء من الخشب
وذهب لحلب الشاه .. فملأها بالحليب وناولنى إياها فشربت بنهم شديد , فقد كان الحليب دسما .

حاولت أن أعطيه بعض المال .. فأخذ يقلب الليرتين فى يده ثم ناولنى بعضها قائلا : " أنا لا أعرف هذه العملة ."
لسوء الحظ لم يكن لدى من العملة الفضية القديمة التى يعرفها البدو جيدا .. فطلبت منه ومن أخيه أن يصطحبانى إلى السيارة كى أعطيهم أى شئ يمكن أن يستعملوه .
أبديا استعدادهما لإصطحابى خاصة بعد أن تبددت أى مخاوف تجاهى .. وعندما قدمت لهما قطع من الشيكولاته بدا عليهما عدم الارتياح .. فلم يكونا قد تذوقاها من قبل وقاما ببصقها على الأرض .. وفى النهاية أقنعتهما بقبول برنس قديم كنت قد أحضرته من مراكش .
كانت عملية إصلاح السيارة صعبة للغاية .. ولكنهما ساعدانى فى ذلك .. كان عليّ رفع الجزء الأمامى من السيارة وإعادة تثبيت قطعة الغيار الأمامية .. فربطتها مؤقتا حتى أصل إلى درنة .
سألت الولدين :" أين تسكنان ؟ "
ردا قائلان :" إن قبيلتنا تعيش فى معسكر على مسيرة يوم من هنا ."
سألتهما مستفسرا : " ولكن ألا تخافا من الإيطاليين ؟ "
رد أحدهما قائلا :" بالطبع .. نحن نخاف من الإيطاليين ولكننا نختفى منهم .. عادة ما يسلكوا طريق السيارات .. لذا فنحن نبعد عن هذا الطريق , وهم يتحركون بسرعة قبل أن يراهم أحد."
سألتهما :" ولكن ماذا سيحدث لو صادف وشاهدكما الإيطاليون .؟"
رد الآخر :" لا شئ ... فنحن مازلنا صغار السن .. لقد أطلقوا الرصاص على شقيقنا الأكبر لأنه كان يحمل بندقية يدافع بها عن الأغنام ضد ابن آوى ."

ودعت الولدين .. وواصلت رحلتى نحو درنة .. كان صباحا جميلا والجوصحوا .. لم أر فى حياتى أجمل مما رأيت ذلك الصباح .. كان منظر الجبال رائعا .. كانت الألوان الرائعة فى كل مكان .. فالسماء بلونها الأزرق فوقى .. والغابات بلونها الأخضر وبها ظلال آلاف الأشجار .. كانت الأزهار تملأ كل مكان تنتقل بينها الفراشات بخفة ورشاقة .. حتى الصخور كانت ألوانها رائعة . واصلت سيرى فى الممر الضيق عبر الهضبة .

عند الظهر بدأ الطريق يأخذ مسارا متعرجا يخترق سلسلتين من الجبال تزداد ارتفاعا .

انتشرت الأشجار على الجانبين .. ارتفعت درجة حرارة المحرك .. وازدادت حرارة الجو .

غلبنى النعاس .. وفجأة سمعت صوت ارتطام شديد , لم أتبين فى البداية أن ذلك كان صوت رصاصة .. اعتقدت أن عطلا أصاب المحرك .. وسرعان ما دوى الصوت مرة أخرى .

تطلعت إلى الجبال لأجد سحابة زرقاء تحلق فوق أحد الأشجار .. فهمت الوضع .. هناك بعض البدو الذين يطلقون عليّ الرصاص , أوقفت السيارة فورا وقد تملكنى خوف شديد خشية أن تصيبنى الرصاصة التالية .. أخذت أترقب ظهور العرب .

لم تمر ثوانى حتى ظهر رجلان من الغابة يحمل كلا منهما بندقية طويلة .. توجها ناحيتى وهما يصوبان سلاحيهما تجاهى على استعداد لإطلاق الرصاص .. جلست بلا حراك فى السيارة .

ظهر أربعة رجال آخرين .. وهم مدججون بالسلاح تحيط بأجسامهم أحزمة الرصاص , وعندما اقتربوا منى صاح أحدهم قائلا : " هل تعتقد أنك سوف تمر من هنا بسلام ؟؟ .. والله إن محاولة ذلك قد يكلفك حياتك .. خائن مثلك فى سيارة إيطالية!"

لم أفهم ماذا كان يقصد .. ولكن عندما أحاط العرب بالسيارة ظهر أحدهم وكان ذو لحية سوداء طويلة .. يبدو أنه كان القائد وسألنى عن مكان الأسلحة التى أحملها , قلت له مؤكدا أننى

لا أحمل أى سلاح معى .. ولكنهم بدأوا فى تفتيش السيارة بينما وقف أحدهم يرقب الموقف .

انتهوا من تفتيش السيارة ثم ربطوا ذراعى خلف ظهرى وأخرجونى من السيارة وطلبوا منى الجلوس على الأرض , ثم بدأوا فى الحديث فيما بينهم بصوت منخفض .

لم أفهم الكثير مما كان يدور بينهم .. فقد كان حديثهم بلهجة لم أعتد سماعها .. لهجة مختلفة من اللغة العربية التى كنت أسمعها فى طرابلس أو بنغازى , ولكننى تخيلت أنهم كانوا يتناقشون عن كيفية القضاء على حياتى . وبعد فترة توجه القائد ناحيتى وركلنى قائلا :" ما هى قبيلتك أيها الكلب ؟ "

شرحت له أننى لست أفريقيا ولكننى من بلد فى أقصى الشمال تسمى الدنمارك .

فسألنى بحدة :" ولماذا تقود سيارة الإيطاليين هذه ؟ "

أجبته بهدوء :" إننى لا أقود سيارة أحد .. هذه سيارتى وقد أتيت بها من مراكش ."

سألنى بحزم :" ولماذا ترتدى الطربوش وأنت لست مسلما ؟ "
قلت له إننى أرتدى الطربوش لأننى مسلم .. وأنا فى طريقى إلى مصر ومنها سأتجه إلى مكة إن شاء الله . "
أخذ القائد يتحدث إلى رفاقه .. ثم نظر إليّ قائلا :" أنت تكذب , إنك ترتدى طربوشا وتدعى أنك مسلم حتى لاينالك منا أذى, إنك من هؤلاء الفرنجة الذين أتوا إلى هنا للقضاء علينا ."
أكدت له بأننى لا أكذب بل أقول الحقيقة فقط .. ولكنه أصر على عدم تصديقى بل قال لى : " سوف تموت الآن .. كم قتل الكثير من إخواننا على أيدى أمثالك ."
اقترب أحد العرب من السيارة ليشعل فيها النار .. وكانت تلك هى المرة الثانية فى رحلتى التى أشعر فيها أن نهايتى قد حانت .
بدا وكأن فكرة ما قد خطرت على بال القائد , فقد فوجئت به يقول :" إذا كنت مسلما حقا فلابد أنك تحفظ شيئا من القرآن .. هيا رتل علينا بعضا منه ."
رتلت عليهم بعض السور التى أحفظها .. وعندما انتهيت نظر إلى رفاقه قائلا :" لايمكن أن يكون قد تعلم ذلك فى يوم واحد ."
بدأت أشعر بالراحة والأمان وراودنى الأمل .. فقلت له :" لقد حضرت إلى هنا لأتعرف على طرق معيشتكم وحياتكم هنا . . إنهم لايعرفون عنكم شيئا فى أوروبا ."
سألنى مستفسرا :" وما هى أوروبا ."
قلت له :" إنها قارة يعيش فيها الإنجليز والفرنسيين وأمم أخرى ."
رد سائلا :" وهل يعيش الإيطاليون هناك أيضا ؟ " كان يسميهم الروميون .
قلت له :" نعم .. الإيطاليون يعيشون هناك أيضا .. ولكننى أنتمى إلى قبيلة تختلف عن الإيطاليين تماما ."
رد قائلا :" إذا كان ما تقوله صحيحا فسوف نقرر ما يجب أن نفعله , سوف نصطحبك إلى معسكرنا وهناك سنقرر الخطوة التالية ."
قلت له مؤكدا :" هناك دليل على صدق ما أقول .. إننى أحمل المصحف الشريف فى السيارة ."
رد مندهشا :" لديك المصحف الشريف !!! "
اندهشوا جميعا مما قلت .. وصاحوا :" الحمد لله أننا لم نشعل النار فى السيارة .. ما كان الله يسامحنا لو كنا فعلنا ذلك والمصحف فى السيارة ."
فكوا وثاقى .. وبدأت نظراتهم إليّ يغلب عليها العطف والحب . . ولكن شكوكهم لم تتبدد تماما .
طلب القائد منى إحضار بعض البطاطين .. فقد أضطر للنوم على الأرض .
أخذت بعض البطاطين وبعض المؤن .. وخبأنا السيارة فى أحد الشقوق بعيدا عن الطريق ..
ثم بدأنا سيرنا نحو المعسكر .
مع طول هذه الأحداث .. إلا أن الساعة لم تكن تجاوزت الثانية .. واصلنا سيرنا لمدة ساعة

أو أكثر عندما توقف القائد وهو ينظر جهة الشمس قائلا :" لقد حان وقت صلاة العصر الآن "
وسألنى :" هل ستصلى معنا ؟" فأجبته بالإيجاب وتوقفنا بجوار أحد الجداول وتوضأنا للصلاة واصطففنا خلف القائد متوجهين تلقاء مكة .. وصلينا العصر فى جماعة .
وعند انتهاء الصلاة طلب منى القائد أن أقرأ عليهم بعضا من آيات القرآن الكريم من المصحف الشريف .. فلم يكن منهم من يستطيع القراءة .. فقرأت عليهم ما تيسر من الآيات
وقد خيم عليهم السكوت والسكون وعلت وجوههم السكينة والجدية .
واصلنا السير حتى حلول الظلام .. ثم قمنا بإشعال نار فى مكان مفتوح يصلح لإقامة معسكر لليلة واحدة .
جلسنا نحن السبعة حول النار وسألت القائد :" ألا تخشى أن يراك الإيطاليون ؟"
رد بسرعة :" لا أخشى أحدا .. إن الإيطاليين لا يجرؤون على الخروج من مدنهم التى يتحصنون بها إلا إذا كان لديهم أعدادا كبيرة من الجنود وبنادق سريعة الطلقات .. أما فى الظلام فإنهم لايجرؤون على مهاجمتنا على الإطلاق ."
سألنى أحدهم :" لابد أنك تحدثت مع بعض الإيطاليين .. ماذا يقولون عنا ؟ "
قلت لرفاقى :" إن الإيطاليين يتهمون سكان الجبال بارتكاب فظائع فى حربهم معهم .. ويتهمونهم أيضا بتعذيب سجنائهم ."
نظر إليّ القائد ثم ألقى بفرع شجرة كبير جاف فى النار .. فارتفعت ألسنة اللهب ..
ثم قال :" نحن نعرف الآن أنك مسلم صالح ولن تخدعنا أو تطعننا فى ظهورنا ..
سوف أحكى لك شيئا وأقسم بالله العظيم أن ما سأقوله لك هو الحق .. إننى لم أعش فى الجبال هنا كثيرا ولكننى مجبر على العيش فيها الآن .. فليس أمامى بديل آخر فقد حلت مصيبة بالواحة التى كنت أعيش فيها .. فجنوب هذه السلسلة من الجبال لاتوجد سوى الصحراء حيث يعيش الجن الشرير
لقد قاموا بسد الآبار .. ولاتوجد سوى الصحراء .. حتى الكفرة .. وأبعد من ذلك , إن الصحراء تمتد إلى بلدان لانعرفها .. بلدان يسكنها السود .. كانت الواحة التى كنت أعيش فيها هناك, حيث عاش والدى وأجدادى وجميع أفراد عائلتى منذ سنوات عديدة .. لقد شعرت بالفرح عندما رزقنى الله بولد .. ولكن الله وحده يعلم مكانه الآن .. لقد رزقنى الله بابنة .. كانت نور عينى .. كانت تملأ عليّ الدنيا بهجة وسرور .. عيناها سوداء كسواد الليل .. كنت أحبها كحبى لابنى
تماما .. ولكن حبى لله أعظم وأكبر من أى حب آخر ."
لم أرد عليه بكلمات ولكننى اكتفيت بإيماء رأسى .. لابد أن الآخرين سمعوا هذه القصة عدة مرات من قبل .. ولكنهم أنصتوا لما كان يقول .. كان الصوت الوحيد هو صوت النار وهى تحرق الأغصان الجافة .. كانت الدموع تملأ عيون القائد .. كانت دموعه تلمع فى ضوء النار .

قال القائد :" لقد حفظنى الله وثبتنى وجعلنى أتصرف كرجل أمام مثل هذه الشدائد .. ولكن قلبى أصبح كالحجر تجاه هؤلاء الكفار الذين غزوا بلادنا .. أما عقلى فأصبح كعقل طفل عندما أفكر فى تلك الكارثة التى حلت بنا .. إن الله وحده هو العادل ."
استمر القائد فى روايته وقد تملكه الأسى :" كنا نعيش فى سعادة فى واحتنا .. لقد كنت غنيا .. كان لدى ما يزيد على المائة من الإبل .. كانت كلمتى مسموعة لدى الجميع .. صحيح أنه كانت هناك حرب فى برقة .. وكان الشباب يذهبون لمساعدة سكان الجبال .. ولم نكن نعرف أى شئ حتى حدث شئ جلل .. ذهبت أنا وعشرة من الرجال للاحتفال فى واحة مجاورة .. واستمرت الاحتفالات لمدة ثلاثة أيام .. وعدنا إلى واحتنا .. كان أول من شاهدته زوجتى , جاءت إليّ عدوا .. والرعب يملأ عينيها وشعرها وراء ظهرها .. وملابسها ممزقة .
كانت تنتحب وتقول :" لاتعد إلى البيت .. لاتعد إلى البيت .. فليغفر الله لى وليسامحنى على ماسأقوله لك . " وكانت تبكى بكاءا شديدا .. ولم أسمع منها أى كلمة أخرى . ترجلت من على جملى لأجد أخى قد أتى .. قابلنى قائلا :" أخى .. إنك تعلم مثلى تماما أن الله يوزع الأرزاق على العباد ويعطى كل إنسان ما قسمه له .. لقد مات محمد ."
فصحت قائلا :" ولكن كيف مات ؟؟ .. لم يكن مريضا !! "
فرد أخى قائلا :" لقد كان الإيطاليون هنا .. لقد أطلقوا الرصاص على الرجال .. قتلوا واحد من كل خمسة رجال لأننا حاولنا الدفاع عن أنفسنا ."
لقد اهتز كيانى لما سمعت .. لم أستطع الكلام .. واستمر أخى فى روايته :" عليك أن تثق فى الله .. مهما حدث .. لقد اختفت عائشة ."
كانت عائشة هى ابنتى .. لم أعد أحتمل ما سمعت فصحت فيه قائلا :" أين اختفت ..هل ماتت؟"
فرد أخى قائلا :" لا ... لقد أخذها ضابط إيطالى مع بعض الجنود الإريتريين وأخذوا الجمال معهم ." قلت لأخى :" كان يجب عليك أن تجنبنى وبيتى هذا العار .. كان يجب عليك قتلها قبل أن يأخذوها .. هذا أشرف لنا ."
فرد أخى قائلا : " لم أدر ما حدث .. فقد انتشر الجنود الإريتريين فى كل مكان ."
لم أتكلم لفترة , ثم قلت لأخى :" عليك رعاية زوجتى وابنى أحمد وعمره تسع سنوات , أما أنا فسوف أبحث عن عائشة ." رحلت من الواحة على الجمل الوحيد الباقى .. ولم أكن أدرى أن ذلك كان آخر عهد لى بالواحة .. بحثت عن عائشة لشهور طويلة فى مدن كثيرة وأخيرا عثرت عليها فى إحدى بيوت الفسق فى درنة .. لقد أجبروها على ممارسة الفسق نظير مبلغ من المال .. عرفتنى عائشة فى البداية وعندما طلبت منها العودة معى هزت رأسها وبكت .
قالت لى عائشة :" أبى .. إننى مريضة ولن تتحسن صحتى ثانية ."
قلت لها :" لقد صفحت عنك ياعائشة .. سيسامحنا الله جميعا .. ولكن أخبرينى كيف وصلت
إلى هنا ؟ " ردت باكية :"بعد أن أخذ الإيطاليون الجمال ..أخذونى معهم وأحضرونى إلى هنا." انتحبت عائشة وازداد بكاؤها .. وزادت معاناتى معها .

قالت لى :" أقتلنى ياأبى .. لن أستطيع الهرب من هذا المكان .. إن موتى على يدك أهون من أن تتركنى فى هذا المكان ." فقتلتها وقبلت جبينها وهربت إلى الجبال .. وأنا أقول لك الآن .. سوف أقتل كل إيطالى يقابلنى .. هذا هو القصاص والعدل .. ولو كنت أدركت أنك إيطالى لكنت الآن فى عداد الأموات .. ولكننى رأيتك ترتدى طربوشا فآثرت الانتظار حتى أتبين الأمر ."
خيم الصمت علينا جميعا .. لم أستطع أن أرد على القائد .. ولكنه استمر قائلا :"
وأقسم لك
بالله العظيم الرحيم .. أن كل واحد ممن حولك لديه قصة مماثلة .. لذا فإننا لن نستسلم , إننا نحارب إلى آخر طلقة فى بنادقنا .. إننا لا نخشى مدافعهم الرشاشة .. إننا لا نهاب الموت .. لانخشى الجوع .. لانخشى أن تكون ملابسنا مهلهلة .. سوف نحارب إلى آخر قطرة دم .. إننا جميعا نحب الله ولكننا نمقت هؤلاء الشياطين البيض ..
هؤلاء الشياطين الذين هم سبب
معاناتنا .. حامد ! ما سبب وجودك هنا ؟"
رد حامد قائلا : " لقد قاموا بشنق أخى ."
" وأنت يا عبدالله ؟ " رد عبدالله قائلا :" لقد استولوا على كل ممتلكاتى .. قالوا إننى ليس لدى ما يثبت أنها ملكى .. مع أننى ورثتها عن أبى ."
" وأنت يا محمد ؟"
رد محمد قائلا :" لقد أطلقوا الرصاص على أبى وأخى ."
" وماذا عنك يا على ؟"
رد على قائلا :" أرادوا أن يحددوا إقامتى فى المدينة ."
" وأنت يا عبد السلام ؟"
ردعبد السلام قائلا :" لقد حكمواعليّ بخمس وعشرين سنة أشغال شاقة فى الملاحات فهربت."
التفت إليّ القائد قائلا :" لقد سمعتنا جميعا الآن ويعلم الله أننا ذكرنا لك الحقيقة .. ألم يكن من العدل قتلك إذا كنت تعمل لصالح الإيطاليين ؟ "
رددت عليه قائلا :" لكم الحق فى ذلك .. ولكن الحمد لله أننى لست إيطاليا .. تستطيع أن ترى من ملابسى أننى لست من برقة ولكن ملابسى من مراكش."
رد القائد قائلا :" لقد عرفت ذلك من أول وهلة .. لذا طلبت منك أن ترتل بعض آيات القرآن , ولكن دعنى أسألك .. لو كنا تركناك تواصل سيرك .. إلى أين كنت ستذهب ؟ "
فأجبته مباشرة :" إلى درنة " رد القائد :" ومن هناك تتجه إلى مصر ؟"
قلت له: " نعم .. بأسرع ما يمكن ."
انتحى القائد جانبا مع رفاقه وأخذوا يتهامسون فيما بينهم ثم قال :" إننا نثق فيك لأنك مسلم حق .. وهذا الشئ واضح مما لمسناه فيك من صدق .. إن أمامنا ثلاثة أيام حتى نصل إلى معسكرنا .. فإذا كنت تفضل العودة إلى سيارتك غدا صباحا فلك ذلك ..
بشرط واحد .. أن تقسم بالله بأن

تزور سيدى إدريس السنوسى أمير برقة عند وصولك الإسكندرية .. وتخبره أننا نقاتل حتى آخر رجل .. هل تعدنا بأن تفعل ذلك ؟ "فأقسمت له بالله العظيم أننى سوف أفعل ذلك .
أشار لنا أن نصلى قيام الليل .. وعندما انتهينا قال لى :" سوف تعود غدا صباحا إلىسيارتك
مع أحمد وعبد السلام ."
كانت الليلة شبه مظلمة .. وأخذت النار تخفت .. عرضت على القائد إحدى البطانيتين حتى يلتحف بها , ولكنه اعتذر عن قبولها .. أما البقية فقد افترشوا الأرض وراحوا فى سبات عميق .
تدثرت بالبطانيتين ونمت نوما عميقا .. كان ابن آوى يعوى حولنا .
استيقظت فى الصباح قبل الآخرين .. كانت السماء ما زالت يعلوها السواد .. وكانت النجوم تسطع .. وبدأ الضوء يتسلل إلينا من الشرق .. كان خمسة من العرب مازالوا فى سباتهم بينما انشغل السادس بإشعال النار .. فوضع بعض الفروع الجافة .. لم يلحظنى وأنا مستيقظ لأنه كان يدير ظهره تجاهى .. وبجانبه بندقية , نظرت إلى الآخرين وهم فى نومهم .. كانت ملابسهم رثة .. ولكن علت وجوههم وهم نائمون نظرات السلام والتصميم على النصر .. لقد أدركت الآن لماذا كان هؤلاء الرجال على استعداد للموت دون أن يهتز لهم جفن , ففى اليوم الذى قضيته معهم لاحظت مدى تمسكهم بدينهم واعتصامهم بحبل الله .. ولم يخطر ببال أحد
ولو للحظة أن يضيقوا بما قسمه الله لهم مهما كان مصيرهم .. فقد كانوا يحمدون الله وهم تحت المشانق على نعمة الحياة التى وهبها إياهم ويتحملون أى معاناة .. كان هؤلاء الرجال النائمون
أمامى فقراء وأميين.. فلم يعرفوا القراءة .. بل كانوا يكتبون أسماءهم بصعوبة.. ولكنهم كانوا بالنسبة لى أنبل من رأيت من البشر .
بدأت الشمس تتلون بلون الشفق الأحمر .. كان هذا وقت صلاة الصبح .. أيقظ الحارس المناوب
زملاءه قائلا :" حان وقت صلاة الصبح ."
توضأنا جميعا من أحد الجداول بجانبنا .. وصلى بنا القائد إماما وعندما انتهينا من الصلاة تناولنا بعض التمر الذى أحضرته من السيارة .. ثم ودعت أربعة من الرجال وشكرتهم على السماح لى بالعودة .
أعددت العدة للعودة مع أحمد وعبد السلام .. وقبل رحيلى قلت للقائد :" كنت أود أن أعود معكم إلى المعسكر فربما كنت أقابل عمر المختار ."
نظر إليّ القائد مبتسما وقال :" إن عمر المختار ليس موجودا الآن .. إنه فى وسط الجبال ."
سألته :" وهل يتولى عمر المختار قيادتكم ؟"
رد قائلا :" نعم .. إنه يقودنا الآن نيابة عن سيدى إدريس السنوسى ."
سألته :" وكم عددكم ؟"

رد القائد :" أنا شخصيا لا أعرف العدد بالتحديد .. ربما يصل العدد إلى ألفى مقاتل .. منتشرين فى جميع أنحاء البلاد ."
توقف لبرهة وأخذ يفكر ثم قال :" ولكن قتل الكثير منا .. لقد كنا عشرة .. قتل منا أربعة عندما اشتبكنا مع إحدى السيارات المسلحة بمدافع رشاشة .. لقد مرت هذه السيارة علينا قبل وصولك
مباشرة . " ومد يده مصافحا وهو يبتسم قائلا :" السلام عليكم .. إنك من المحظوظين لأننا سمحنا لك بالمرور .. إنك أول شخص يسمح له بذلك ."

قلت له : " إننى أعى ذلك تماما بعد كل ما سمعته منكم عن الإيطاليين .. كنت أعتبركم على حق لو كنتم أطلقتم النار عليّ عندما رأيتمونى أول مرة ."
هز كتفيه ثم قال :" يعلم الله سريرتك وما يدور فى عقلك وقلبك .. وقد اقتنعت أن كل ماقلته لى صحيح .. ولكن بالله عليك .. ماذا كان يحدث لأى منا إذا وقع فى أيدى الإيطاليين ؟"
التزمت الصمت فلم تكن هناك إجابة .
تصافحنا مرة أخرى ثم بدأت أنا وعبد السلام وأحمد رحلة العودة إلى حيث خبأنا السيارة .
وصلنا هناك قبل الظهر ثم تناولنا الطعام سويا وافترقنا .. رأيتهم وهم يبتعدون .. ثم وقفوا يرقبوننى وسرعان ما اختفوا عن الأنظار .. وأصبحت وحيدا تماما .
كان الطريق موحشا .. يأخذ مسارا متعرجا بين الصخور .. كنت أخشى أن يظهر من يطلق النار تجاهى .. فقد كان من المحتمل أن أقابل عرب آخرين فى هذه المنطقة .. ولم أعرف إذا كنت سأكون محظوظا مرة أخرى كما حدث فى المرة الأولى أم لا .
سارت الأمور على ما يرام , وفى حوالى الساعة الثالثة وصلت إلى أحد الحصون .. قدت السيارة ببطء فى الطريق المنحدر ثم أوقفت السيارة خارج الأسلاك الشائكة .
ظهر النقيب وتحدث بلهجة آمرة :" من أين أتيت ؟"
قلت له :" أنا لا أفهم الإيطالية ." ازداد انفعالا وقال : " أجبنى أنت."
قال ذلك وهو يهز رأسه .. ثم استدعى أحد الجنود الإيطاليين يتحدث الألمانية لكى يترجم المحادثة بيننا . سألنى النقيب :" من أين أتيت؟ " قلت له من :" من قورين ."

سألنى :" من الذى أعطاك إذنا بالسفر بمفردك ؟ "
قلت له :" لدى تصريح على جواز سفرى ."
وأعطيته جواز السفر فأخذ يقلب صفحاته ثم قال :" ولكن هذا لايعطيك تصريحا بأن تسافر
بمفردك ."
قلت له :" كنت أسافر مع كتيبة , وعندما تعطلت سيارتى واصلوا سيرهم وتركونى بمفردى ."
رد قائلا :" إن هذا شئ غريب .. وأين حدث ذلك ؟ "
قلت له :" بعد قورين بحوالى 30 ميلا ."

رد قائلا :" وقدت سيارتك من هناك إلى هنا بمفردك فىأخطر منطقة ؟هل قابلت أيا من البدو".
قلت له : " نعم ."
سألنى بسرعة : " ولم يلحقوا بك أى أذى! "
قلت له : " لم ينالونى بأى أذى . "
رد قائلا : " ما سبب مجيئك إلى برقة ؟ "
قلت له : " إننى فى طريقى إلى مصر . "
رد قائلا : " أنا لم أقصد ذلك .. ما هو هدفك من الاتصال بالعرب ؟ "
قلت له بهدوء : " لاشئ سوى الرغبة فى التعرف على الشعوب العربية وكيفية معيشتهم."
سألنى مستغربا : " وهل تتحدث العربية ؟ "
قلت له : " نعم ."

فكر لبرهة ثم قال :" إن الأمر يزداد غموضا .. هل تعلم أن أربعة جنود من الحامية قتلوا ؟.. إن الأمر يبدو غريبا .. يبدو أن المتمردين سمحوا لك بالمرور لأسباب معينة ."
قال ذلك ثم طلب منى أن أطلعه على الأوراق التى أحملها معى.. ثم فتش جيوبى ..
واستدعى أحد الجنود قائلا : " فرانسيسكو .. اذهب وافحص ما فى السيارة ."
لم يجد الجندى شيئا سوى المصحف الشريف فأخذه النقيب وأخذ يقلب صفحاته
ثم سألنى : " هل هذا لك ؟ "
قلت له : " نعم لى . "
سألنى : " ولماذا تحمله معك ؟ "
قلت له : " لأننى اعتنقت الإسلام ."
رد مستفسرا : " أنا لاأعرف من أى بلد أنت .. هل كلكم مسلمون هناك ؟ "
قلت له : " لا .. لسنا جميعا مسلمين .. هناك فى بلدى كل فرد حر فى اختيار ديانته . "
رد قائلا : " لكن إذا كانوا جميعا مسيحيين هناك .. فلماذا لست مسيحيا إذا ؟ "
قلت له دون تردد :" لأننى أعتقد أن الإسلام هو المسيحية الحقة."
رد قائلا : " حسنا .. عليك الانتظار هنا .. سوف أتصل هاتفيا بدرنة .. فرانسيسكو .. راقبه حتى أعود ."
وقف فرانسيسكو بجانب السيارة وهو يحمل بندقيته .. وبعد حوالى ربع الساعة عاد النقيب وقال : " لقد اتصلت بدرنة .. سوف نسمح لك بالسفر غدا صباحا .. ولكننى سوف

أرسل معك جنديين حتى يسلموك إلى المفوض .. أين ستمضى ليلتك ؟ "
قلت له : " فى خيمتى . "
رد قائلا : " حسنا...هذا شئ ملائم."

أعددت خيمتي للمبيت داخل السور الشائك..كانت الخيمة مصدر سعادة للجنود الأريتريين...فقد أخذوا يرفعوا أطراف الخيمة وينظرون إلى الداخل...وفي المساء تركوني أنعم ببعض الهدوء... ووقف أربعة من الجنود لحراستي.
وفي التاسعة من صباح اليوم التالي قمت بوضع أمتعتي في السيارة و حضر النقيب ومعه اثنين من الجنود المدججين بالسلاح جلس أحدهما بجانبي والآخر في المقعد الخلفي.. بدأنا رحلتنا بعد أن أعطاهما النقيب أوامر مشددة بتسليمي إلى المفوض.
كان الطريق من جوبا- اسم الحصن الذي قضيت فيه الليلة - إلى درنة يعج بالبدو.. وبالطبع وفي صحبتي اثنين من الجنود.. لن تكون هناك أية مهادنة معنا.
كان الجنديان يشعران بالقلق ويبدو عليهما عدم الارتياح سألني أحدهما :"عرفت أنك كنت مع المحفدية...هل هذا صحيح؟ "
قلت له :" نعم".
قال:" إنهم يقتلون كل من يذهب إلى هناك...ولكن لماذا لم يقتلوك؟!"
قلت له: " لأنني مسلم "
رد قائلا : " هذا ما قاله النقيب.. نحن أيضا مسلمان ولكن إذا قابلونا فمن المؤكد أنهم سيقتلوننا."
قلت له دون تردد:" نعم.. قد يحدث ذلك, ولكنهم أدركوا أنني لا أحارب بجانب الإيطاليين..
لقد أتيت من مراكش.. وفهموا أنني لست من الأعداء."
التزم الجنديان الصمت.. ربما كان ذلك صمت الذين يشعرون بالذنب.
كنا نسير بين الجبال.. كانت المسافة بين جوبا و درنة حوالي 45 ميلا قطعنا منها 25 ميلا عندما بدأت الجبال تنحدر إلى أسفل تجاه السهل الذي تقع فيه درنة.. أمسك الجنود بنادقهم بشدة.
قال لي الجندي الذي يجلس بجانبي وقد تملكه القلق الشديد:" إن هذه المنطقة خطرة للغاية.. إنها تعج بالبدو."
بدأ الطريق يأخذ مسارا متعرجا بين منحدرات تغطيها الأشجار من ناحية بينما توجد هاوية
من الناحية الأخرى .
سألنى أحد الجنديين : " كيف توقف السيارة ؟ "
سألته متعجبا : " لماذا ؟ "
رد قائلا : " إذا بدأوا بإطلاق الرصاص فسوف تكون أول من يطلق عليه الرصاص .. فإذا أصبت فإننا سنهوى بالسيارة فى الهاوية . "
قلت له : " إذا أصبت فلا يمكن لك أن توقف السيارة من مكانك . "
إزداد شحوبه وبدأ يتلفت حوله فى رعب شديد بينما السيارة تهبط مجتازة منحنى تلو الآخر بسرعة إلى أسفل المنحدر .. ولم نكد نصل إلى سفح الجبل حتى وجدنا حاجزا من الصخور يسد الطريق عند منحنى دائرى .. كان الحاجز على بعد حوالى 15 ياردة . . يرتفع بطول ياردة .. كان ممكن أن تتحطم السيارة إذا ارتطمت به .. إلتفت حولى فوجدت أن هناك منحنى بطول

20 ياردة يوصل إلى السهل المنبسط .. ناورت بالسيارة حتى استطعت بالكاد أن أمر بالسيارة دون أن تنقلب . . ولكن ارتطمت السيارة بصخرة كبيرة مما أتلف الإطارين الأماميين .
قفز الجنديان من السيارة وقد تملكهما الرعب .. وشحب وجهاهما وقالا : " فلنرحل من هنا فى الحال .. لقد وضع المتمردون هذه الصخور لسد الطريق أمامنا .. سرعان ما سيقومون بإطلاق النار علينا ."
حاولت أن أشغل السيارة .. كان المحرك سليما ولكن كان من المستحيل السير بالسيارة وقد تلف الإطاران الأماميان . شرحت للجنديين أننا لابد أن نصلح الإطارين أولا حتى يمكن أن نسير بالسيارة .. وبالفعل استغرقنا نصف ساعة لإصلاح الإطارين .
وأصاب الجنديين من التعب مبلغه..ولكننا لم نر أي أثر للمحفديين...فقد اختفوا كما ينقشع الندى قبل شروق الشمس.
قدت السيارة.. وبعد حوالي 50 ياردة وصلنا إلى السهل.. وقطعنا آخر خمسة أميال إلى درنة دون حوادث تذكر .
كانت درنة جنة الله فى الأرض .. طقسها رائع .. تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط
ودرجة الحرارة فيها أفضل درجات الحرارة فى أفريقيا على الإطلاق .. تبلغ 86 درجة فهرنهيتية نتيجة الرياح التى تهب من البحر صيفا .. وفى الشتاء لاتقل بأى حال من الأحوال عن 59 درجة فهرنهيتية , وعلى الرغم من أن المطر لا يهطل إلا فى أيام قليلة إلا أنه لم يحدث هناك جفاف على الإطلاق .. تربتها خصبة .. ليست صحراء جرداء , كانت تشبه الواحات .. بها بعض أشجار النخيل .. مدفونة فى الرمال .. كانت درنة بحر من الزهور .. بها تنمو أروع الفواكه . درنة بها أغرب وأصفى وأنقى ماء فى شمال أفريقيا .. يهبط الماء من الجبال وينساب فى المدينة وضواحيها .. لذا كان من الضرورى شق قنوات يمر خلالها الماء .. وينساب إلى البحر .. لذا فإن تربتها ليست مغمورة بالماء دائما . هناك سجادة كبيرة من الحشائش تعلوها الأزهار ذات الألوان الزاهية تمتد لتغطى التربة كلها .. تنتشر الحدائق بأشجار الموز الوارفة المثمرة .. وعلى الرغم من صغر حجمها مقارنة بالموز الذى يأتى من جامايكا .. إلا أن طعمه أطيب ونكهته أزكى .. نكهة تجمع بين الأناناس والفراولة . . أما ثمار المشمش والبرقوق فإنها تنمو وتكبر حتى تصبح بحجم بيض الأوز .. والأعناب الحمراء والخضراء .. تنمو فى الشوارع يتفجر منها العصير فى شهر الخريف من كل عام .. تصبح الأعناب كبيرة كبيض الحمام . إنها مدينة كريمة .. سماؤها زرقاء صافية .. كالناس فيها .. يتحرك الشباب فيها وحول أعناقهم سلاسل من الأزهار الزاهية . ومثلما يحبون الجمال فى العالم من حولهم .. فإن هذا الجمال مطبوع فى عقولهم وأذهانهم .
لم أقابل فى حياتى أناسا يقتدون فى حياتهم اليومية بالمسيح ويتبعون تعاليمه كلها .. أما سكان

الجبال فى نضالهم المستمر ضد الإيطاليين وظلمهم , فقد أصبحوا أكثر تشددا فى تمسكهم بالإسلام , أما فى درنة حيث معقل السنوسيون فقد كان المسلمون أقل تشددا بل يمكن القول بأنهم كانوا أكثر رقة ودماثة من أى مكان آخر فى شمال أفريقيا , و لم أر مكانا مثل درنة
حيث يغلب هنا على الناس كل ما هو جميل وكريم ..و يمقت فيه الناس الخرافات .. كما يمقتون الطاعون .
كان يحيط بدرنة من جميع الجهات سور عال , تحول فى السنوات الأخيرة لكى يصبح من القلاع الحصينة , لايستطيع أى بدوى أن يخترقه , كان هناك بوابة فى كل زاوية .. يقف على بابها أحد السود ممثلا للحضارة الأوروبية وهو يحمل مدفعه الرشاش , ولا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج دون الحصول على تصريح بذلك .
قدت سيارتى إلى الداخل ومعى الجنديان وقد استعادا شجاعتهما .. مررت من البوابة التى تفتح فى اتجاه قورين , وهناك أمرونى بالتوجه مباشرة إلى مكتب المفوض .
سرنا بالسيارة فى شوارع درنة العربية .. كانت نظيفة ومرتبة .. مررنا بميدان صغير به مقهيان صغيران , ثم إنتقلنا إلى الحى الأوروبى .. وكان يتكون من ثلاثة منازل وفندق , وأخيرا وصلنا إلى منزل المفوض حيث كان العلم الإيطالى بألوانه الثلاثة يرفرف فوقه
وعلامة الفاشية فوق بوابته .
كان مبنى أبيض ضخم يقطنه حفنة صغيرة من الإيطاليون الذين أتوا من بلادهم إلى درنة
مباشرة ويحكمونها من خلاله .. كانوا جميعا من العسكريين .. وكانت لديهم سلطات مطلقة .
لم يكن هناك من يمثل العرب .. ولكن من الجدير بالذكر هنا أنه كان هناك أحد العرب يدعى علي جربي يتواجد فى القيادة العليا ويعمل مترجما .
توقفنا بالسيارة خارج المبنى ودخل أحد الجنديين معى إلى مكتب المفوض بينما انتظر الآخر فى السيارة . كان المفوض رجلا متوسط الطول .. وكان يرتدى زيا عسكريا على أحسن ما يكون .. مقصب بالذهب على الأكتاف .. يعلو صدره نياشين وشريط رمادى اللون .. كان يرتدى نظاره .. و له شارب أسود صغير .
أشار المفوض إلى الجندى لينتظر فى الخارج , وطلب منى أن أجلس على أحد الكراسى الوثيرة أمام المكتب . . أخرج علبة السجائر الفاخرة من جيبه وقدم لى سيجارة .. كان يتحدث الفرنسية الركيكة .. ولكننا استطعنا التفاهم من خلالها .
بدأالمفوض قائلا:"حسنا أيها السنيور, لقدعرفت أنك كنت تنتقل بدون حرس فهل هذا صحيح؟"
قلت له أن هذا صحيح وقد اضطررت إلى ذلك لأن الكتيبة التى كنت أسافر معها تركتنى وحيدا فى وسط الطريق بعد تعطل سيارتى واستمرت فى سيرها .
رد بأدب :" وسمعت أيضا أنك قابلت بعض المتمردين ."
قلت له : " بالفعل هذا حدث ."

سألنى : " ما هى أهدافك من هذه الرحلة ؟ " قال ذلك وهو يرسم دوائر متقنة بالقلم الرصاص على الورق أمامه .
قلت له : " إن هدفى الأول هو كتابة مقالات عما أرى وأشاهد , والهدف الثانى هو أن أعبر أفريقيا من الغرب إلى الشرق ."
سألنى بهدوء :" قل لى لماذا تتحدث العربية وترتدى الزى العربى ؟ "
فأجبته بهدوء أيضا :" أولا لأننى مولع ومهتم بالشعوب العربية , والسبب الثانى أننى
اعتنقت الإسلام ."
رد قائلا : " ألهذا السبب لم يلحق بك البدو أى أذى ؟ "
قلت له : " أفترض ذلك .. ولكننى أيضا على الحياد تماما .. إن ما يشدنى هنا هو حياة العرب الثقافية .. ليس لى علاقة بالسياسة , وقد شرحت للبدو أننى لا أحمل أى عداوة لهم على الإطلاق .. لهذا السبب لم يلحقوا بى أى أذى."
وضع المفوض القلم فى فمه .. وصمت برهة ثم ابتسم بطريقة ماكرة .. وقال : " أنا من طبرق ودعنى أقول لك صراحة أننى لا أفهمك .. بالله عليك ما الذى عند العرب يثير اهتمامك ؟ إنهم جنس جبان .. كسالى .. ومتراخون .. فأين تجد الثقافة التى تتحدث عن دراستها هنا ؟ "
قلت له : " إن ثقافتهم فى فلسفتهم .. فى اعتدالهم .. فى أسلوب حياتهم الجميل .. فى حبهم وتقديرهم للأسرة .. فى العون الذى يقدمونه لكل من يعرفون ومن لايعرفون .. فى إيمانهم المطلق بالله فى جميع الظروف."
رد متهكما : " فلسفة !! إعتدال !! .. وماذا فى ذلك ؟؟ حاول أن تعرف العرب عن قرب وسوف تكتشف أنهم غير متحضرين .. يضعون العراقيل أمامنا ونحن نحاول بناء البلاد .. نريد
أن نرسخ النظام هنا .. خذ درنة على سبيل المثال .. لاتوجد منطقة فى مثل خصوبتها .. ماذا يفعل فيها العرب ؟ إنهم يهملون أرضهم ويتكاسلون .. إن الأرض هنا ممكن أن يتضاعف محصولها عشرين مرة إذا طبقت طرق الزراعة السليمة .. إنهم يكتفون بتحقيق ربح بالكاد يكفيهم .. ليست لديهم دافعية لتحسين ظروف وزيادة دخولهم . "
قلت له : " ولكنهم سعداء كذلك .. وسوف يكونون أسعد حالا إذا استمرت حياتهم بالطريقة
التى اعتادوا عليها . "
بدا على المفوض قليل من الضيق وقال : " أنا لاأفهم بالتحديد ما تريد قوله , هل السعادة تكمن فى أن يأكل الإنسان ما لا يكفيه ؟ هل السعادة تكمن فى أن يتوقف الإنسان عن التطور والتقدم وأن يكتفى بأن يجثوا على ركبتيه خمس مرات فى اليوم أمام ربه ؟ إذا كان هذا ما تقصده فالأفضل ألا نتناقش فى الموضوع على الإطلاق. "
قلت له : " نعم , هذا ما أعنيه تماما وسأقول لك لماذا .. إن الشرق يختلف تماما عن أوروبا خاصة بعد التقدم الذى تحقق فى أوروبا فى الجيل الأخير .. إن الشرق يبحث بالفعل عن التقدم والتطور .. ولكن فى مجالات تختلف عن تلك التى فى أوروبا .. إن الشرق يبحث عن تطور الروح والسموبها .. هذا هو أهم شئ فى الشرق .. إنهم هنا

يعتقدون أن السبيل إلى ذلك هو فى اتباع الدين والعمل بما جاء فيه .. إن المسلم فى ذلك يرقى بنفسه .. يفهم الجمال بكل معانيه وأشكاله الحقيقية والأخلاقية .. إنه ينشد الكمال الأخلاقى والجمالى والغنى .. هذا هو الله ."
توقفت لبرهة ثم استطردت حديثى مع المفوض قائلا :" لقد تحدثت إلى الكثيرين منهم .. وأعلم
أن منهم من ليسوا كما قلت لك .. ولكن الغالبية منهم على الرغم من ملابسهم الرثة وفقرهم , إلا أنهم يتمتعون بسمو روحى أكثر من أى أوروبى ."
وقف المفوض وأخذ يتنقل فى الحجرة جيئة و ذهابا وسألني:" وهل تحاول إقناعي أنك شخصيا تصدق كل ذلك؟ إن ذلك جنون...إذا كان الأمر كما تقول فعليك نبذ كل التقدم الذي تحقق..
وأن تترك كل المخترعات العظيمة التي توصلوا إليها."
قلت له مؤكدا : " بالطبع نعم.. يجب أن أفعل ذلك بعد هذا المنحنى الذي أخذته الأمور في أوروبا.. إن الهدف الأول أمام الجنس الأبيض في أوروبا هو التقدم في صناعة الآلات.. يعنى أننا مجازا نستطيع أن نقول أنهم في أوروبا يهتمون بالجسد وحده.. وإنني أعتقد أن مثل هذا التقدم والتطور سوف يخلق حالة من الفوضى في أوروبا وسيحدث ذلك إن عاجلا أو آجلا.
والأسوأ من ذلك ان تطغى المادية.. عملية ميكنة الإنسان وإنكار قيمة الثقافة و الدين, وقد كان السيد المسيح على حق عندما قال :"عليك بإعداد كنز لك في
السماوات"...هذه الكلمات يقولها الوعاظ في جميع انحاء أوروبا.. ولكن لا أحد يعمل بهذه الكلمات إلا هنا في الشرق.. والسيد المسيح نفسه كان من الشرق".
هز المفوض كتفيه وقال: "أرجوأن تتوقف عن مناقشة الموضوع أكثر من ذلك...أنت تقول أنك تكتب.. ونحن الإيطاليين لا يهمنا ما تكتبه.. إننا لا نخشى من مواجهة الحقيقة.. إن البقاء للأقوى..هذا هو السائد على هذه الأرض.. حتى في الطبيعة إن الأقوى هو الذي ينتصر في النهاية وهو الأصلح لأداء العظيم من الأعمال.. وهذا هو ما نطبقه هنا .. لقد نجحنا فى جعل هذا البلد بلدنا ..
لقد حاولنا خلق نظام دولة هنا فردوا علينا بإطلاق الرصاص على سجنائنا... بادرونا بالهجوم حين لم نتوقع ذلك.. كانوا يمارسون أشد انواع القسوة مع ضباطنا وجنودنا الذين يقعون في أسرهم .. لقد تعاملنا معهم بشيء من اللين.. ولكن هذا الأمر انتهى الآن.. يجب أن تأخذ إيطاليا مكانها تحت الشمس.. إن لدينا أعدادا من الإيطاليين يتزايدون عاما بعد عام...إذا أصر العرب على مقاومتنا .. فهذا أفضل.. إن هذا سيعطي مجالا للفلاحين الإيطاليين للمجيء والعمل هنا.. وأعتقد أن الصقليين يمكنهم الاستقرار هنا لأن الطقس هنا مماثل للطقس في صقلية.
لقد وضعت أمامك حقائق لا يمكن لأحد أن ينكرها.. دعني أسألك سؤالا هل لهذه الأمة من المخلوقات القذرة الحق في أن تعيش ويحرموا أمة نشطة من ظروف الحياة الضرورية؟" اكتفيت بهز كتفي...قررت ألا أجيب على سؤاله... جلس المفوض وبدأ يرسم بقلمه الرصاص بطريقة عصبية ثم قال :"لا يهم إذا لم نتفق .. ولكنك لن تستطيع الرحيل في الوقت الحالي"

سألته : " ولكن ولم لا ؟ "
رد قائلا :" إن المنطقة الممتدة بين درنة وطبرق غير مأمونة.. إنها مملوءة بالبدو.. ولا أستطيع أن أوفر لك الحماية الكافية في الوقت الحالي".
قلت له :" ولكن لدي تصريح على جواز سفري".
قال :" أعرف ذلك.. ولكنني المسئول والقائد هنا.. ولا اجرؤ على أن أتخلى عن مسئوليتي في حماية حياتك" قال ذلك مبتسما وتظهر عليه مشاعر الود.
سألنى : " أين ستسكن هنا ؟ "
قلت له : " أنا لا أعرف درنة جيدا . "
قال مبادرا : " هناك فندق روما .. يمكنك أن تسكن فيه."
سألته مستفسرا : " ألا تسمحوا لى بالمبيت فى خيمتى ؟ "
رد بسرعة : " بالتأكيد لن أسمح بذلك .. إنه غير مسموح لك المبيت خارج السور .. وليس هناك مكان آخر تذهب إليه سوى فندق روما . "
إستأذنت المفوض فى الرحيل وخرجت متوجها إلى البوابة أفكر فيما سأفعله .. فلم يتبق لدى سوى 500 ليرة , تكفى بالكاد أن أصل إلى الحدود المصرية .. وبالطبع لن أستطيع الانتظار هنا فى درنة لمدة شهر حتى تصلنى حوالة نقدية من الدنمارك .
كانت سيارتى هى الوحيدة التى تقف أمام البوابات .. اختفى الجنديان .. أخيرا أصبحت حرا أو هكذا تخيلت .. لقد تملكنى شعور غريب بأننى فى سجن .. كانت درنة بمثابة سجن كبير تحيط به المدافع الرشاشة فى كل مكان .
كان الفندق قريبا من الحى العربى , ولم يكن سوى منزل عربى قديم , كان المالك إيطاليا كبيرا فى السن .. ويبدو أنه لم يكن معتادا على استقبال نزلاء كثيرين فى الفندق .. فقد استعد لاستقبالى استعدادا كبيرا .
كانت هناك صورة لموسولينى وهو يرتدى قميصا أسود .. وتحتها كانت هناك صورتان للبابا وللملك فيكتور رامانويل , ومكتوب تحتها " الكنيسة والدولة تتضامنان."

وكان واضحا أن هذه الصورة قد التقطت عندما اعترف موسولينى بدولة الفاتيكان .
وفى الساعة الثانية والنصف ذهبت إلى المدينة حتى أصلى فى المسجد , كان الطريق من الفندق إلى الميدان- حيث كانت المقاهى – يمر بين جدارين عاليين خلفهما حدائق مليئة بأشجار الموز ونخل البلح وجميع أشجار الفاكهة .
كان المسجد قريبا من الميدان .. كان كبيرا جدا .. ولكنه لم يكن المسجد الوحيد فى درنة .. ففى المدينة نفسها كان هناك أربعة مساجد صغيرة , وخارج المدينة كان هناك مسجد صغير وجميل جدا تم بناؤه تكريما لسيدى أحمد السنوسى الذى يملأ أتباعه درنة .
وعندما دخلت المسجد تقدم إليّ أحد الرجال مرحبا .. قال :" اسمى إبراهيم الصيرفى .. مرحبا بك فى درنة .. من أين أتيت ؟ "
قلت له :" إننى أحد مسلمى أوروبا .. قد وصلت مؤخرا من مراكش ."
صاح فرحا : " من مراكش ؟ .. هذا عظيم .. لابد وأنك زرت أندلسية أيضا ."

قلت له :" نعم لقد زرتها عدة مرات .. و ذهبت إلي مالقة وغرناطة و قادس وقرطبة ".
قال إبراهيم :" إنه أمر مثير أنك وصلت إلى درنة .. إن معظم العائلات هنا من الأندلس , مثلا عمدة المدينة السابق عبد العزيز وآخرين كثيرين .. لقد هربوا إلى برقة عندما استولى الأسبان على الأندلس من المغاربة."
ثم سألنى :" كم ستبقى هنا ؟ "
قلت له :" لا أعرف على وجه التحديد .. إننى أسافر بالسيارة ولكننى لاأستطيع السفر حتى
يمنحنى المفوض إذن بذلك . "
وعندما سألنى عن السبب قلت له أنهم أخبرونى بوقوع قتال كثير فى هذه الأنحاء .
رد إبراهيم :" هذا صحيح .. لقد بدأ الإيطاليون فى استخدام الغازات السامة . . لقد أبادوا قرية بكاملها .. لذا فإن رجال عمر المختار يحاربون بلا هوادة ."
قلت له :" ولكنهم لم يلحقوا بى أى أذى ."
همس فى أذنى :" هل رأيت أحد من المحفدية ؟ لا أحد ينجو بحياته من بين أيديهم ."
حكيت لإبراهيم عن تجربتى فى الجبال .
قال إبراهيم :" لقد لاحظت أنك تصلى مثلما نصلى نحن, إذا فأنت مسلم .. وفى هذه الحالة سوف أحكى لك عن بعض الأشياء دون خوف .. أقسم لك بالله أن الأمور سيئة للغاية هنا
فى درنة أيضا ."
سألت :" من أى ناحية تقصد ؟ "
قال إبراهيم : " لا يمر يوم هنا دون إعدام بعض السكان هنا إما بالشنق أو بالرصاص .. وبتهم تافهة .. لقد أعدموا أول أمس أحد التجار .. كان اسمه عبد الواحد."
سألته مستفسرا :" وماذا فعل حتى يقوموا بإعدامه ؟ "
رد إبراهيم :" لم يفعل أى شئ .. كل جريمته أن له أخا يعيش فى الجبال .. أتى إليه يوما فأعطاه عبد الواحد كل ما استطاع من أطعمة .. وتسلل الأخ إلى خارج المدينة ولكنهم عثروا عليه ميتا فى صباح اليوم التالى .. فقد شاهده الحراس وهو يهرب , فأطلقوا عليه الرصاص فأردوه قتيلا
وعندما تفحصوا ما كان يحمل من مؤن وأطعمة أجروا تحقيقا , توصلوا من خلاله إلى مصدر الأطعمة والمؤن .. كان المصدر عبد الواحد .. فقبضوا عليه وحكموا عليه بالإعدام رميا بالرصاص ."
سألت إبراهيم :" وهل يحكمون بالإعدام على الناس فى كل جريمة ؟ "
رد إبراهيم دون تردد :" نعم .. هذا يحدث كثيرا , حتى العرب الذين استسلموا فى درنة لم يسلموا من ذلك .. إنهم يعزمون القضاء علينا تماما ."
مشينا سويا فى الشوارع حتى وصلنا إلى إحدى المقاهى , وهناك جلسنا لنشرب القهوة , وبعد دقيقتين من جلوسنا صاح إبراهيم .. انظر هناك على الجانب الآخر من الشارع .. هناك يجلس عبد العزيز .. العمدة السابق .. إنه رجل لطيف."

عبرنا الشارع إلى حيث كان يجلس عبد العزيز .. كان عمره يناهز السبعين .. شعره أبيض , ولحيته بيضاء . طلب منا سيدى عبد العزيز الجلوس ودعانا لشرب القهوة , وعندما أخبره إبراهيم بأننى فى طريقى إلى مصر .. دعانى لشرب الشاى فى منزله فى اليوم التالى .
كانت الشمس تشرف على المغيب .. فأسرعت عائدا إلى الفندق حيث كان موعد العشاء فى السادسة .. ولم أكن الوحيد الذى يتناول العشاء .. جلس بجانبى أحد الإيطاليين .. اكتشفت فيما بعد أنه كان مهندسا يدير أحد المصانع بالغرب من الفندق .
جلس هذا المهندس ومعه أحد موظفى الجمارك .. كان هناك أيضا عددا من الضباط توقفوا فجأة أثناء تناولهم الطعام ووقفوا فى وضع الانتباه .. وأدوا التحية الفاشية .. لقد دخل المقدم ..
كومندان درنة . كان هذا المقدم يتناول عشاءه كل يوم فى الفندق .. كان قصير القامة .. لحيته يعلوها الشيب .. عصبى المزاج , كانت أصابعه ترتعش وهو يتناول طعامه .. تعلوا وجهه ابتسامة لكل من يقابله .
ألقى عليّ بالتحية .. فقد كنت الغريب الوحيد الموجود .. كان من النادر أن يصل إلى درنة شخص غريب .. كانت نظرات الاستغراب واضحة فى عينى الكومندان .
لم نكد ننتهى من تناول الطعام , حين دخل أحد الجنود وتوجه نحو الكومندان وأعطاه برقية .. فتحها بسرعة وقرأها .. احمر وجهه وعض على شفتيه وخرج حتى دون أن يشرب القهوة .. وبعد لحظات سمعت سيارته وهى تبتعد .
تحدث المهندس مع رفيقه قائلا :" الآن عليه الخروج ثانية .. لقد زادت وقاحتهم مؤخرا ."
كان موظف الجمارك ينظف أسنانه .. وسرعان ما قال :" لا عليك .. سوف يتغلب عليهم ."
وبعد حوالى ربع ساعة خرجت من الفندق .. فشاهدت ثلاثة سيارات مدرعة .. وقد أضاءت كشافاتها .. وسرعان ما توجهت السيارات نحو طبرق .

الفصل الثامن

السجن والترحيل

مرت أربعة ايام .. كنت قد وصلت فى اليوم الرابع عشر, واليوم هو التاسع عشر .. ذهبت إلى

مكتب المفوض طالبا تصريحا بالسفر , لم أتمكن من مقابلته شخصيا ولكن سكرتيره أخبرنى

أنه مشغول للغاية ولن يتمكن من مقابلتى , وهكذا لن أستطيع السفر . وأخبرنى السكرتير أيضا أن عليّ البقاء لثلاثة أيام أخرى وسوف يقومون بإرسال خطاب إلى الفندق الذى أنزل فيه .
فى خلال هذه الفترة تعرفت على معظم العرب فى درنة .. وأصبحنا أصدقاء .. خاصة
عبد العزيز عمدة درنة السابق والذى كان يساعد كل من يلجأ إليه .. كنت أراه كل يوم يجلس على كرسيه على الرصيف وقد وضع فى حجره أرغفة الخبز يوزعها .. كانت تبدو على
عبد العزيز السعادة الغامرة وهو يفعل ذلك .
توثقت علاقتى أيضا بإبراهيم .. والذى أثبت أنه رجل على علم و ثقافة كبيرة .. كان كثيرا
ما يحدثنى عن شبابه وكيف قضاه مع الأتراك فى محاربة الإيطاليين .. كان يحدثنى أيضا عن أنور باشا وكمال باشا .. لم يكن يحبهم . لقد اشترك عبد العزيز وإبراهيم فى الحرب التى اندلعت عام 1912 وقد شاهدت آثار الجروح التى أصيب بها ابراهيم أثناء الحرب فى الجبال. كان إبراهيم يشعر بالفخر وهو ينظر إلى آثار الجروح .
مرت ثلاثة أيام .. ولم أتلق أى رد من مكتب المفوض .. وعندما ذهبت فى الخامس والعشرين لاستطلاع الأمر .. طلبوا منى الانتظاروالتحلى بالصبر .. لم يكن أمامى خيار آخر .
وفى اليوم الثامن والعشرين حدث أمر هام .. كان هناك أحد معسكرات البدو وخارج الأسوار .. استسلم البدو جميعا للإيطاليين وكان محظورا عليهم حمل السلاح .. ولكن أحد العرب اكتشف

أن أربعة منهم يقومون بتزويد الثوار فى الجبال بالخبز والسجائر .. فتم القبض عليهم وأودعوا السجن .. وطوال هذا اليوم لم يكن هناك حديث سوى الحديث عن هؤلاء الأربعة . كانت هناك روايات عن تعرض البدو فى تلك المعسكرات للموت جوعا .. فقد كانوا يتعرضون للهجوم من جانب الثوار لأنهم استسلموا .. بينما الإيطاليون

يمنعونهم من حمل السلاح للدفاع عن أغنامهم وإبلهم . كان أحد الأربعة المقبوض عليهم يبلغ من العمر ستين عاما .. كان طويل القامة قوى البنية .. كان متزوجا وله من الأبناء تسعة .. أما الثانى فقد كان يبلغ من العمر أربعين عاما وكان له من الأولاد الصغار ثلاثة .. أما الثالث فقد كان أصما وأبكما .. أما رابعهم وهو شقيق الأول غير متزوج . تم نظر القضية أمام محكمة عسكرية خاصة تنظر مثل هذه القضايا . وصل القاضى يوم 29 لنظر القضية .. كان الاستجواب علنيا .. حرصت على حضور جلسات المحاكمة التى كانت تتم باللغة الإيطالية ويقوم بترجمتها على الحربى وكان يعمل فى مكتب المفوض . مثل المتهمون أمام هيئة المحكمة التى كانت تتكون من القاضى وبعض الضباط .

قام القاضى بقراءة الأسماء ..كان البدو ينظرون حولهم فى حيرة .. كان الجلوس يرتدون ملابس أنيقة .. كان أكبر المتهمين سنا هو أحمد بن عبد القادر .. تم استجوابه أولا .

سأله القاضى :" أنت متهم بإعطاء المتمردين من البدو فى الجبال الخبز والسجائر , هل

تعترف بذلك ؟ "

لم يرد أحمد .. التزم الصمت . كرر القاضى سؤاله بلهجة شديدة :" هل تعترف بذلك ؟"

لكمه أحد الحراس فى ظهره كى يرد .. وفى الحال قال أحمد :" نعم ."

قال القاضى :" هذا يكفى .. المتهم التالى ."

كرر القاضى نفس السؤال على المتهم الثانى .. وتلقى نفس الإجابة .

وعندما مثل المتهم الثالث أمام القاضى .. تلقى عدة ضربات كى يرد على سؤال القاضى ويعترف بالتهمة ولكنه لم يتكلم ولم يرد .. أخبرهم أحمد أن هذا المتهم أبكم وأصم .. فأمر القاضى بإطلاق سراحه . أما أصغر المتهمين وكان يدعى إدريس .. وكان يبلغ التاسعة عشرة من عمره .. فقد نفى التهمة عن نفسه تماما .. وعلى الرغم من تلقيه عدة ضربات من الحراس حوله إلا أنه أصر على إنكار التهمة .

قال له القاضى :" إن لدينا هنا جميع الأدلة .. وهى كلها تدينكم."

أصر إدريس على موقفه قائلا :" إذا لم نعطيهم الخبز والسجائر فإنهم يغيرون علينا ويستولون على أغنامنا وإبلنا .. وليس لدينا ما ندافع به عن أنفسنا .. فممنوع علينا حمل السلاح .. فكيف نمنعهم ؟ "

قال له القاضى :" ولماذا لم تستدعوا حرسا من درنة ؟"

رد إدريس قائلا :" إن تعاليم القرآن تمنعنا أن نسلم المسلمين إلى المسيحيين ."

رد القائد :" ولكننى لا أرى أى ظروف مخففة فيما تقول .. لقد اعترفت ضمنا أنك زودت الأعداء بالطعام ."

رد إدريس :" نعم .. ولكن .."

قاطعه القاضى وأخذ يتلو الحكم بصوت عال .. حكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص من الخلف

نظرا لأنهم قد خانوا إيطاليا .. أما المتهم الأبكم والأصم فقد صدر له الحكم بالبراءة .
قام على الجربى بترجمة الحكم إلى العربية .. نظر العرب حولهم وقد أصابهم الوجوم .. لم ينظر إليهم أحد بنظرة شفقة .. كان كل الحضور من الإيطاليين الذين حضروا لمشاهدة تنفيذ الحكم . وعندما سمع شقيق إدريس الحكم أصابه الجنون حزنا على شقيقه واراد أن يعانقه للمرة الأخيرة ولكن الحراس منعوه من ذلك .. كان يصيح كالحيوان الجريح .. خرج من المحكمة إلى الشارع وفقد وعيه .. نظر أحمد إلى على الجربى وطلب منه أن يطلب من القاضى تخفيف الحكم .. فقد كان يعول تسعة أبناء .
قال القاضى :" إن المحكمة العسكرية لاتعرف سوى البراءة أو الحكم بالإعدام ."
وصلت سيارة إلى خارج قاعة المحكمة وصعد الحراس وقيدوا المتهمين .. ونزل الجميع .. كان المتهمون فى حالة من الذهول وكأنهم لم يستوعبوا الحكم بإعدامهم .. تجمع حشد من الناس فى الشوارع .. كان كلهم من العرب .. التزموا الصمت واعتراهم الحزن الشديد .. وضعوا المتهمين فى السيارة وانطلقت بهم نحو الشاطئ .
سألت ابراهيم :" ولماذا لم يأخذوهم إلى السجن ؟"
هز ابراهيم رأسه قائلا :" سسيتم تنفيذ حكم الإعدام فورا على الشاطئ ."
سرعان ما توقفت السيارة .. التزم الحشد الصمت .. مرت خمس دقائق فى سكون رهيب .. ثم سمعنا صوت الرصاص .. تبعه سكون مطبق .. ثم سمعنا صوت طلقة واحدة .
سألت ابراهيم :" وما هذا ؟"
قال ابراهيم وقد تملكه الحزن :" إننا معتادون على ذلك .. عندما يتم إطلاق الرصاص عليهم من الخلف فإنهم لايموتون من فورهم وعندئذ يتقدم أحد الضباط ويطلق رصاصة واحدة على رأس من تبقى منهم على قيد الحياة ."
بدأت الشمس فى المغيب .. تلونت أمواج البحر بلون أشعة شمس الغروب الحمراء .. ثم هدأ كل شئ . وفى اليوم التالى خيم شعور عميق بالأسى على درنة بأكملها .. أصاب العرب الحزن والوجوم .. واختفت الابتسامات التى كانوا يتميزون بها .
قابلت ابراهيم .. شد على قبضتيه قائلا :" أتمنى لو عدت شابا فى العشرين .. لوتحقق ذلك فلن تجدنى هنا كالجبناء .. كنت ستجدنى فى الجبال مهما كانت الصعوبات ."
قلت لابراهيم :" إذا ما حدث بالأمس شئ متكرر الحدوث ."
قال ابراهيم :" نعم .. إن ما يحدث على أرض الواقع أسوأ من ذلك .. إنهم يشكون فى الجميع هنا .. إننا لانعرف متى يزجون بنا فى السجون .. لقد قتلوا أحمد بالأمس .. من سيرعى أولاده من بعده ؟ هذا ما يحدث كل يوم .. فى الشهر الماضى قاموا بإعدام امرأة ."
نظرت إليه مندهشا وقلت :" امرأة !!! "
رد ابراهيم :" نعم .. لقد عرفنا القصة الحقيقية .. مع أن هناك من يقسم أنها لم تحدث .. كانت هناك امرأة تعيش فى أطراف معسكر البدو فى خيمة ومعها طفلها البالغ من العمر ستة أشهر. كانت صغيرة السن وكان يطاردها أحد الجنود هنا يحاول أن يغويها .. ولم يكن هناك من

يحميها من براثن هذا الوحش الآدمى بعد مقتل زوجها .. لقد كنت أعرفها حق المعرفة .. فقد
تحدثت معها عدة مرات .. وقد سبق وأخبرت الجميع كيف كان هذا الجندى يضايقها .. وذات ليلة حضر إليها اثنان من العرب الذين يعيشون فى الجبال.. وطلبا منها بعض الطعام .. فأخبرتهما أنها لاتستطيع إعطائهما طعاما لأن عقوبة الإعدام هى مصير كل من يفعل ذلك .. ولكنهما هدداها بالقتل إذا لم تعطهما طعاما .. فسمحت لهما بأخذ بعض الخبز والسكر .. ورحلا دون أن يلحقا بها أى أذى .. وفى اليوم التالى حضر الجندى الذى كان يعمل فى خدمة الإيطاليين .. كان من الفارين العرب .. وأخبرها الجندى أنها تقوم بإعطاء المتمردين سكر وخبز .. بكت المرأة وأنكرت ذلك .. لقد كان هذا الجندى ومازال يحظى بكراهية الجميع."
توقف إبراهيم عن الحديث قليلا وقد تملكه الحزن .. كان ابراهيم يشعر بالأسى لأنه كان يتحدث بهذه الطريقة عن هذا الجندى العربى وهو مسلم .. ولكن هذا الجندى كالإيطاليين .. يشرب الخمر حتى الثمالة .. كان ذلك هوسبب سلوكه المشين .
ثم استمر إبراهيم قائلا :" قام الجندى بمحاولة إغواء المرأة المسكينة فقال لها : لن ألحق بك أذى إذا وافقتى على النوم معى هذه الليلة . ولكن المرأة نهرته قائلة : ولكننى لم أرتكب أية أخطاء . ولكن الجندى أصر على نيل مأربه منها .. ولكن دون جدوى.. فلم تمكنه المرأة من
نفسها.. فألقى القبض عليها .. ومثلت المرأة أمام المحكمة .. واختلق الجندى قصة فقال أنه عندما كان فى نوبة حراسته رأى أحد المتمردين وهو يهرب فأطلق عليه الرصاص فأصابه ولكنه نجح فى الهرب .. وأثناء هروبه سقط منه كيسا للسكر وبعض الخبز .. وقد ثبت أن السكر والخبز ملك للمرأة .. وهكذا انتهت القصة ."
سألت إبراهيم :" ولكن ماذا حدث للمراة ؟"
رد إبراهيم بأسى :" لقد نالت نفس مصير الآخرين .. لقد شنقت ."
سألته :" ولكن ماذا حدث للطفل ؟"
هز كتفيه وقال :" لقد أخذه الإيطاليون .. ولكننى لا أعرف أين هو الآن ."
سألته :" ولكن كيف عرفت هذه القصة ؟"
قال إبراهيم :" لقد روت المرأة هذه القصة لشخص جاء لوداعها .. لقد روت كيف أن هذا الجندى الذى قبض عليها حاول إغوائها .. لقد دبر لها هذه المكيدة حتى ينال منها .. لقد تنكر هو وشخص آخر فى زى المتمردين وأغارا عليها .. ثم تظاهر هو بإطلاق النار عليه ولكنه بالطبع لم يصبه .. تأكدت المرأة من ذلك وروت القصة بكاملها ."
سألته :" وهل تعتقد أن ذلك ما حدث فعلا ؟"
رد قائلا :" نعم .. لقد كانت تبلغ من العمر عشرين عاما وقد كانت محل ثقة كل من حولها .. لقد شنقت منذ شهر خارج المدينة ."
كانت المقاهى فى الميدان كثيرة وتمتلئ بالناس كل مساء .. كانت هناك واحدة يقصدها الكثيرون .. كان صاحبها محمد وينادونه بالحاج لأنه كان مولودا فى مكة .. كان زبائنه كثيرين فكان يضع المقاعد فى كل مكان .. يجلس عليها الناس يحتسون

القهوة ويدخنون الأرجيلة وهى المخدر الوحيد الذى كان يتعاطاه المسلمون هنا .. كان فى درنة مقاهى أخرى .. وكان قد تم افتتاح بار إيطالى يقدم الخمور لم يكن يرتاده أيا من العرب . كان أحيانا ما يحاول الجنود
إغراء أحد الصبية باحتساء الخمر فيبدأ فى الترنح فى الشوارع طول الليل ويضحكون. كان ذلك نادر الحدوث فى الحى العربى الذى كان يعمه السلام التام .
كان الحى العربى مكان التقاء الشيوخ بسكان المدينة .. كان مكان عقد الصفقات والتجارة .. والتفاعل الاجتماعى .
مضت عدة ايام منذ أن كنت فى مكتب المفوض .. كنا فى بداية شهر يونيو وقد أصابنى اليأس خاصة وقد أنفقت النقود التى كنت أحتفظ بها لشراء وقود للسيارة .. وخطرت لى فكرة بعدها أستطيع أن أتحرك سريعا . . لم تكن هناك بادرة عن موعد صدور التصريح .. ولا عن موعد وصول حوالة نقدية من الدنمارك . رفض المفوض استقبالى ثانية وازداد الموقف حرجا فى الفندق .. خاصة بعد أن علم المهندس وموظف الجمارك اللذان كانا من الفاشيين أننى أحتسى القهوة فى المقاهى العربية .. كانا يقابلاننى بسخرية قائلين: "هذا هو صديق عمر المختار."
كان مساء الرابع من يونيو .. بدأت الأمور تتضح .. وعندما كنت متجها نحو الميدان قابلت صديقى إبراهيم .. كان يبدو حزينا للغاية .. بادرنى قائلا :" إننى لاأعرف ماذا أصاب الإيطاليين ؟ لقد ألقوا القبض على ثلاثة من الشيوخ فى طبرق .. ونحن نتوقع كل يوم حدوث اعتقالات فى درنة ."
سألته :" ولماذا يقومون بذلك ؟"
رد إبراهيم قائلا :" لقد ألقوا القبض على ثلاثة من عائلة السنوسى .. لم يرتكبوا أية جريمة .. يشك الإيطاليون أنهم يساندون عمر المختار .. إنهم من أشهر المواطنين فى برقة ..
من الصعب على أى منا أن يشعر بالولاء إذا استمر الإيطاليون على هذا النحو."
وبعد لحظات وصل عبد العزيز .. العمدة السابق الذى حل محله إيطالى كعمدة للمدينة .. كان يبدو عليه الحزن الشديد .. أخبرنا أن الثلاثة المقبوض عليهم هم من المشاهير فى بنغازى وأنهم محل إعزاز كل فرد . قال :" نسأل الله أن يرحمنا ." ثم جلس معى ومع إبراهيم . كان برفقته عربيان .. تعارفنا كان أحدهما يدعى محمد المرجى وكان عمدة مدينة صغيرة قريبة من درنة فى اتجاه طبرق .. وكان الآخر تاجرا غنيا من درنة. سألنى الشيخ عن موعد سفرى من درنة .. فقلت له :" ليس لدى أدنى فكرة عن موعد سفرى .. إننى لا أفهم الكثير مما يحدث .. إن لدى تصريح بالسفر إلى مصر ولكنهم يمنعوننى من ذلك .. حاولت عدة مرات السفر ولكنهم كانوا يمنعوننى عند البوابات ."
هز التاجر رأسه قائلا :" تبدو المسألة غريبة فعلا .. ولكن من الصعب فهم ما يجرى هنا الآن .. لا أحد يشعر بالأمان ."
قلت له :" إن المسألة سيئة لكم ولى على السواء .. ولكن من أين لى أن أحصل على المال إذا لم يسمحوا لى بالسفر ؟ إننى أرغب فى مواصلة سفرى .. ولكنهم يهزون أكتافهم ويطلبون منى الانتظار ."

رد التاجر :" إن المسألة اختلفت عما كان عليه الوضع منذ أن كان دايوديس هنا ."
قلت له :" دايوديس !! هل تعنى عمدة المرج الجديد ؟"
رد التاجر قائلا :" نعم هو بعينه .. كان كل شئ على ما يرام عندما كان هنا .. كان الإيطاليون
على علاقة طيبة بالسكان هنا .. ولكن الآن الأمر مختلف تماما .. إننا نشعر وكأننا مطاردون .. إننا لانشعر بالأمان على الإطلاق ."
وافق سيدى عبد العزيز على ما قاله التاجر , ثم قال :" لقد حاولت دائما أن أتفق مع الإيطاليين وأتوافق معهم ولكننى لا أفهم ما يحدث الآن .. عمليات الإعدام تحدث كل يوم .. لقد شنق اثنان من أصدقائى هنا بالأمس .. وكانت التهمة الموجهة إليهم أنهما على اتصال بأعوان
عمر المختار ."
خيم الصمت على الجلسة .. جلس كل منا يفكر فى عمر المختار .. ويفكر فى شجاعته وهويحارب فى الجبال الحكم الأجنبى الغاصب .. ومعه حفنة قليلة من الرجال .. ولكن لم يكن هناك من يجرؤ أن يتحدث عن ذلك .
تنهد عبد العزيز قائلا :" ياللأسف .. نحمد الله على كل شئ .. إنها إرادة الله .. وعلينا أن نتحمل ونصبر .. إننا أضعف من الإيطاليين .. إننى أعتقد أن الحرب فى الجبال لن تؤدى إلى نتيجة .. إنهم يستخدمون الغازات السامة .. سيقضون على كل من فى الجبال جميعا .. مساكين .. مساكين .. هؤلاء الذين يحاربون وهم نصف عرايا وهم جياع ."
قلت لهم :" هناك شئ ما يحدث هذه الأيام .. كل يوم تغادر المدينة عدة سيارات .. كلها مسلحة تسليحا ثقيلا ."
قال التاجر :" ربما هذه أوامر الجنرال جرازيانى .. إنه يريد القضاء على الانتفاضة .. ولكن إذا استمروا بهذه الطريقة فسوف يقضون علينا جميعا ."
رد إبراهيم :" ربما هذا ما يتمنونه لنا ."
قال التاجر :" لاأعتقد ذلك ."
سألته :" ولم لا ؟ .. لن يعرف أحد فى أوروبا ما يحدث هنا وطالما أن هذا سيعمل على نصر الفاشية فلا أحد يهتم بالوسيلة التى يتحقق بها ذلك .. إن كل ما يشاع فى أوروبا من أن العرب المتعطشين للدماء .. يهاجمون الإيطاليين المسالمين فى برقة ليس من الحقيقة فى شئ .. إننى الوحيد الذى يعرف من هم البرابرة الإيطاليون أم العرب ؟ "
لم يكن هناك فى الشوارع من يجرؤ على أن يتكلم فى مثل هذه الأمور . جلس الجميع فى صمت وحزن .. كان الإريتريون يملأون الشوارع ويجلسون على المقاهى ويشربون الخمر التى حرم الإسلام شربها .
وقف التاجر وصافح الجميع وخاطبنى قائلا :" إنه لمن دواعى سرورى أن أدعوك إلى منزلى إذا قبلت دعوتى ."
قلت له إن ذلك يسعدنى أيضا , وجه الدعوة إلى الآخرين أيضا ولكن إبراهيم فقط هو الذى قبل الدعوة . كان منزل التاجر جميلا وكان مبنيا على الطراز الإسلامى .. دخل

ولديه وابنته وقبلوا يد والدهم ثم توجهوا إلينا بالتحية . كنا نشرب الشاى عندما أخبرنى مضيفى أنه على علاقة طيبة مع دايودايس .. وكيف أنه مستاء لما آلت إليه الأمور .. وأخبرنى أيضا أنهما كانا يتراسلان .. ولكنهما توقفا الآن .. حتى دايودايس كان يخاف .. لقد تمكن الطغيان من برقة وفرض نفسه بقوة عليها .

وفى صباح اليوم التالى أديت صلاة الجمعة فى المسجد الذى امتلأ عن آخره بالمصلين . وبعد انتهاء القارئ من قراءة القرآن .. وقف الإمام فجأة ووجه كلامه للمصلين قائلا :" لدى إعلان من الحكومة الإيطالية بأن لا يأتى ذكر عائلة السنوسى على المنابر .. وبناءا عليه فإنه ممنوع على أى فرد ممارسة شعائر هذه الطائفة ."

وبعد أن فرغ الإمام من قراءته للإعلان .. خيم الصمت على المكان ولم يتفوه أحد بكلمة.. مع أنهم جميعا من أتباع هذه الطائفة . وبعد انتهاء الصلاة بدأت المناقشات العنيفة بين المصلين.

قابلت إبراهيم فسألته عن معنى هذا الإعلان . هز رأسه قائلا :" لا أعرف السبب ولكنهم ربما يرغبون فى إنهاء نفوذ السنوسى فى برقة .. ولكننى لا أعتقد أنهم سينجحون فى ذلك ."

سألته :" وهل يوجد الكثيرون هنا من أتباعه ؟"

رد إبراهيم :" الجميع هنا من أتباع السنوسى .. إن عقيدة السنوسى هى الصورة النقية للإسلام . فهى تنادى بأن الصورة الكاملة لأخلاقيات المسلم تتكون من خلال تهذيب النفس والرقى بها."

سألته :" وكيف ذلك ؟"

رد قائلا :" باتباع تعاليم الإسلام حرفيا بجعل الجسم عبدا للروح .. بالتركيز دائما على عمل الصالحات والصوم .. وهكذا نسمو بأرواحنا نحو الله ."

سألته :" وماذا يضير الإيطاليين فى ذلك ؟"

رد إبراهيم :" أنا لا أفهم أهداف الإيطاليين من ذلك .. ومن الأفضل ألا نتحدث فى الموضوع .. وبالتأكيد سوف تكون هناك عقوبات صارمة لمن يتبع السنوسى .. وقد يكون السبب هو هزيمة

سيدى إدريس السنوسى الأمير الشرعى لبرقة والذى سبق وطردوه .. لا أجد سببا غير ذلك ."

كنت أذهب كل يوم إلى مكتب المفوض , وكنت أتلقى نفس الإجابة " عليك الحضور غدا ."

واصلت الاحتجاج .. ولكن دون جدوى .. أرسلت برقية إلى دايودايس فى المرج ولكنها لم تصله . ومرت الأيام وبدأت أبيع فى بعض ما لدى من أشياء حتى أوفر نفقاتى .. الخيمة .. البطاطين .. الآلة الكاتبة و الكاميرا .

وفى يوم 17 من يونيو انتشرت أخبار مثيرة فى درنة .. فقد ألقى القبض على علية القوم فيها وبدون سبب .. فقط شكوا أن يكونوا على اتصال بالمتمردين . قبضوا على رجل مسن عمره ثمانون عاما , واثنين من التجار متوسطى العمر , ومدرس عمره تسعة عشرة عاما , بالإضافة إلى صبى فى سن الثالثة عشرة من أقرباء السنوسى .

ظهر الرعب على الوجوه .. ملأ الجنود المدينة طوال الليل خشية حدوث اضطرابات .. ومع كل هذا احتفظ الناس بهدوئهم , وأثناء صلاة الظهر دخل الجنود فجأة إلى ساحة المسجد الذى بناه السنوسيون وطردوا المصلين خارجه .. وأغلقوا الأبواب بالشمع الأحمر .

ذهبت إلى الفندق ووصلتنى رسالة فى الساعة الثالثة يخبروننى فيها أننى أستطيع السفر فى السابعة من صباح اليوم التالى . أعددت السيارة وقمت ببيع بعض من متعلقاتى ثم سددت فاتورة الفندق .. ولم يتبق معى سوى مبلغ قليل يكفينى بالكاد للوصول إلى السلوم على الحدود المصرية .. كان من السهل عليّ هناك الحصول على نقود من الدنمارك .

ذهبت إلى المدينة كى أودع أصدقائى , وفى الساعة الخامسة حضر أحد الجنود وطلب منى

اصطحابه فورا .

ذهبت إلى الثكنات العسكرية, وهناك قابلت ضابطا برتبة ملازم .. قال لى :" هل أعددت كل شئ للسفر غدا ؟"

قلت له :" نعم ."

رد قائلا :" وهل السيارة فى حالة جيدة ؟"

قلت له :" نعم ."

رد قائلا :" حسنا .. أنت مقبوض عليك ."

قلت له :" ماذا تقول ؟ مقبوض عليّ !! بأى تهمة ؟؟ "

قال :" لا أعرف ."

قلت له :" ولكنك لا يمكنك اعتقالى بدون تهمة ."

رد قائلا :" هذه هى أوامر الحكومة .. أعطنى جواز سفرك ."

أعطيته جواز سفرى .. ثم وضعوا الأغلال فى يدى .. فجأة أصبحت سجينا .

جلس الضابط وكتب بعض الأوراق ثم نهض قائلا :" أولا سنذهب إلى سيارتك ."

ركبنا سيارة عسكرية , وتوجهنا نحو الفندق حيث كانت توجد سيارتى.. ربطوا يدى إلى عجلة القيادة وتوجهت بها إلى موقف السيارات العسكرية حيث أوقفتها هناك .. واتجهنا بسيارة عسكرية أخرى توجهت بنا إلى السجن .

كان السجن فى درنة عبارة عن مبنى كبير تبدو عليه الكآبة, ويقع فى قلب المدينة .. يديره

رقيب إيطالى .. أما بقية العاملين فى السجن فكانوا جميعا من العرب . وصلنا فى الساعة السابعة .. أخذوا كل متعلقاتى .. سجلوا اسمى .. ثم أودعونى زنزانة .. لم يكن بها سوى دلو به ماء .. يملأ مرة واحدة فى اليوم .. لك الحق فى استخدامه فى الاغتسال أو الشرب .. وفى وسط الزنزانة قطعة من القماش للنوم .. كانت الجدران بيضاء .. أو هكذا تخيلت أنها كانت كذلك يوما ما .. وعليها أبراص تندفع هنا وهناك تصطاد الحشرات التى كانت تعيش بين الشقوق .

كان الباب مصنوعا من خشب البلوط .. به فتحة مربعة صغيرة ينظر فيها الحارس بين فترة وأخرى .
مرت الأحداث بسرعة كبيرة لدرجة أننى لم أدرك ما يحدث .. والآن لدى الوقت الكافى كى أفكر فيما حدث .. وبعد ربع ساعة من إيداعى الزنزانة أطفئت الأنوار .. حاولت النوم بصعوبة بين طنين البعوض والفكر .. كان ما يؤرقنى هو لماذا قبضوا عليّ ؟ وماذا اقترفت ؟
وفى صباح اليوم التالى .. وفى السابعة دخل أحد العرب ووجهه به آثار للدرن .. نظر إليّ مبتسما وسألنى :" حسنا . . هل نمت نوما هادئا ؟"
نظرت إليه بعبوس .. وقلت له :" ولكننى لا أعرف سبب وجودى هنا !! "
ركل الأرض بقدمه .. وقال :" لا تقلق بشأن ذلك .. فى الزنزانة المجاورة هناك أربعة من الشيوخ وصبى .. وهم لا يعرفون سبب وجودهم هنا ."
سألته :" هل هم موجودون هنا ؟ لقد سمعت عن قصتهم ."
وضع إصبعه على فمه قائلا :" أصمت .. لا تتحدث بصوت مسموع إنه لم يخرج حتى الآن ."
سألته :" ومن هذا الذى تقصده ؟"
قال :" الإيطالى .. ولكنه سرعان ما سيخرج لأداء رياضة المشى الصباحية .. عندئذ تستطيع أن تخرج لفترة قصيرة وتتحدث كيفما تريد ."
سألته :" وهل هذا سجن سياسي ؟ "
رد قائلا :" لا .. ليس سجنا سياسيا .. الحمد لله أنه ليس كذلك وإلا لما بقيت فيه ."
سألته :" ومنذ متى وأنت هنا فى السجن ؟"
قال :" منذ أربع سنوات ."
قلت له وقد أصابنى الرعب بما قال :" أربع سنوات ... وماذا كانت التهمة الموجهة إليك ؟"
قال :" هذه مدة قصيرة نوعا ما .. خاصة عندما تكون محكوما عليك بالسجن مدى الحياة .. أما الجريمة .. فقد ضربت رجلا بشدة على رأسه فخر ميتا ." توقف العربى عن الحديث قليلا .. أخذ يفكر بعمق ثم قال وكأنه عاد إلى الحياة :" حسنا .. عليّ أن أواصل العمل .. عليك بالخروج .. يجب أن أقوم بتنظيف أرضية الزنزانة ."
كان هناك فى الخارج ممر طويل به مظلة عالية تواجه الفناء . وبينما كان رفيقى فى السجن يقوم بتنظيف الزنزانة بخرقة قديمة .. شاهدت العرب وهم يغسلون ملابسهم فى إناء به ماء جارى .. قال رفيقى فى السجن :" يمكنك أن تدخل الزنزانة الآن .. أعلم أنك لست إيطاليا وإلا لما نظفت لك الحجرة جيدا .. ادخل الآن .. وسوف أذهب لإحضار الطعام ."
خرج ثم عاد بعد فترة قصيرة وهويحمل رغيفا من الخبز وقال :" هذا هو طعامك .. عليك
بالحرص فى تناوله .. فلن يأتيك أى طعام حتى صباح الغد ."
أغلق الباب .. وجلست وحيدا أقضم من الرغيف .. كان لدى الكثير من الوقت .. جلست أفكر مليا فيما حدث .. جلست أرقب الأبراص وهى تتحرك على الجدران

تلتهم الحشرات . كان من المستحيل النظر من النافذة .. فقد كانت تحت السقف مباشرة .. ولم يكن هناك مقعد أو أريكة لأقف عليها .. كنت أجلس على الأرض .. وسرعان ماأ شعر بالتعب .. أحيانا كنت أذهب إلى الفتحة الموجودة فى الباب وأنظر خارجها فلا أرى سوى جزء صغير من الممر .. كنت أحيانا ألمح رفقائى فى السجن .. كانوا جميعا من العرب .

وفى العاشرة حضر أحد الجنود واصطحبنى إلى المكتب .. وهناك قابلت مدير السجن الذى كان جالسا إلى مكتبه .

نظر إليّ قائلا :" لقد تلقيت أوامر بنقلك إلى بنغازى هذا المساء ."

قلت له :" ولكننى أود أن أعرف سبب اعتقالى وإيداعى السجن ."

رد قائلا :" عليك أن تعلم أننى هنا أتلقى الأوامر وأنفذها فقط .. أما الأسباب فلا شأن لى بها ."

قلت له:" ولكننى لم أرتكب شيئا يستوجب السجن ."

رد قائلا :" إذا لماذا كنت تمضى أوقاتك فى الحى العربى وفى المسجد ؟ "

قلت له :" وأى جريمة فى هذا ؟؟ "

قال :" عليك أن تتذكر دائما أن هناك حرب دائرة ."

كتب اسمى مرة أخرى وسألنى عن أمتعتى التى سآخذها معى إلى بنغازى , فأخبرته أننى
سأكتفى بالأشياء التى أحضرتها معى إلى السجن , وسوف أترك الباقى فى السيارة لحين عودتى .

غادر النقيب لأداء رياضة المشى .. وأعادونى إلى الزنزانة .. وبعد أقل من عشر دقائق حضر أحد الجنود العرب وأخرجنى من الزنزانة وقال إننى يمكننى البقاء فى الخارج حتى الظهر .

مشيت إلى نهاية الممر حيث كان الدرج يهبط بنا إلى الفناء .. كان مملوءا بالسجناء .. كانوا يتحركون بحرية فى فناء السجن عدا المحكوم عليهم بالإعدام .. كان الجميع بما فيهم حراس السجن العرب يظهرون كل اهتمام بالسجناء الأربعة والذين تم القبض عليهم منذ أيام قليلة .

رأيت أحد الجنود وهو يقبل يد أكبر السجناء سنا, وكان من درنة .. كان طويل القامة .. ممتلئ الجسم وذو طبيعة طيبة .. كان يبكى وهو يرى هؤلاء السجناء الأربعة وهم يغسلون ملابسهم .

سألته :" ما هى جريمتهم ؟"

رد قائلا :" إن الحكم الإيطالى للبلاد حكما مستبدا .. كل جريمتهم أنهم يمتون بصلة القرابة إلى السنوسى .. كان ذلك سببا كافيا لاعتقالهم ."

سألته :" وهل سيحكمون عليهم بالإعدام ؟"

رد قائلا :" لا أعتقد ذلك .. ولكنهم سوف يودعون السجن فى بنغازى ."

سألته :" وهل هم ذاهبون إلى بنغازى ؟ إننى ذاهب إلى هناك ."

قال :" إذا ستذهبون سويا إلى بنغازى .. لم أتلق أوامر حتى الآن .. ولكننى أعتقد أن المركب ستبحر بعد الظهر .. إنها تأتى من طبرق محملة بالسجناء ."

قلت له :" أريد أن أعرف منك كيف تعمل فى خدمة الإيطاليين وأنت غير راض عن تصرفاتهم."
هز كتفيه قائلا :" ألا تعتقد أنه من الأفضل أن يكون هناك جنود مسلمون لحراسة السجناء أفضل من الجنود الإريتريين ؟ عندما يغيب الضباط الإيطاليون فإننا نبذل ما فى وسعنا للتخفيف عنهم ."
سألته :" وكم عدد السجناء هنا ؟"
قال :" يوجد هنا ستة عشر سجينا .. منهم اثنا عشر سجينا سياسيا والباقون متهمون فى قضايا عادية .. سيتم إرسال بعض السجناء السياسيين إلى بنغازى .. أنت واحد منهم .. وستة من بدو الجبال ." وهنا أدركت أننى سجينا سياسيا .
كان القاتل الذى قام بتنظيف زنزانتى , يقوم بصنع الشاى فى أحد أركان فناء السجن .
أحضر لى كوبا وقال لى مبتسما :" اشرب هذا .. إن طعمه طيب .. لقد أرسلته عائلتى من المدينة ."
شربت الشاى وشعرت بالسعادة .. فلم يكن هناك أمل فى الحصول على أى شئ سوى الخبز الجاف .
سألنى :" هل لديك سجائر ؟"
قلت له :" لا " فأخرج من جيبه علبة سجائر بها حوالى خمسة وأعطانى واحدة وقال :" إنهم يرسلون لى عشرة علب سجائر فى الأسبوع , وهى متوفرة معى طوال الأسبوع ."
غمز بعينه قائلا :" إننى أعرف سبب وجودك هنا .. لقد أخبرنى أحد الجنود .. لقد رأيت
عمر المختار ."
هززت رأسى وقلت له :" وهل هذا ما يقولونه ؟ إننى أذكر لك أننى لم اره فى حياتى ."
رد قائلا :" نعم .. ولكنك رأيت المحفدية ."
قلت له :" نعم .. هذا صحيح ."
قال :" عليك بالانتظار وسترى بنفسك .. سوف يتهمونك بالتجسس ."
وفجأة سمعت صوتا يرتل سورا من القرآن .
سألته :" ومن هذا الذى يرتل القرآن ؟"
رد :" تعالى معى وسوف ترى بنفسك ."
خرجنا سويا وتوجهنا نحو الفناء .. ونحو الزنزانة التى يصدر منها الصوت . نظرت إلى داخلها .. كان هناك ستة من العرب يفترشون الأرض .. كانوا حفاة .. ملابسهم مهلهلة .. ومع ذلك كانت تبدو عليهم الوسامة .. كانوا فى مقتبل حياتهم وكان أحدهم يغنى .
قال لى السجين :" إنهم من المحفدية .. إننى لا أمل النظر إليهم .. وجوههم تشع نورا وهدوءا كأنهم ليسوا سجناء ..ترى فى عيونهم بريق وهم ينصتون إلى المغنى ويعيشون معه كل كلمة."

سكت برهة ثم استطرد قائلا :" إنهم من المحكوم عليهم بالإعدام .. وربما تنفيذ الحكم غدا .. سوف يتم اطلاق الرصاص عليهم من الخلف مثل الآخرين .. إنهم يعتبرونهم من المتمردين ."
نظرت إليهم بكل اهتمام وقلت له :" ولكنهم ليسوا من المتمردين .. لم يظهر على وجه أحد منهم
أنهم سجناء على حافة الموت .. لقد تملكنى إعجاب شديد بهم .. هؤلاء الرجال الذين كانوا يقطنون الجبال ويرفضون الاستسلام .. لقد كانوا يفضلون الموت على حياة الاستعباد ."
حضر الحارس الممتلئ الجسم وسألنى :" هل تحب أن تقابل المحفديين ؟"
قلت له :" نعم .. ولكن هل ستسمحون بذلك ؟"
قال :" لا حرج عليك فى ذلك ."
سكت لحظة ثم قال :" لقد خرج الرقيب .. ولن يرجع أحد حتى موعد رحيلك ."
قال ذلك وفتح باب الزنزانة ودخلت . اندهش الرجال فى الزنزانة على الرغم من أننى كنت أرتدى الملابس العربية .. بدت عليهم الحيرة .. ربما لم يسبق أن شاهدوا ملابس مغربية من قبل .. وتوقف الغناء .
توجه الجندى نحوهم وقال :" ها هو سجين آخر .. لقد أودع السجن لأنه على اتصال بالمحفدية, إنه من أصدقاء العرب الأوفياء ."
قلت لهم :" نعم .. إننى صديق للعرب وأحبهم أكثر كلما قابلت عربا أكثر ."
قال الجندى :" إنه مسلم ايضا ."
قال السجناء :" ندعو الله أن يطلق سراحك فى فى القريب ."
واغرورقت عيناى بالدموع .. لم يفكر هؤلاء الرجال فى مصيرهم المحتوم .. كانوا يدعون بالخير لى .. هؤلاء الذين كان ينعتهم الضباط الإيطاليون بأبشع الألفاظ .. كانوا يصفونهم بالبهائم .. لقد اتضحت الصورة أمامى .. لم يكن الإيطاليون يعرفون هؤلاء الرجال حق
المعرفة .. ولم يفهموا طبيعتهم .. لم يعرفوا طبيعة هؤلاء الذين جعلوا منهم عبيدا .
همس لى الجندى وقد تملكه الحزن :" إننا لا نساوى شيئا بجانب هؤلاء العظماء ."
طلب منى أحدهم- وكان يقرأ القرآن قبل دخولى الزنزانة - الجلوس .
سألته :" هل يسمح لكم بحمل المصحف ؟"
رد مبتسما :" لا .. ولكننى أحفظ القرآن كاملا .. لذا لايستطيع أحد أن ينتزعه منى ."
سألته :" متى اعتقلوك ؟"
رد قائلا :" منذ عشرة أيام .. على طريق طبرق .. لقد قبضوا على كل من تبقى من الرجال .. كنا خمسين رجلا .. لم يبق سوانا على قيد الحياة .. لقد حصدتنا المدافع الرشاشة .. سرعان ما سيقضون علينا جميعا ."
سألته :" وهل صحيح أن الإيطاليين يستخدمون الغازات السامة ؟ "
رد قائلا :" نعم .. إنهم يقذفون القرى بقنابل الغازات .. إن الموت بالرصاص أفضل من الاختناق بالغاز .. إن استنشاق الغازات يؤدى إلى تلف الرئتين ."

عاد الجندى وأخبرنى أن السنوسيون يريدون مقابلتى .. فودعت الرجال الشجعان الذين كانوا يستعدون للموت بقراءة القرآن .. كانوا يرتلون سورة يس .
كان السنوسيون فى زنزانة واحدة .. كانت زنزانة كبيرة .. وعندما دخلت وقف الجميع لمصافحتى .. وقف أكبرهم سنا .. كان أشيب الشعر واللحية .. قال لى :" لقد سمعنا الكثير عنك من درنة . " ودعانى لتناول الطعام معهم . وحيث أننى كنت أفضل طعاما آخر غير الخبز
الجاف .. فقبلت دعوته .. لقد كانوا يسمحون لهم باحضار الطعام الخاص بهم .. جلسنا جميعا لتناول الطعام .
تنهد العجوز قائلا :" للأسف .. لم نكن نتوقع أن نتقابل هنا ."
قلت له :" لا داعى للشعور بالأسف .. ولكن ما السبب فى وجودكم هنا ؟"
قال :" الله وحده يعلم .. ذات مساء بين صلاتى الظهر و العصر .. حضر ثلاثة من الإيطاليين للقبض علينا .. لانعرف لماذا وضعونا فى السجن ولا إلى أين سينقلوننا ؟ "
قلت له :" سوف ينقلوننا إلى بنى غازى هذا المساء ."
قال العجوز :" نسأل الله تعالى أن يمنحنا القوة أمام هذه الصعاب ..كي نتحمل كل هذه الأمور."
رد المعلم :" ما فائدة محاولاتنا فى التفاهم مع الإيطاليين ؟؟ إنهم يفتعلون الخلاف الخلاف معنا .. إنهم يريدون أن يدفعونا جميعا للعيش فى الجبال ."
وصل أحد الصبية من المدينة ومعه الطعام وكمية كبيرة من الموز , ثم أعطانى كمية كبيرة من الفاكهة . فسألته مندهشا :" ومن الذى أرسل لى هذه الفاكهة ؟"
رد قائلا :" غير مسموح لى أن أخبرك عمن أرسل الفاكهة , ولكن درنة بأسرها ترسل لكم جميعا خالص تحياتها , ويدعون الله أن يحفظكم من كل سوء ."
قال العجوز :" اسمع ياحامد .. أعتقد أنهم سينقلوننا هذا المساء .. أرجو أن تطلب من الجميع التزام الهدوء أثناء مرورنا فى الشوارع ."
بكى حامد بكاءا شديدا .. حاول أن ينطق ببعض كلمات فلم يستطع .. قبل يد العجوز ثم خرج .
كان الطعام عبارة عن لحم مسلوق وأرز وجزر .. لم نكد نبدأ فى تناول الطعام حتى دخل الجندى قائلا :" عليك بالرجوع فورا إلى زنزانتك .. إن مدير السجن على وشك العودة ."
عدت من فورى إلى الزنزانة .. وبعد خمس دقائق استدعونى للنزول .. وقد وضعوا أمتعتى وحقيبة الأوراق الخاصة بى على الأرض .
قال مدير السجن :" سوف ننقلك إلى بنغازى الآن . "
جلست بملابسى العربية بين اثنين من الجنود الإريتريين .. حتى حضر بقية السجناء .. جلسوا بجانبى .. حضر الجندى الممتلئ الجسم ومعه سلاسل وأغلال .. وضعها حول أيدينا وهويقول بصوت منخفض :" أنا أشعر بالأسف لهذا ."
قلت له :" لا ذنب لك فى ذلك ."

وضع الأغلال فى يد الرجل العجوز .. وجسده كله ينتفض .. فلم يسبق أن تعرض لمثل هذا الإذلال .. أعطونا أمتعتنا وكان من الصعب الإمساك بها وأيدينا مقيدة .. أعطوا كل واحد منا رغيفين من الخبز .. غذاؤنا لمدة يومين .
فتحوا بوابة السجن .. وخرجنا ونحن نحمل أمتعتنا إلى الشارع .. وقف ستة من الصبية خارج السجن .. هرعوا إلينا وحملوا حقائبنا .. توجهنا نحو الميناء من خلال شوارع جانبية .. فلم يكن الإيطاليون يجرؤون على المرور فى الحى العربى .. ولم نقابل سوى القليل من الناس أثناء سيرنا, كانوا يهرعون إلينا ويقبلون يد الرجل العجوزويقولون:" السلام عليكم .. السلام عليكم."
وأخيرا وصلنا إلى الميناء .. كان وقت الظهيرة والحرارة شديدة .. لم تكن الباخرة راسية على
الرصيف .. لذا نقلونا فى قارب صغير حيث كانت الباخرة راسية .
كان الصبية يبكون طوال الطريق من السجن إلى الميناء .. وعندما وصلوا سألنى أحدهم :" هل لديك نقودا ؟"
قلت له :" نعم ."
أخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة العشر ليرات قائلا :" لولم يكن لديك نقودا لأعطيتك إياها حتى تشترى طعاما فى السجن ."
تأثرت لمبادرته وشكرته كثيرا .. ثم ركبنا القارب وتوجهنا نحو الباخرة .. وعند وصولنا فكوا الأغلال وصعدنا إلى الباخرة باستخدام سلم من الحبل .. لم يستطع العجوز الصعود بسرعة فوكزه أحد الجنود بمؤخرة بندقيته حتى يسرع فى تسلق الحبل .
كانت الباخرة مخصصة لنقل السجناء .. كانت قذرة للغاية .. كانت صورة مناقضة لصور بواخر الركاب الفخمة التى كان الإيطاليون يظهرونها للعالم كى ينالوا إعجابهم .
وقف على سطح الباخرة عشرة جنود إريتريين وهم يحملون بنادقهم وكأنهم فى استعراض للشجاعة . كان المسئول عنا رقيبا إيطاليا تبدو عليه الصرامة .. وضعونا فى صف واحد وأحصوا عددنا .. كنت أنا أولهم .. وبعدى مباشرة الرجل العجوز .. كانت شفتاه لاتنطق إلا بالدعاء .. ثم الشيخ الذى تعرفت عليه .. ثم التاجر .. كان متوسط العمر .. لحيته سوداء وعيناه زرقاوتان .. ثم الشابين الصغيرين .
دفعونا إلى المقدمة .. وهناك هبطنا إلى أسفل حيث مكان احتجازنا .

كانت رائحة المكان منتنة .. كانت هناك حجرة كبيرة يعيش فيها الجنود الإريتريون .. أما السجن فكان إلى اليمين منها .
كان السجن من أسوأ ما يمكن .. ليس فيه أى وسائل للراحة .. كان سقفه منخفضا .. وبمجرد دخولك إليه تشعر برغبة فى القئ .. كان هناك أربعة عشر سريرا مثبتا فى جانب الباخرة كانت موضوعة فى صف واحد .. كانت تبدو كالأقفاص يحدها من الأمام قضبان حديدية .

كان فيها ستة من السجناء .. يبدو أنهم قد ركبوا الباخرة من طبرق .. وهى آخر الأراضى التى تحتلها القوات الإيطالية . كان هؤلاء جميعهم من العرب وحالتهم الصحية سيئة للغاية .. كانوا مقيدين بالأغلال فى القضبان الحديدية ومعاصمهم متورمة من القيود .. كانوا مقيدين بالأغلال منذ ثلاثة أيام .. طوال الرحلة من طبرق إلى درنة .. كانوا يعانون من دوار البحر .. ويستنشقون هواءا خانقا .. كانوا يتقيئون على الفراش .. ثم يقومون بتنظيفه وأيديهم مقيدة .

تولى حراستنا فى هذا المكان القذر أحد الجنود الإريتريون وهو يمسك مسدسا وبندقية . لم يكن لدى الإيطاليين فكرة عن كونى أوروبيا .. خاصة وأنا أرتدى الملابس العربية .. لأنهم لو فطنوا إلى ذلك لكانوا وضعونى فى مكان آخر . ولكننى حمدت الله على أنهم لم يدركوا ذلك .. لأننى هكذا استطعت أن أرى الحقيقة وألمس الواقع بنفسى .. دون مبالغة ولا تزيين ولا تعديل .. لقد رأيت الحقيقة هنا .. رأيت الخبز يغرق فى القاذورات والقئ .. رأيت كيف يشرب الفرد من كوب لم يسبق تنظيفه .. رأيت الفراش وقد امتلأ بالحشرات .. كان هذا المكان هو المكان الذى أثبت فيه الرجال أنهم أبطال .. رأيت فى هذا السجن الصغير أعظم الأبطال .. لم أر مثلهم فى حياتى .

خصصوا لى أول قفص بالقرب من الباب .. ثم قيدونى بالأغلال ووضعوا القيود حول معصمى .. ثم ربطوا السلاسل فى القضبان .. قيدوا الجميع .. حتى الصبى ذى الثلاثة عشر عاما قيدوه .. كان يتمالك دموعه وهم يفعلون ذلك .. كانت كل جريمتهم أنهم ينتمون إلى أفضل عائلات برقة . وعندما حان دور الرجل العجوز والذى كان محل احترام وتقدير بقية السجناء صاح أحدهم :" إننى ممكن أن أغفر للإيطاليين كل ما فعلوه بى , ولكن أن يضعوك فى الأغلال فلن أغفر لهم ذلك طوال حياتى ." قال ذلك وقد أنهكه المرض .

قال له العجوز فى هدوء :" لاتقلق ياعبد القادر .. إن الله معنا .. إن الله يرانا ويشهد علينا .. ويعلم أننا أبرياء .. إنه رب العباد .. سنظل معه إن شاء الله ."

نظر عبد القادر إليه قائلا :" إنك ياشيخنا لم ترتكب جريمة ومع ذلك يقيدونك فى الأغلال كالمجرمين ."

قال العجوز :" إن الله وحده هو العادل ."

كان الرجال جميعا يعرفون كل منهم الآخر .. كان السجناء إما يمتون بصلة قرابة إلى السنوسى أو ممن يعتنقون أفكاره .

سأل أحد الرجال عنى ومن أين أتيت ؟ قال له الشيخ :" إنه غريب .. حضر إلى درنة فى سيارته .. لقد تقابل مع عرب الجبال .. لذا قبضوا عليه ."

سأل الرجل :" وهل هو مسلم ؟"

رد الشيخ :" نعم .. إنه مسلم ."

قال الرجل :" أدعو الله أن يحررك مما أنت فيه .. لا تقلق .. الله سيكفلك برعايته ."

مرت الساعات .. حاولت مثلما حاول الآخرون أن نحتفظ بالخبز .. ولكن دون جدوى .. كانت القيود تدمى معاصمنا . اشتد الحر فى السجن الصغير .. كنا ثلاثة عشر سجينا فى حجرة صغيرة .. كانت الشمس شديدة والباخرة راسية فى الميناء . وفى

حوالى الساعة الخامسة حضر إبراهيم إلى سطح الباخرة .. أحضر الفاكهة إلينا .. لم يتمالك دموعه عندما رآنى مقيدا بالأغلال .. صافح كل واحد فينا وقال :" فليحفظكم الله ." ثم غادر الباخرة .
وفى الساعة السادسة تحركت الباخرة .. وسرعان ما كنا نبحر فى البحر الأبيض المتوسط .. كان البحر هائجا .. أصبنا جميعا بدوار البحر .. سقط الصبى الصغير عدة مرات فضربه الجندى الإريترى بقسوة . لايمكن وصف تلك الليلة التى عشناها .. كانت ليلة من أسوأ ليالى حياتى . فى الصباح فكوا أغلال أحدنا كى يقوم بتنظيف الحجرة .. فقد كانت آثار القئ فى كل مكان . لم ينعم أى منا بالنوم .. ووقت صلاة الصبح طلب منا الشيخ أداء الصلاة .. وطلب من الله الرحمة والمغفرة لأننا لم نتمكن من الوضوء .. وسجدنا جميعا لله نسأله الرحمة وأن يعيننا على ما نحن فيه . أما الجندى الإريترى فقد كان يعلق صليبا من الفضة حول رقبته , فأخذ يسخر منا ونحن نؤدى الصلاة .
وعند الظهر وقد اشتدت الحرارة .. توقفت محركات الباخرة .. وصعد بعض الجنود إلى أعلى
وبعد حوالى ربع الساعة عادوا وهم يدفعون سجينا جديدا أمامهم .. كانت يداه مقيدتين خلف
ظهره .. نزل بصعوبة بالغة .. كان صغير السن يرتدى عباءة مهلهلة .. وعندما دخل من الباب وقف مذهولا يحملق فيما أمامه .. يداه تنزفان من آثار الضرب ومعصميه متورمان .
دفعه أحد الجنود فانكفأ على وجهه .. وبدأت أنفه تنزف .. وسقطت الدماء على العباءة .. وصل إلى القفص الموجود أمامى مباشرة وقيدوه فى القضبان الحديدية مثلنا .. أغمض عينيه وطلب بعض الماء والطعام . فك الجندى أغلال أحد الصبية .. فأخذ قليلا من الماء والخبز وأعطاه للسجين الجديد .
بدأت الباخرة تتحرك ثانية نحو بنغازى .. قيد الجندى الصبى مرة أخرى .. أخذ الصبى يشكو من الألم الذى تسببه القيود لمعصميه .. ولكن الجندى لم يحفل بشكواه .
بدأ السجين الجديد يفيق قليلا وينظر حوله , سألته :" من أين أتيت ؟"
قال :" من قورين ." كان يتأوه من الألم .. كان يعانى من آثار سوء المعاملة التى تلقاها .
قلت له:" وما هى جريمتك ؟"
رد قائلا :" لا أعرف .. لقد اعتقلونى على الطريق وأودعونى فى السجن .. كان ذلك منذ
أربعة أيام ."
سألته :" وهل ستتم محاكمتك فى بنغازى ؟"
قال :" لا .. لقد حكمت عليّ المحكمة فى قورين بالأشغال الشاقة فى بحيرات الملح لمدة
ثلاثين عاما .. لو كانوا حكموا عليّ بالإعدام لكان كل شئ قد انتهى الآن . لقد كان الحكم عليه

قاسيا للغاية .. كانت بحيرات الملح داخل الصحراء الليبية .. ولأن الإيطاليين لايستطيعون
الحصول على عمالة مجانية لحمل الملح .. فإنها تلجأ إلى تشغيل السجناء .
كل من حاول العيش فى الصحراء حيث يندر الماء .. ويشعر المرء بالظمأ الشديد .. وحين تلفحه حرارة الشمس الشديدة .. وحين تلفح وجهه الرياح المحملة بالرمال الساخنة.. فتملأ
أنفه وأذنيه .. يمكن أن يفهم معاناة من يحكم عليه بالعمل فى تلك البحيرات .. إن الملح يأكل لحم هؤلاء البؤساء .. إنهم يعانون أفظع أنواع التعذيب أكثر مما ابتكره الأفراد فى فن تعذيب السجناء .. من المؤكد أن حكم الإعدام كان أفضل لهذا الرجل .. فقد حكموا عليه بالأشغال الشاقة لثلاثين سنة .. لن يعيش منهم سوى سنتين أو ثلاثة .
سألته ثانية :" ولكن ما هى جريمتك إذا ؟ "
رد قائلا :" لا أعرف .. سألونى عن سبب وجودى فى منطقة محظورة ."
سألته :" هل كنت تحمل بندقية ؟"
قال :" لا . قلت لهم أننى أحمل بعض الطعام لأخى الذى كان يختبئ فى الجبال ."
سألته :" وماذا كان يفعل أخوك فى الجبال ؟"
قال :" إنه فى الجبال مع أتباع عمر المختار .. إنهم اتهمونى بالخيانة .. واننى على اتصال بالمتمردين .. واقسم بالله أننى كنت أريد أن أرى أخى .. فقد مضت مدة طويلة منذأن رأيته آخر مرة ."
سألته :" وهل صدر الحكم عليك سريعا ؟"
قال :" لقد حكموا عليّ بالإعدام .. وفى اليوم التالى خففوا الحكم إلى الأشغال الشاقة فى
بحيرات الملح ."
قال العجوز :" إن الله برحمته ينظر إلينا جميعا . " تنهد العجوز ثم التزم الصمت .
كان الجو خانقا والرائحة كريهة .. حل الليل .. كان أفضل من الليلة السابقة .. فقد كان الطقس أقل حرارة .. ولكن القمل والبراغيث انتشرت فى الفراش .. فلم نحظ بالراحةسوى للحظات قليلة .. وأخيرا انبلج الصبح .. وظهرت بنغازى .
فكوا الأغلال وصعدنا إلى سطح الباخرة التى رست فى وسط الميناء .. كان رسوها فى وسط الميناء ليس بسبب تجنب الفضوليين .. فقد أبعدوا المسلمين .. أما الإيطاليون فقد كانوا لا يأبهون لمشاهدة منظرا يألفونه .. فقد كان قدوم السجناء حدث يومى لايثير اهتمامهم ولا فضولهم .
حشدونا فى وسط الباخرة كالماشية .. وبقينا ساعتين تحت أشعة الشمس الحارقة .. أحاط بنا الجنود الإريتريون من كل جانب وهم يحملون بنادقهم .. ولكن لم يكن منا من يفكر فى
الهرب .. إلى أين ؟؟
ربطونا جميعا بالسلاسل ونزلنا عن طريق السلم المصنوع من الحبال إلى حيث القوارب لتنقلنا إلى الشاطئ .. لو سقط واحد منا لسقط الجميع معه .. وحينئذ يصبح الموت هو مصير الجميع .

كان فى انتظارنا سيارتى نقل وسيارة أخرى محملة بالمدافع الرشاشة . قسمونا إلى مجموعتين .. ودفعوا كل مجموعة فى سيارة إلى السجن . كان السجن على مسافة قريبة من المدينة .. له أربعة أبراج كأبراج القرون الوسطى .. كان به فى كل برج حراس مسلحين بالمدافع الرشاشة .
دخلت السيارات الثلاثة إلى ساحة السجن .. نزلنا من السيارات .. قاموا بتفتيشنا .. ثم مشينا فى
ممر طويل إلى ساحة أخرى مملوءة بالمساجين .. تجمعنا فى حجرة واحدة كبيرة .. وأعطوا كل واحد منا مرتبة للنوم .. كان طعامنا عبارة عن رغيف من الخبز وحساء وخضروات .
تركوا باب الزنزانة مفتوحا .. كنا نتحرك بحرية فى فناء السجن .. سواء السجناء السياسيون
أو السجناء الذين ارتكبوا جرائم غير سياسية .
كان معظم السجناء السياسيين من العرب المثقفين ثقافة رفيعة .. والذين كان الإيطاليون يخشون جانبهم .. كان من السهل على الإيطاليين قيادة الجهلاء من العامة .. والذين تركوهم فى جهلهم حتى يسهل قيادتهم .
كنت كثيرا ما أتحدث إلى المعلم الشاب .. قال لى أنه كان معلما فى مدرسة فى درنة .. ولكن أصبح نقل المعلومات إلى التلاميذ مستحيلا حيث لم يكن يسمح لهم بتعلم أى شئ وكانت المعلومات فى الكتب سطحية ومقصورة على تمجيد الإيطاليين الذين عادوا إلى البلاد مرة أخرى, فقد كانت الكتب تبدأ بعبارة " كان هناك استعباد وقسوة وبربرية تعم البلاد ..وها قد عاد الرومان من جديد .."
حصل المعلم على وظيفته عندما كان فى سن الثامنة عشرة فقط .. والسبب أن معظم من يكبره سنا قبض عليهم أو نقلو إلى أماكن بعيدة .
وفى الساعة الثالثة أمرنا السجان الإيطالى بالدخول إلى الزنزانة .. كانت واسعة ولكنها بها شباك صغير أسفل السقف مباشرة .
وبمجرد دخولنا إلى الزنزانة أذن الرجل العجوز للصلاة , ورتل سورة العصر, ثم قال :" إننا
ندعو الله القوى العزيز أن يحمينا ويحفظنا وأن يدلنا على الطريق القويم .. والله يعلم أننا هنا ليس لجرم اقترفناه .. ندعو الله أن يطهر قلوبنا وأن يجعلنا من عباده الطائعين الراضين بقضائه .. وأن يجعلنا دائما فى كنفه وفى مرضاته .. حينئذ لن ينال منا أحد ." ثم قرأ سورة الإخلاص .
وبمجرد انتهاء الصلاة حضر السجان وفتح باب الزنزانة وطلب منى أن أصحبه على وجه السرعة إلى الخارج .
سألته :" وهل سأعود إلى الزنزانة مرة أخرى ؟"
رد قائلا :" لا أعرف .. عليك بالإسراع ."
أخذنى إلى الفناء الخارجى .. وهناك وقف الشرطى الذى اختلفت معه فى بنغازى لأننى

لا أتحدث الإيطالية .. ابتسم ابتسامة ماكرة قائلا :" والآن أيها الجاسوس .. الإنكار ليس له شئ سوى العقاب .. لايستطيع أحد أن يتجسس على إيطاليا الفاشية دون أن يناله عقاب رادع ."
قيدني بسلسلة حديدية رفيعة وخرجنا إلى حيث كانت سيارة فى انتظارنا .. أقلتنا السيارة إلى المدعى العام .. استجوبنى لمدة ساعتين .. شرحت له كل دوافعى فى السفر .. وأننى نفس الشخص الذى يعنيه .. وقصصت عليه كل الأحداث التى مررت بها منذ أن دخلت من الحدود الليبية .
وعندما انتهى التحقيق سألت المدعى العام :" أين صديقى الأمريكى تاربوكس ؟"
ابتسم المدعى العام قائلا :" عليك أن تشكره لقد استجوبناه .. وهو الذى أخبرنا أنك تتحدث العربية وأنك مسلم .. لذا فقد قررنا استجوابك ."
قلت له :" حسنا .. ولكننى أحتج على اعتقالى .. إننى لم أرتكب أى خطأ .. إننى لا أرى أية جريمة فى دراسة حياة العرب .. إننى كنت أريد فقط المرور إلى مصر ."
رد قائلا :" فى الوقت الحالى عليك بالعودة إلى السجن ."
سألته :" وهل أستطيع أن أتحدث إلى صديقى تاربوكس ؟"
أجاب :" سوف أفكر فى الأمر ."
أعادونى إلى السجن مرة أخرى , حيث بقيت لمدة ثلاثة أيام , وفى يوم السبت الموافق
23 يونيو .. استدعونى من السجن للمثول أمام المدعى العام .
قابلنى قائلا :" أنت حر طليق ."
لم أصدق أذناى , وسألته :" ولكن لماذا ؟ "
رد قائلا :" لقد اقتنعنا الآن أنك لست جاسوسا .. وعليك أن تشكر صديقك تاربوكس على ذلك."
كان الأمر محيرا .
عدت إلى الفندق الإيطالى وقابلت السنيور مالفسينى .. أخبرنى أن تاربوكس رحل إلى إيطاليا فى اليوم السابق .. غضبت من تاربوكس لذلك .. حتى وصلت إلى حل اللغز بمحض الصدفة .. قابلت السنيور جريكو الذى قال لى :" كان صديقك هنا يوم الجمعة المحدد لسفره .. وأنت أطلق سراحك فى اليوم السابق لذلك .. ربما رتبوا ذلك حتى لا تلتقيا سويا ."
أخبرته القصة كاملة , فرد قائلا :" إننى أستطيع أن أذكر لك أن صديقك كان وفيا لك ولم يرتكب شيئا ضدك .. عندما حضر إليّ بكى وأخبرنى أنه لايعرف سببا لاعتقالك .. لقد طلبوا
منه السفر قبل إطلاق سراحك حتى لاتسنح له فرصة الحديث معك مرة أخرى ."
سألته مندهشا :" ولكن إلى الآن أنا لم أعرف سببا لاعتقالى ."
رد قائلا :" و لا أنا .. ربما نحتاج إلى بعض الوقت حتى نفهم حل هذا اللغز .. ربما كانت هذه طريقة لمنعك من مواصلة رحلتك .. ربما لم يريدوا أن ترى المزيد هنا .. أما صديقك تاربوكس فليس عليه أى لوم أو خطأ .. إنه فى طريقه إلى أمريكا الآن ."

كانت هذه نهاية رحلتى بالسيارة فى أفريقيا .. لم أصل إلى مصر بالسيارة .. كان جريكو على حق .. لقد قبضوا عليّ حتى لا أمر عبر منطقة المعارك والتى امتدت بين درنة والحدود المصرية .. وقد استوثقت من ذلك عندما طلبت تصريحا للعودة إلى درنة لمواصلة رحلتى .. فقد رفضوا طلبى على الرغم من احتجاجى مرارا على ذلك .. حتى الحكومة الإيطالية عرضت أن تتحمل مصاريف رحلتى من بنغازى إلى الإسكندرية عن طريق البحر مع دفع تكاليف شحن السيارة من درنة إلى الإسكندرية .. ولكننى لم أقبل العرض .. إذا كان لى أن أذهب إلى مصر بسيارة فإننى أريد أن أقودها بنفسى ؟؟!.. ولذلك فقد قمت ببيع السيارة وجميع أمتعتى كما هى فى درنة وأبحرت إلى الإسكندرية يوم 25 يونيو ..وبذلك انتهت المغامرة فى برقة .
وعندما رست الباخرة خارج درنة طلبت إذنا بالنزول إلى البر ولكنه قوبل بالرفض .
حضر إبراهيم إلى الباخرة وقابلنى ووجهه يمتلئ بشرا قائلا :" الحمد لله الذى ردك لنا سالما حرا ."
سألته :" وكيف تسير الأمور فى درنة ؟"
رد إبراهيم وقد تغير وجهه :" الأحوال سيئة للغاية .. لقد أعدموا أربعة من البدو وأحد التجار رميا بالرصاص أمس .. لقد قابلته أنت من قبل ."
انطلقت صفارة الباخرة إيذانا بالابحار .. وعاد إبراهيم فى أحد القوارب الصغيرة .. وابتعدت الباخرة .. وبدأنا نبتعد عن درنة حتى توارت أشجار النخيل فيها عن الأنظار .. لم يتبق فى الذاكرة سوى الناس فى صراعهم .. كانت صور السجناء وبحيرات الملح والبنادق و المشانق ماثلة فى ذاكرتى دائما .
وكما وعدت أصدقائى بدو الجبال الذين أسرونى لفترة .. قررت الذهاب إلى سيدى إدريس السنوسى فى الإسكندرية . كان منزله خارج المدينة .. كان الوقت مساءا عندما طرقت الباب .. فتحه أحد السود .. نظر إليّ فى ارتياب وسألنى عن سبب حضورى .. وعندما أخبرته أننى قد حضرت من برقة اليوم وأرغب فى مقابلة سيدى إدريس السنوسى .. أخذ بطاقتى بعد أن كتب عليها سبب زيارتى .. وأغلق الباب ودلف إلى الداخل .
انتظرت لبضع دقائق .. ثم فتحت البوابة ودخلت مع أحد السود إلى الداخل .
دخلت إلى حجرة مكتب مؤثثة تأثيثا جميلا .. قابلت أحد الرجال .. نهض عند دخولى محييا .. قدمت له نفسى وقلت له أننى وصلت لتوى من برقة .
قال لى بأسى :" إننى من عائلة السنوسى .. ولكننى مثل الآخرين لا نستطيع العودة إلى وطننا."
وفى هذه اللحظة دخل سيدى إدريس .. كان فى منتصف العمر .. يرتدى الملابس الأوروبية باستثناء الطربوش .
بادرنى قائلا :" لقد ذكرت فى بطاقتك أنك أتيت من برقة ."
قلت له :" نعم .. لقد وضعنى الإيطاليون فى السجن .. إننى أريد أن أنقل لك تحيات بعض من مواطنيك الذين قابلتهم فى السجن ."
سألنى :" ولماذا وضعوك فى السجن ؟"

قلت له :" لأننى وقعت أسيرا فى يد البدو فى الجبال .. كان الإيطاليون يعتقدون أننى جاسوس .. إننى أنقل تحيات البدو أيضا."
تنهد سيدى إدريس بعمق قائلا :" هؤلاء التعساء .. إنهم يحاربون إلى آخر رمق فى حياتهم .. ماذا يفعلون ؟ ؟ إن الإيطاليين يحضرون الكثير من الجنود الإريتريين لمحاربة شعبنا فى الجبال .. إن النصر بيد الله وحده ."
قلت له :" وأكثر من ذلك فقد قام الإيطاليون منذ ستة أيام بإغلاق مساجد السنوسيين فى برقة ووضعوا قيودا على نشر تعاليم السنوسى."
نظر إليّ بحدة وسألنى :" هل تعرف تعاليم السنوسى ؟"
قلت له :" لقد اعتنقت الإسلام وسمعت الكثير عن تعاليم السنوسى ولكننى لم أدرسها بنفسى ."
قال :" إن ما يهدف إليه السنوسى هو الورع ونقاء القلب .. ولكن كيف يتحقق ذلك ؟؟ بأن تفكر فى الله وحده .. وأن تعمر قلبك بحب الله وحده .. مع الاعتدال والامتناع عن أى متعة تبعدنا عن طريق الله ."
سألته :" ولماذا يحارب الإيطاليون تعاليم السنوسى إذا ؟"
رد قائلا :" لأن الذى يتبع تعاليم السنوسى يصبح صحيح الجسم سليم العقل .. إن الإيطاليين يحاولون أن يزيدوا شعب برقة جهلا وتخلفا كما حدث فى أماكن كثيرة من العالم الإسلامى .
إذا زاد الجهل والتخلف كان من السهل على الإيطاليين أن يقدموا مدنيتهم وحضارتهم .. ولكن ذلك لن يحدث إذا انتشرت تعاليم السنوسى ."
سألته :" ولم لا ؟"
رد قائلا :" تتسم تعاليمنا بالتسامح مع أى شكل آخر من أشكال الإسلام .. بل مع أية ديانة أخرى .. إن تعاليمنا بسيطة للغاية .. يجب تقوية الجسد بالاعتدال فى كل شئ وعدم الاسراف فى أى شئ حتى يصبح هذا الجسد جديرا بالروح التى تدب فيه .. إن السنوسى لا يتعاطى أية مخدرات ولا يدخن .. لا تجعل من نفسك عبدا لأى شئ .. كن عبدا لله وحده .. يجب عليك أن تتحكم فى الظروف لا أن تجعل الظروف تتحكم فيك . إن المدنية التى يحاول الإيطاليون إدخالها إلى برقة تجعل الظروف هى التى تتحكم فى الأفراد .. لذا يجب علينا مقاومتهم ."
سألته :" وكيف تجعلنا المدنية عبيدا للظروف ؟"
رد قائلا :" إنها تعظم من التقدم الفنى وأهمية الميكنة .. إنها تعتبر القوة الخارجية هى العامل الأساسى عند تقييم الأمم والأفراد .. إنها تتجاهل الصفاء والسمو الداخلى .
إننى أؤكد لك أنه حيثما توجد تعاليم السنوسى فإنك تجد الرضا والقناعة والسلام فى كافة الجوانب ."
سألته :" ومن يحكم السنوسى ؟"
ابتسم سيدى إدريس بمرارة قائلا :" تستطيع أن ترى بنفسك .. فانا الحاكم الشرعى لبرقة ولكن
عليّ أن أعيش فى المنفى .. فى الإسكندرية .. ولا أستطيع العودة إلى وطنى .. إننا نحكم فقط الذين يعيشون فى الجبال وفى الكفرة ."

قلت له :" لقد سمعت الكثير عن الكفرة .. حيث كان هناك أسيران من الضباط الإيطاليين ."
قال سيدى إدريس :" إن الكفرة مجتمع صغير يعيش دائما فى سلام مع جيرانه حتى الان .. بينما يحاول الإيطاليون إخضاع ليبيا كلها .. وأعتقد أنهم سيحاولون غزو الكفرة قريبا .. وربما ينجحوا فى ذلك .. فإنهم يستطيعون حشد الكثير من الجنود الإريتريين ليحاربوا فى صفوفهم .
هل تعرف لماذا يستخدم الإيطاليون الجنود الإريتريين ؟"
قلت له :" لا ."
أضاف قائلا :" لأن الإريتريين يدينون بالمسيحية .. لقد أشعل الإيطاليون حربا دينية فى برقة."
وافقت على ما قال , وقلت له :" هذا صحيح .. لقد رأيت بنفسى الجنود الإريتريين وهم يضعون الصليب على صدورهم ."
رد سيدى إدريس قائلا :" إننى أعتبر أن إيطاليا قد ارتكبت خطأ كبيرا عندما زعمت أنها جاءت لنشر الثقافة .. لقد سقط هذا الادعاء .. لقد علمت أن المسيحية تعنى الحب والتسامح .. ولكن الإيطاليين أدخلوها لخلق الحرب والكراهية ."
سألته :" وما هى رؤيتك للمستقبل ؟"
قال :" المستقبل كما أراه .. مظلم وكئيب .. لم يعد لتركيا وجود كدولة إسلامية .. لقد قضى مصطفى كمال على الدين لأنه اعتقد أن بناء تركيا قوية يستلزم تحييد الدين .. ونحن كسنوسيين
ارتبطنا بتركيا ارتباطا غريبا .. إن عمى أحمد الشريف والذى كان منذ سنوات قليلة عميد العائلة .. ساعد الأتراك فى أثناء الحرب العالمية الأولى لأنه كان صديقا شخصيا للخليفة فى اسطنبول . أما السبب الثانى فهو لأن الإيطاليين كانوا قد بدأوا فى احتلال برقة .. وعند تولى مصطفى كمال مقاليد السلطة .. قطع عمى جميع الصلات مع تركيا .. وسافر وحيدا إلى مكة حيث يعيش الآن . وحقيقة الأمر أننى أقدر الفرنسيين إلى حد ما .. فقد أبدوا تفهما للإسلام وللثقافة الإسلامية .. وإذا كان لابد من الوصاية الأجنبية فإن الفرنسيين لن يكونوا الأسوأ على الرغم من ارتكابهم لأخطاء كثيرة وجسيمة . إننى أضع ثقة كبيرة فى ملك الحجاز ..
ملك نجد عبد العزيز بن سعود .. فهو قائد عظيم .. وهناك تماثل بين مبادئ الوهابيين ومبادئنا."
سألته :" وما رأيك فى مصر ؟"
رد قائلا :" أنت الآن فى مصر وستلمس كل شئ بنفسك .. وعندئذ تكوّن رأيك ."
سكت برهة ثم استطرد قائلا :" إذا كنت تحب أن تلمس كل شئ بنفسك فعليك بالذهاب إلى الكفرة .. هذه أفضل وسيلة للتعرف على الأمور ."
قلت له :" إننى أحب ذلك .. أود أن أذهب إلى الكفرة ."
رد قائلا :" هذا شئ رائع .. سوف أعطيك خطابا موجها إلى الكفرة حتى يحسنوا استقبالك .. ولكننى أعتذر لأننى عليّ أن أقوم الآن , وسوف تكون زيارتك التالية لى من دواعى سرورى."

قال ذلك وجلس إلى المكتب وبدأ يسطر رسالة إلى الكفرة . استأذنته فى الرحيل وودعته وخرجت .
توجهت إلى الفندق .. وكان الطريق يمر من حى الغانيات .. كانت موسيقى الجاز الأوروبية تصدع فى الشارع الذى امتلأ بالغانيات من كافة الجنسيات والألوان وهن يضعن المساحيق .. وفى وسط هذه الموسيقى كان هناك بيانو كهربى فى فندق سوناتا .
امتلأت الشوارع بالرجال على كافة جنسياتهم .. وارتفعت أصوات النساء .
كان هناك ثلاثة من البحارة الألمان السكارى يترنحون وهم يدخلون أحد المنازل تديره سيدة تعدت الخمسين من عمرها .. تحاول إخفاء السنين خلف المساحيق والمكياج ولكن دون جدوى .
أما الصبية الصغار فكان هذا الجحيم الذى يرونه بمثابة جنة لهم .. أو هكذا يظنون .. كانت القذارة منتشرة.. نزاعات هنا وهناك .
خرجت من ذلك كله وقد زكمت أنفى رائحة الخمر والبخور والعرق .. مررت بآخر العاهرات .. كانت تجلس على عتبة أحد المنازل .. كان أثر تعاطى الكوكايين واضحا فى عينيها .
أخيرا وصلت إلى الفندق.. حيث بدأت أنعم بالهدوء .. وخارج الفندق كان الرجال يجلسون على المقاهى يدخنون الأرجيلة ويتناقشون حول الأحداث . وعلى بعد رأيت ميدان ابراهيم باشا .. ورأيت الترام .. وسمعت آلات تنبيه السيارات .. وارتفع صوت المؤذن مناديا للصلاة من
فوق المئذنة .
أخذت الأحداث فى مصر منحى جعلنى أغير من خطتى وأعود إلى الدنمارك بعد أن أرجأت تنفيذ خطتى بالسفر إلى الكفرة وأداء فريضة الحج .
ذات صباح كنت أقف على سطح الباخرة " آسيا " مررنا بتمثال ديليسيبس .. أبحرنا بمحازاة

الساحل الإفريقى الذى كان يبدو بعيدا فى الأفق .. ودخلنا إلى البحر الأبيض المتوسط .. فهمت مغزى كلمات موسولينى عندما تحدث عن البحر الأبيض المتوسط قائلا :" إنه بحيرة إيطالية "
فقد انتشرت الفاشية فى أنحائه .
وبعد حوالى أسبوعين من مغادرتنا بورسعيد .. أبحرنا من خلال مضيق جبل طارق .. صعدت إلى سطح الباخرة .. كان الوقت فى الصباح الباكر .. بدأت الشمس ترسل أشعتها الحمراء الباهتة فى الأفق من جهة الشرق .. وفى جهة الجنوب استطعت أن أتبين أضواء طنجة و سبته وجبال الريف .. كنت هناك فى سبته منذ تسعة أشهر ..
وما زالت كلمات الانجليزى الذى قابلته فى الفندق ترن فى أذنى " سوف ترى إفريقيا بطريقة لم يعرفها أحد من قبل إذا سافرت وأنت ترتدى اللباس العربى ."
لقد صدقت قوله فعلا .. فقد رأيت إفريقيا .. وشهدت الصراع الذى يخوضه الإفريقيون كى يحتفظوا ببلادهم . بدأت الشمس تشرق .. وسرعان ما تبدد الضباب

حول الجبال .. أما فى الوديان فكان الظلام منتشرا .. الوديان حيث كان يناضل سكان الجبال بشجاعة تحت قيادة
عبد الكريم .

توجهت الباخرة نحو الشمال .. نحو الرفاهية والراحة التى وفرتها المدنية الحديثة .. وبينما كنت أنظر إلى الساحل الإفريقى وقد بدأ يغيب عن الأنظار .. اعتصر قلبى ألما على هؤلاء الفقراء الذين عرفتهم فى نضالهم اليائس .. سوف يسود العدل يوما ما .. عدل لا يشوبه جشع للسلطة .. عدل يدفع الجميع إلى فهم كل ما هو جميل فى هذا العالم .

وقد كان كيبلينج محقا إلى حد ما عندما قال " الشرق هو الشرق والغرب هو الغرب ".

وفى أعماق أنفسهم كانت شعوب الشرق والغرب تعلم وتدرك أنها متماثلة .. فهما فرعان
لنفس الشجرة .

وعندما يبحث الانسان فى قلبه بغض النظر عن مكانه ونشأته.. فإنه سوف يشعر بالحنين إلى أصل الشجرة . وربما كان ذلك هوسبب مقولة أن " من يطأ أرض إفريقيا بقدمه فإنه حتما سيعود إليها . "

النهاية